مجلة
كلية الآداب

العدد الحادى والعشرون

١٩٦٧

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بالشاطبى ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٦٨

فهرس

الرودكى ... ... صفحة

للدكتور طه ندا ١ — ٤٦

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ... ...

للدكتور أحمد مختار العبادى ٤٧ — ٧٩

أبو تمام فى مصر ... ...

للدكتور طه الحاجرى ٨١ — ١٨٠

المؤرخ وليام الصورى ... ...

للدكتور عمر كمال توفيق ١٨١ — ٢٠٠

حول أهداف الجغرافية التاريخية واتجاهاتها الحديثة ... ...

للدكتور عبد الفتاح محمد وهيبة ٢٠١ — ٢٢٤

بين الفنون والبيئة فى كل من العراق ومصر فى عصورها القديمة

للدكتور محمد أبو المحاسن عصفور ٢٢٥—٢٤٠

حول وضع مصر فى الامبراطورية الرومانية .. ..

للدكتور مصطفى العبادى ٢٤١ — ٢٥٦

المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشيال

(١٩١١ - ١٩٦٧)

الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشيال

في صباح الخميس ٢٩ رجب ١٣٨٧ هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، فقدت كلية الآداب بجامعة الاسكندرية عميدها الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشيال فقدت الكلية بذلك عالماً من علمائها المخلصين ورائداً من روادها الذين ساهموا في بنائها .

لقد قضى رحمه الله أكثر من ثلاثين عاماً يدرس التاريخ في معاهد وجامعات مصر والوطن العربي . وأخذ عليه العلم أجيال متعاقبة من الطلاب الذين تأثروا بطريقته ومنهجه كما تأثروا بأخلاقه وروحه العالية . ولقد كون مدرسة كبيرة في حقل الدراسات التاريخية الاسلامية . وكانت دراسة التاريخ عنده تنهج المنهج العلمي الصحيح القائم على الدراسة التحليلية المقارنة مما أعطى لأبحاثه العديدة طابع الأصالة والجدة . وقد قدم للمكتبة العربية مجموعة من أجل البحوث والتحقيقات الدقيقة . كما نشر مجموعة من المخطوطات الفريدة في التاريخ الاسلامي . وشارك مشاركة فعالة في معظم اللجان والمجالس والمؤتمرات التي تبني السياسة التعليمية والثقافية في الجامعات والمعاهد العليا .

وقد قدرت الدولة قدره وفضله على العلم فمنحته جائزتها التشجيعية في ١٩٥٨ ووسام العلم من الدرجة الأولى عن كتابه « مجموعة الوثائق الفاطمية » . وكان الفقيد — رغم أعبائه الكثيرة — يحرص على طلب الرحلة إلى الأقطار

العربية والاسلامية ، وهو تقليد جرى عليه علماء الاسلام الأقدمون ، حرصاً منه على تطبيق مبدأ المشاهدة العينية فى كل ما يقوم به من دراسات فى التاريخ الاسلامى عامة وتاريخ العرب بوجه خاص . وحسبنا أن نستعرض بايجاز انجازاته العلمية الخصبة التى كانت موضع تقدير علماء الشرق والغرب :

الانتاج العلمى

كتب مؤلفة

(أ) باللغة العربية :

١ — رفاعة الطهطاوى "مجموعة أعلام الاسلام" ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢ — مصر والشام بين دولتين ، القاهرة ١٩٤٧ .

٣ — مجمل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ١٩٤٩ .

٤ — تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، القاهرة ١٩٥١ .

٥ — تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على، القاهرة ١٩٥٢

٦ — الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور القاهرة ١٩٥٢ .

٧ — الديرية (١) ، أسبابها ونتائجها (ترجمة عربية للفصل ٨٤ بقلم المؤرخ G. G. boulton من الموسوعة التاريخية "تاريخ العالم"

(The Universal History of the World. edit. by : Sir J. A. Hammerton.)

(والموسوعة من مطبوعات وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) القاهرة ١٩٥٧

٨ — الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة)

الجزء الأول (بلاد العرب والهند) القاهرة ١٩٥٧

---

(١) نشرت هذه الترجمة كذلك فى (مجلة الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١١ ، ١٩٥٧ — ، ص ١٨٣ — ٢٢١) .

٩ ــ الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث الجزء الثانى (مصر والشام) ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠ــ مجموعة الوثائق الفاطمية "مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية)الجزء الأول القاهرة ١٩٥٨ طبعة ثانية١٩٦٥ .

١١ــ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر،القاهرة ١٩٥٨

١١ــ رفاعة رافع الطهطاوى (مجموعة نوابغ الفكرالعربى) القاهرة١٩٥٨

١٣ــ قصة الكفاح بين العرب والاستعمار (بالاشتراك مع الاستاذ محمد سعيد العريان) القاهرة ١٩٦٢ .

١٤ــ مصر فى العصر الفاطمى (فصل من موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى مطبوعات وزارة الثقافة) القاهرة ١٩٦٣.

١٥ــ أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ــ القاهرة ١٩٦٥ .

١٦ــ دراسات فى التاريخ الاسلامى ، بيروت ١٩٦٦ .

١٧ــ تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية سنة ١٩٦٧ .

١٨ــ تاريخ مصر الاسلامية (الجزء الأول من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) ــ الاسكندرية ١٩٦٧ .

١٩ــ تاريخ مصر الاسلامية (الجزء الثانى : العصران الايوبى والمملوكى) الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢٠ــ علم التاريخ عند العرب وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى على عصر النهضة تحت الطبع

٢١ــ أبو بكر الطرطوشى (مجموعة أعلام العرب) ــ تحت الطبع

٢٢ــ جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب فى أخبار أيوب (رسالة دكتوراه لم تطبع بعد)

(ب) باللغة الانجليزية :

23 — A History of Egyptian Historiography in the 19th Century, (Alexandria University Publications) Alex., 1962.

24 — Historiography in Egypt in the 19th Century, in (Historians of the Middle East, edit. Bernard Lewis and P. M. Holt, Oxford University Press, London, 1962.)

25 — Some Aspects of the Intellectual and Social Life in 18th Century Egypt, in (Political and Social Change in Modern Egypt, edit. P. M. Holt, Oford University Press, 1967) .

كتب حققه من التراث العربى القديم

١ — اغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى — الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٠ (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة) الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

٢ — نحل عبر النحل للمقريزى ، القاهرة ١٩٤٦ .

٣ — اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقريزى ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

٤ — الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزى ، القاهرة سنة ١٩٥٥ .

٥ — مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لجمال بن واصل (مطبوعات وزارة الثقافة) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ .

٦ — الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ .

٧ — الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٠ .

٨ — حلية الزمن لسيرة خادم الوطن (ترجمة حياة رفاعة الطهطاوى) لصالح مجدى ، القاهرة ١٩٥٨ .

٩ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لبهاء الدين بن شداد ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٠ـ اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا (النسخة الكاملة) للمقريزى (مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية) الجزء الأول – القاهرة سنة ١٩٦٧ .

١١ـ أنيس الجليس فى تاريخ مدينة تنيس لمحمد بن أحمد بن بسام التنيسى ، بغداد ١٩٦٧ .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وألهمنا جميعاً أجمل الصبر .

المرحوم الدكتور محمد أحمد أبو الفرج

(١٩٢٥ - ١٩٦٧ م)

الدكتور محمد أحمد أبو الفرج

في يوم الخميس ، التاسع من نوفمبر سنة ١٩٦٧ م ، مضى إلى جوار ربه ، بعد اثنين وأربعين عاماً كانت قد بدأت تحفل بالنضج والاكتمال ، فترك برحيله فراغاً في كلية الآداب ، وفراغاً في قسم اللغة العربية ، وفراغاً في الدرس اللغوي على وجه الخصوص .

والمتتبع لتطور الدراسة الجامعية منذ نشأتها حتى الآن يعلم أن الذين يقفون حياتهم على الدرس اللغوي للعربية قليلون، على خطورة هذا الدرس وأثره في الحياة الاسلامية والعربية ، ومن ثم ندرك مدى الخسارة التي مني بها قسم اللغة العربية بعد أن رحل عنه هذا العام الأستاذ الدكتور محمد أبو الفرج وكان قد رحل قبله منذ سنوات الأستاذ الدكتور محمود السعران ، وكانا — رحمهما الله — قد أمضيا شبابهما في الدراسة اللغوية ، وبدأت جهودهما تؤتي ثمارها في هذا الميدان . .

حصل الفقيد على الليسانس بمرتبة ممتاز سنة ١٩٤٨ ، وحين عين معيداً بالقسم اختار العلوم اللغوية لتكون مجال تخصصه ، وكانت المناهج الأوربية في هذه العلوم قد بدأت تفد على يد بعض الأساتذة الذين درسوها في الخارج ، وقد توافرت

لأبي الفرج — رحمة الله عليه — فرصة مرافقة الأستاذ فيرث رئيس قسم اللغويات بجامعة لندن حين كان يزور — لفترة — جامعة الاسكندرية . وانطلق النقيد يدرس العربية على ضوء هذه المناهج ، فقدم لجامعة الاسكندرية رسالته للماجستير عن « الاستفهام في اللغة العربية على ضوء الدراسات اللغوية الحديثة » ، حيث حصل على درجتها سنة ١٩٥٣ . ثم أوفد في أجازة دراسية إلى انجلترا ، ودرس في جامعة لندن على الأستاذين فيرث وميتشل أصول العلوم اللغوية في تطورها الأخير ، وحصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٠ في موضوع « لهجة طهواى » ، القرية التي ولد فيها .

وعاد ليشارك في تدريس العلوم اللغوية بقسم اللغة العربية ، ثم أعير إلى جامعة بيروت العربية حيث أمضى أربع سنوات نشر فيها كتابيه « المعاجم اللغوية » ، و« مقدمة لدراسة فقه اللغة » .

والكتابان — بلا ريب — مساهمة جادة في بناء الدرس اللغوي للعربية ، فالكتاب الأول يقدم تناولا جديداً للمعاجم اللغوية « في ضوء دراسات علم اللغة الحديث » عرض فيه لماهية المعجم وللمعاجم العربية ، ولغتها ، وترتيب موادها ، وشرح معانيها ، الصوتية والنحوية والصرفية ... الخ .

أما الكتاب الثاني فهو محاولة قيمة لعلها تحسم كثيراً من الخلط الذي يتناول به غير واحد مادة « فقه اللغة » حين يكتبون فيها أو حين يلقونها في قاعات الدرس . وحسب هذا الكتاب — أن الباب الخامس فيه يوضح الحدود — العلمية لدراسة فقه اللغة كما يفهمها المعاصرون .

والكتابان من نشر دار النهضة العربية ببيروت سنة ١٩٦٦ .

وقدم النقيد أيضاً بحثاً موجزاً عن « اللغة والمجتمع » كان قد ألقاه ضمن سلسلة محاضرات الجامعة العامة سنة ١٩٦٦ .

وتوفى رحمه الله أستاذاً مساعداً ، وعاد ليدفن حيث ولد في قريته .. طهواى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الرودكى

للدكتور طه ندا

اختلف المؤرخون كثيراً فى اسم الرودكى ونسبه . ومن بين اختلافاتهم نرجح أنه أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودكى (١) .

وقد بلغ الرودكى من علو الشأن مبلغاً عظيماً حتى كان يلقب ألقاباً مختلفة كالأستاذ ، وسلطان الشعراء ، والحكيم إلى غير ذلك من الألقاب التى تدل على مكانته لدى أهل الأدب وكتاب التذاكر .

وينكر سعيد نفيسى أن يكون الرودكى قد لقب بمثل هذه الألقاب العربية لأنها فى رأيه لم تكن شائعة فى عهد السامانيين ، فقد كانوا كما يقول متعصبين للناحية الإيرانية ولم يلقب واحد من أمراء البلاط السامانى أو الصدور والوزراء بهذا المعنى (٢) . ولا أدرى كيف بنى نفيسى استنتاجه هذا ؟ وكيف فاته أن الألقاب العربية كانت مستعملة فى عهد الدولة السامانية وكان يلقب بها الأمراء أنفسهم ، فالأمير أحمد والد نصر حين قتل لقب بالشهيد ، ونصر ولده يلقب بالسعيد ، ونوح بن نصر كان يلقب الحميد ، ومنصور بن نوح لقبوه السديد . وهكذا ترى أن الألقاب العربية كانت مستعملة فى هذا العصر ، وبلغ من انتشارها ورواجها أن الأمراء أنفسهم كانوا يلقبون بها . هذا فضلا عن أن السامانيين لم يكونوا متعصبين

---

(١) المصادر التى أيدت هذا أكثر عدداً ، وأوثق مادة ، وأقدم عهداً

(٢) أحوال وأشعار رودكى ، ص ٤٦٢ ط تهران

للناحية الإيرانية إلى الحد الذى يصوره نفيسى ، فانهم وان كانوا قد اهتموا بها ودعوا اليها لم يقضوا على الناحية العربية ولم يضطهدوها . وآية هذا أن كثيراً من الشعراء قالوا الشعر فى هذا العهد باللسانين : وان بعض شعراء الأمير نفسه كالمرادى كان يقول الشعر فى مدحه بالعربية وينال عليه جائزة الأمير (١) .

ويمكن أن نعتبر اشتهار الرودكى بنسبته هذه سبباً قوياً لإهمال اسمه الأصلى مما أدى بعد ذلك إلى الاختلاف فيه .

وكما اختلفوا فى اسمه وكنيته اختلفوا كذلك فى نسبته . وفيما يلى أمثلة من اختلافهم فى هذه النسبة :

١ — فدولتشاه صاحب تذكرة الشعراء يذكر أنه سمى الرودكى لأنه كان يجيد العزف على الرود أو البربط وهو آلة من آلات الموسيقى كان له فيها مهارة عظيمة (٢) .

٢ — يذكر عوفى فى لباب الألباب أن الرودكى نسبة إلى بلدة رودك من نواحى سمرقند (٤) . وهناك من يذكر أن رودك من أعمال بخارى (٣) . وهناك من ذكر أنها من نواحى نسف (٥) . ويذكر السمعانى أن الرودكى نسبة إلى «رودك» من نواحى سمرقند وبها قرية يقال لها «بنج» وهذه القرية قطب رودك . وهى على فرسخين من سمرقند . والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السائر ديوانه فى بلاد العجم أبو عبد الله جعفر الرودكى (٦)

---

(١) يتيمة الدهر — ترجمة المرادى : ص ٧١ / ٤ ط الصاوى ١٩٣٤
(٢) تذكرة الشعراء ص ١٨ ط بمباى
(٣) لباب الألباب ج ٢
(٤) تذكرة الشعراء : ص ١٨ ط بمباى
(٥) مجمع الفصحاء : ص ٢٣٦ / ١
(٦) الأنساب : ٢٦٢ ط مارجليوث

ومهما يكن خلافهم فى موقع رودك هذه فان المسلم به أنها قرية وأن الشاعر منسوب اليها .

ومناقشة الرأى الأول القائل إن الرودكى نسبة إلى رود (١) كما ورد فى دولتشاه ومجمع الفصحا نرى أنه جائز أن تكون الكاف الزائدة هنا هى الكاف التى يضيفونها للتصغير ثم ألحقت بالكلمة بعد ذلك ياء النسبة العربية . ولكن فى هذا الرأى تكلف ظاهر . ولذا كان من الأصح أن نؤيد نسبته إلى رودك التى هى البلدة . ونسبة الناس إلى أوطانهم أمر شائع فى كل زمان .

بقى بعد ذلك أن أفسر سبب الاختلافات فى موضع رودك . وهذه الاختلافات تنحصر فى اعتبار رودك ناحية من نواحى واحدة من هذه المدن الثلاث : سمرقند وبخارى ونسف . فالى أى واحدة من هذه المدن يمكن أن نضيفها ؟ إذا ألقينا نظرة على الخريطة وجدنا أن بخارى وسمرقند تتحاذيان تقريباً تحت خط عرض ٤٠ . وأما نسف فتقع جنوبهما تحت خط عرض ٣٩ متوسطة فى المسافة بينهما . أى أن المدن الثلاث تكون مثلثاً مقلوباً متساوى الأضلاع تقريباً رأسه فى نسف وزاويته اليمنى فى سمرقند واليسرى فى بخارى(٢). وإذا عرفنا هذا الموقع الجغرافى للمدن الثلاث سهل علينا تفسير هذا الاختلاف فلا شك فى أن رودك كانت فى موقع متوسط بين هذه المدن داخل المثلث ولهذا اعتبرها بعضهم من أعمال بخارى ، واعتبرها البعض الآخر من نواحى سمرقند ، واعتبرها فريق ثالث من بلاد نسف . ولدقة التحديد نرجع إلى نص السمعانى السابق فنراه قد حدد المسافة بين رودك وسمرقند بفرسخين وما دامت المسافة بين رودك وسمرقند فرسخين فهى قطعاً أقرب إلى سمرقند ومن هنا يجب أن نعتبرها من أعمال سمرقند .

وقد نسب الرودكى إلى قرية رودك لأنه ولد ومات هناك (٣) .

---

(١) الرود هو الطنبور والعود وكذلك البربط .

(٢) راجع مثلا الخريطة رقم ٩ فى كتاب Le Strange من بلدان الخلافة الشرقية .

(٣) السمعانى : ص ٩٢ و ٢٦٢ .

ولا يغير من هذا بطبيعة الحال قول السمعانى انه ولد فى بنج فالظاهر من كلامه أن بنج هذه جزء أو حى أو ناحية من نواحى رودك .

ولا نعلم على وجه التحقيق فى أى سنة كان مولد الرودكى . ولكن السمعانى يذكر أنه مات سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م (١) . ونعلم أيضاً أن عدداً من معاصريه الشعراء المعروفين كشهيد البلخى ومرادى قد سبقوه فى الرحلة إلى العالم الآخر حتى أنه رثاهم . وعندنا إلى جانب هذا كله مجموعة من أشعاره يصف لنا فيها ما أصابه فى شيخوخته من تساقط الأسنان التى كانت فى لمعانها وبياضها كالمصابيح المنيرة وما أصابه من الضعف حتى لم يعد يقوى على الذهاب إلى الممدوح لمدحه بنفسه فيرسل اليه المديح من بعيد (٢) إلى غير ذلك من المعانى التى تعبر عن الشيخوخة . ومثل هذه الشيخوخة لا تكون غالباً الا فيما يقارب الثمانين . وعلى هذا إذا نقصنا ثمانين عاماً من تاريخ وفاته وهو ٣٢٩ هـ لوجدنا انه ولد حوالى سنة ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م أى فى منتصف القرن الثالث الهجرى .

ويهمنا بعد ذلك أن نعرف كيف قضى الشاعر الفترة الأولى من حياته التى امتدت حتى نهاية القرن الثالث ، وهى الفترة التى سبقت اتصاله بالأمير نصر بن أحمد السامانى .

نشأة الشاعر :

نشأ الرودكى فى رودك وبها حفظ القرآن حتى أتمه فى سن الثامنة فيما يقال . وكان على جانب كبير من الذكاء ، وحدة الذهن ، وحسن الصوت مما وجهه إلى تعلم الموسيقى والغناء حتى برع فيهما إلى جانب براعته فى الشعر .

---

(١) السمعانى : ٢٦٢

(٢) راجع ص من هذا البحث

وكان الرودكى كفيفاً فى طفولته . ويرى بعض أصحاب التراجم أنه ولد هكذا . وعوفى يذكر أنه ولد أعمى ولكنه كان ذكياً فهيا بحيث أنه أتم حفظ القرآن فى الثامنة . ويذكر عنه أيضاً أنه لم يكن ذا بصر وان كان ذا بصيرة . ويتحدث عنه كذلك فيقول إن عينه الظاهره كانت مقفلة ولكن عينه الباطنة كانت مفتوحه (١) .

وفى كلام مجمع الفصحا ما يبدو أنه كان كفيفاً فى طفولته . ولم ينص المؤلف على أنه ولد بهذه العاهة . وفى هذا احتمال اصابته بالعمى بعد ولادته أى أثناء فترة الطفولة . ويقول فى هذا الشأن صاحب مجمع الفصحا « على أى حال فقد كان مكفوفاً فى أيام طفولته » (٢) .

وسعيد نفيسى ينكر الرأى الأول ويميل إلى الثانى . ويذكر نفيسى أن هناك من أشعار الرودكى ما يدل على أنه لم يولد أعمى (٣) . ومن هذه الأدلة التى يستخرجها نفيسى من أشعار الرودكى تلك التشبيهات التى ترى فى شعره . فهو يشبه مثلا وجه الشمس الذى يبرز بين حين وحين من خلال السحب بالحبيب المحاصر الذى يتحين الفرصة ليفلت من الرقيب(٤) . ويشبه شقائق النعمان فى حمرتها وهى تضحك فى المزرعة من بعيد بكف العروس التى خضبت بالحناء (٥) . ويشبه فم المحبوبة بشفتيه الجميلتين الحمراوين بحبه رمان صغيرة انشطرت شطرين (٦) . وينكر سعيد نفيسى على أعمى أن يعرف هذا التشبيه الأخير . وفى موضع آخر يتحدث الرودكى فيذكر أنه رأى الشمس فى الفجر عندما طلعت ، وأنها كانت تسرع من خراسان نحو الشرق (٧) .

---

(١) لباب الألباب : ص ٢/٦ ط ليدن

(٢) مجمع الفصحا : ١/٢٢٦

(٣) أحوال وأشعار رودكى : ٢/٥٥٠

(٤) خورشيد را ز ابر دمد روى گاه گاه ‌‌‌ ‌ چونان حصارئ كه گذر دارد از رقيب

(٥) لاله ميان كشت بخندد همى زدور ‌ ‌ چون پنجه عروس بحنا شده خضيب

(٦) وآن دهن تنك تو گوئى كسى ‌ ‌ دانككى نار بدو نيم كرد

(٧) مهر ديدم بامدادان چون بتافت ‌ ‌ از خراسان سوى خاور مى شتافت

وينتهي نفيسي من هذه الأدلة ومثلها إلى أن الرودكي لم يولد أعمى ، وإنما عمي في أواخر أيامه .

وممن اعتمد عليهم نفيسي في الوصول إلى هذا الرأي المنيني في شرحه على تاريخ العتبي الذي يقول ان الرودكي سمل في أواخر عمره (١) . وممن أيد هذا الرأي أيضاً بديع الزمان بشرويه خراساني (٢) .

ونناقش فيما يلي الآراء لنخلص إلى الرأي الذي نرجحه من بينها :

أما الرأي الأول والثاني القائلان انه ولد أعمى أو أصيب بهذه العاهة في طفولته فبعيد الاحتمال للأسباب الآتية :

ان المصادر الموثوق بها لم تجمع على هذا فلم يشر السمعاني في الأنساب ولا النظامي في چهار مقاله — وهو من أقدم المصنفات — إلى شيء من هذا .

كذلك كان الرودكي نديماً للأمير نصر . وأول ما يشترط في الندماء سلامة الأعضاء وصحة الحواس . ولا يعقل أن يتخذ الأمير نديماً فيه مثل هذا النقص ثم يكون له مع ذلك الشأن العظيم الذي كان للرودكي في البلاط . ويؤيدنا في هذا ما قاله صاحب مجمع الفصحا «وكان — أي الرودكي — معروفاً بحسن الصوت وعلم الموسيقى وبالصفات الحسنة التي كانت تؤهله لمنادمة السلاطين» (٣) .

وفي أشعار الرودكي — وسيرد نماذج منها فيما بعد — الدليل على أنه كان جميل الخلقة حتى ان النساء كن يملن اليه ، وكن يزرنه سراً متخفيات في ظلام الليل .

---

(١) شرح المنيني على تاريخ العتبي : ص ٥٢/١ ط مصر المعروف بالفتح الوهبي على تاريخ العتبي

(٢) سخن وسخنوران : ص ١/٢

(٣) مجمع الفصحا : ١/٢٣٦

ولم نجد فى أشعار الرودكى ما يشير إلى هذه العاهة . ومع أنه قد شكا السعادة المولية ، وانصراف الأمراء عنه ، وفقدان العافية ، وزوال النعمة إلا أننا لم نره يشكو من فقد البصر . وهذا يدل على أنه فقد بصره فى أواخر أيامه حين كف عن الانشاد وقارب الوفاة .

ويؤيد هذا أن الكلام عن عمى الرودكى لم يرد إلا عند الشعراء الذين عاصروا الرودكى فى أخريات أيامه أو جاءوا بعده كالدقيقى الذى يشير إلى ذلك فى قوله : «كان يجب أن يظل شهيد حياً ، وكذلك هذا الشاعر المظلم العين المضيء البصيرة حتى ينشدا فى مليكى المديح من أشعارهما العذبة ومعانيهما المتلألئة» (١) ، وكأبى زراعة المعمرى الجرجانى وكان من بين شعراء السامانيين أيضاً الذى يشير إلى عاهة الرودكى فى هذه الأبيات :

«إذا لم أنل ما بلغه الرودكى من الثراء فلا تعجب فانى لا أقل عنه فى قول الشعر وإذا كان قد رأى الدنيا وهو أعمى فلا أريد أن أكون أعمى من أجل الدنيا» (٢) .

شباب الرودكى :

كان الرودكى فى شبابه ـ كما يحدث هو عن نفسه ـ جميل الشكل ، حسن الخلقة . وفى هذا يقول موجهاً الكلام إلى محبوبته التى أسرفت فى الدلال :

كيف تعرف ياذا الوجه القمرى والشعر المسكى
ما كان عليه حالى فيما مضى من بهاء ورواء (٣) .

---

(١) استاد شهيد زنده بايستى — وآن شاعر تيره چشم روشن بين
تاشاه مرا مديح گفتندى — زا اشعار نغوش ومعانى رنگين

(٢) اگر بدولت با رودكى نهمبانم — عجب مكن سخن از رودكى نه كم دانم
اگر بكورى چشم او بيافت گيتى را — زبهر گيتى من كور بود نتوانم

(٣) همى چه دانى ماهروى مشكين موى — كه حال بنده ازين پيش برچه سامان بود

ويستفاد من أشعاره أنه كان حالك الشعر ، وكانت تتدلى منه خصل وطرر (١) وكان مشرق الوجه ناعم البشرة جميلا (٢) . وكانت أسنانه على درجة كبيرة من الصفاء كأنها المصباح المضيء أو الفضة والدر والمرجان(٣) ويظهر أنه كان – إلى جانب هذا – جميل العينين حتى أن عيون الحسناوات كانت تتحير فى حسنها بينما كانت عيونه هو تتحير فى جمال أولئك الحسناوات(٤). وعلى العموم كان يجمع إلى حسن الصورة حسن الصوت (٥). وطبيعى أن يجذب اليه هذا الحسن النساء اللاتى كن يملن اليه ويزرنه ليلا فى الخفاء وكن فى نظره شيئاً رخيصاً لسهولة الحصول عليهن (٦) . وكانت المودة بينه وبينهن متصلة وكانت أشعاره العذبة هى الرسائل المتبادلة بين الطرفين (٧) وكان فى ذلك الزمان السعيد ينفق وقته بين الخمائل مغنياً منشداً كأنه البلبل (٨) يلهو ويلعب حراً طليقاً من كل قيد فلم تشغله فى شبابه زوجة وبنون ولم يثقل كاهله ما يلزم الزوجة والبنين من كثرة النفقة (٩) . وكانت الحياة كلها فى نظره هى الغناء والخمر والنساء .

شيخوخة الرودكى :

ولكن الأيام لا تدوم على حال واحدة . والشاب الذى يتمتع بشبابه اليوم يتحول غداً شيخاً باكياً على ما مر من شبابه . وهكذا تحول الرودكى من شبابه الذى تحدثنا عنه إلى شيخوخته التى نرى صورتها فى الأسطر القادمة

---

(١) بزلف چوگان نازش همی كنی تو بدو ... ندیدی آنكه اورا كه زلف چوگان بود

(٢) شد آن زمانه كه رویش بسان دیبا بود ... شد آن زمانه كه مویش بسان قطران بود

(٣) مرا بسود وفرو ریخت هرچه دندان بود ... نبود دندان لابل چراغ تابان بود

(٤) بسا نگار كه حیران بدی بدو در چشم ... بروی او در چشم همیشه حیران بود

(٥) بحسن صوت چو بلبل مقید نظم ... بجرم حسن چو یوسف اسیر زندانی

(٦) نبیذ روشن ودیدار خوب وروی لطیف ... اگر گران بد زی من همیشه ارزان بود

(٧) دلم خزانه پر گنج بود وگنج سخن ... نشان نامه ما مهر وشعر عنوان بود

(٨) بد آن زمانه ندیدی كه در چمن رفتی ... سرود گویان گوئی هزار دستان بود

(٩) عیال نه زن وفرزند نه مئونت نه ... ازین سخن همه آسوده بود وآسان بود

فالشعر الفاحم قد ابيض حين تقدمت به السن . أما الأسنان فقد تساقطت واحدة بعد أخرى ولم يبق منها شيء (١) وذلك الحسن والجمال الذى تحلى به فى شبابه كان ضيفاً عزيزاً لم تطل اقامته فذهب ولم يرجع (٢) . وتلك السعادة التى كان يتقلب فى أعطافها انقضت وخلفت مكانها الهم والغم (٣) . ثم ان المرأة والأولاد وكثرة النفقة قد أثقلت كاهله . وانصرف من حوله من كان يعجب بشعره من الأمراء والعظماء . وقد أثر تقدم السن فى نشاطه وحركته فهو يمدح الأمير أبا جعفر بشعره ولكنه لا يستطيع أن يشخص اليه لضعفه وعجزه (٤) . وزال عنه ما كان قد جمعه من مال وثروة ، وواجه الفقر فى هذه السن المتقدمة وذلك الضعف . وفى بيتين مؤثرين يذكر الشاعر مجال لهوه وأيام سعده ويتعجب مما حل به فيقول :

كم سعدت وتمتعت فى هذا البيت
وكان جاهى أعرض من جاه الأمراء والملوك

والآن هأنذا نفس ذلك الرجل والبيت هو نفسه وكذا المدينة
ألا تحدثنى كيف تحولت أفراحى أتراحاً (٥)

كيف اتصل بالبلاط :

والآن بعد أن ذكرنا ما كان عليه الرودكى أيام الشباب ، وفرغنا من ذكر مجمل لما كانت عليه حياته الخاصة من لهو ومرح نحاول أن نعرف بعد ذلك شيئاً عما كانت عليه حياته العامة أو العملية وكيف بدأ اتصاله

---

(١) يكى نماند كنون زآن همه بسود وبريخت

(٢) چنانكه خوبى مهمان ودوست بود عزيز — بشد كه باز نيامد عزيز مهمان بود

(٣) شد آن زمانه كه أو شاد بود وخرم بود — نشاط أو بفزون بود وبيم نقصان بود

(٤) پير فرتوت گشته سخت بودم

(٥) بسا كه مست دريق خانه بودم وشادان — چنانكه جاه من افزون بد از أمير وملوك
كنون همانم وخانه همان وشهر همان — مرا نگوئى كز چه شده است شادى سوك

فى ذلك الوقت ببلاط السامانيين حتى بلغ أخيراً ما بلغه من المكانة فى بلاط نصر بن أحمد .

لم تقدم لنا المصادر مادة كافية عن حياة الرودكى العامة قبل اتصاله ببلاط السامانيين . ولا يعدو – على أى حال – أن يكون قد اتخذ من انشاد الشعر ومزاولة فن الموسيقى صناعة له . ويرجح أن يكون الشعر الذى قاله فى هذه الفترة قليل الأهمية فلم يهتم به المؤرخون كما لم يعرف عنه على وجه التحقيق أنه اتصل بأمير البلاد أو عظيم من عظمائها فى هذه الفترة حتى يكون لشعره شأن .

وقد ولدت الدولة السامانية فى حوالى الوقت الذى ولد فيه الرودكى وعلى هذا يكون الرودكى قد عاصرها من مولدها حتى وفاته . وكانت عاصمة الدولة السامانية فى أول الأمر مدينة سمرقند حتى جاء اسماعيل بن أحمد فنقلها إلى بخارى . ويظهر أن الرودكى فى سعيه وراء المال والشهرة هاجر أولا من قريته رودك إلى سمرقند . فلما صارت العاصمة بخارى انتقل هو أيضاً إليها . ولا نعلم على وجه التحقيق أنه اتصل بالبلاط السامانى اتصالا وثيقاً فيا قبل عهد نصر . ويبدو لى أن الذى مهد له السبيل فى البلاط السامانى هو أبو الفضل البلعمى ، فقد كان أبو الفضل من الشخصيات المعروفة فى البلاط السامانى من أيام اسماعيل . واستمرت مكانته تعلو فى البلاط حتى ولى الوزارة فى عهد نصر . وكان من المعجبين بالرودكى . وفى نص أورده السمعانى أنه كان يقول عنه «ليس للرودكى فى العرب والعجم نظير» (١) وهذا النص يدعونا إلى الاعتقاد بأن أبا الفضل البلعمى كان داعية للرودكى فى البلاط من عهد اسماعيل فاستطاع أن يشق له الطريق حتى ثبتت أقدام الرودكى ، وتوطد مركزه فى البلاط أيام نصر . وهذا هو التدرج الطبيعى والخط الذى سار فيه الرودكى .

(١) السمعانى : ٢٦٢ ط مرجليوث ١٩١٢

ولا شك فى أن الرودكى يعترف بفضل البلعمى عليه حين يفضله على جميع الملوك ، ويشبه فضله بفضل الجوهر والياقوت على النقود الزائفة وذلك حين يقول :

مثل فضل الأمير أبى الفضل على جميع الملوك
مثل فضل الجوهر والياقوت على النقود الزائفة (١)

ولعل تعلق الرودكى بالبلعمى إلى هذا الحد كان سبباً فيما ناله من الامتهان فى أخريات أيامه بعد أن عزل البلعمى من الوزارة عام ٣٢٦ هـ/ ٩٣٨ م

ولم ينل أحد من معاصرى الرودكى من حظهاء وأدباء المكانة السامية التى نالها هو فى البلاط السامانى . ولعل هذا راجع إلى أنه انفرد دونهم بالنبوغ فى عدة ميادين منها الغناء والموسيقى وسعة الثقافة .

شعر الرودكى :

لم يكن الرودكى أول من قال الشعر الفارسى بعد الاسلام فقد سبقه إلى هذا شعراء آخرون ، ولكن الرودكى نال دونهم هذا الاهتمام والشهرة لأنه أول شاعر كبير وصلنا الكثير من أشعاره . فحنظلة البادغيسى المتوفى فى حوالى ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وأبو سليك الذى كان من معاصرى عمرو ابن الليث من ٢٦٥ — ٢٧٨ هـ / ٨٧٨ — ٨٩١م ، وشهيد البلخى الذى توفى قبل الرودكى ، وأبو العباس الربنجنى الذى عاصر نصر بن أحمد سنة ٣٣١ — ٣٤٣ هـ / ٩٤٢ — ٩٥٤ م وغيرهم لم يصلنا من أشعارهم سوى النذر اليسير الذى لا يكفى للدراسة . ومن هنا جاءت أهمية الرودكى فى تاريخ نشأة الشعر الفارسى الاسلامى . وإلى هذا يشير دولتشاه فيقول : «ولم نسمع قبله شاعراً صاحب ديوان . ومن ثم وجب أن نبدأ بالرودكى»(٢).

---

(١) چو فضل مير أبو الفضل بر همه سلكان   چو فضل گوهر وياقوت بر بنهره يشيز

(٢) دولتشاه : تذكرة الشعراء ص ١٨

وحين رأى الرواة ومؤرخو الأدب أن الرودكي هو الشاعر الوحيد من هذا العصر الذى بقيت له هذه المجموعة الطيبة من الأشعار قادهم الاستنتاج إلى أن الرودكي لابد أن يكون قد قال من الأشعار شيئاً كثيراً جداً بالغوا فى عدده . وهم معذورون فى هذا لأنهم رأوا أن شهيدا البلخي — وكان شاعراً عظيما ومعاصراً للرودكي — لم يبق من أشعاره سوى أبيات قليلة ، وأن أبا العباس الربنجني وكان من شعراء هذا العصر المعروفين — لم يبق من أشعاره سوى أبيات معدودة تفرقت فى بعض كتب اللغة مثل «لغت فرس» لأسدى طوسى .

والمحقق على أى حال أن الرودكي قال شعراً كثيراً لم يرد إلينا منه سوى جزء ضئيل . ويكفينا فى هذا المقام أن نورد عبارة أحمد رازى الذى قال «ومع أن شعره — أى الرودكي — قد تجاوز الحد والعد إلا أنه فى هذا الوقت — أى وقت أحمد رازى — قد صار نظراً لقلته أعز من الياقوت الأصفر والكبريت الأحمر» (١) فاذا كانت هذه هى قلة أشعار الرودكي فى عهد أحمد رازى(٢) فكيف بها فيما تلاه من العهود ؟

أما لماذا لم يصلنا من هذه الأشعار قدر أوفر رغم ما كان للرودكي من المكانة الأدبية فهذا يرجع فيما أرى إلى أن جمع هذه الأشعار وتدوينها جاء فى عصر متأخر مما أدى إلى ضياع بعضها ، وإلى اختلاط بعضها الآخر بأشعار قطران .

كان قطران هذا من شعراء العصر السلجوقى واسمه أبو منصور قطران التبريزى نسبة إلى تبريز التى ولد بها واشتهر وقد اتصل بكثير من حكام آذربيجان وعمال تبريز وأخصهم أبو منصور وهسودان بن مملان الذى ظل

---

(١) أحمد رازى : هفت اقليم ورقة ٥٣٨ (مخطوط)

(٢) كان أحمد رازى من أهالى الرى . وبرز كثير من أفراد أسرته فى ميدان الأدب كما تولى بعضهم مناصب رفيعة وكان أبوه خواجه ميرزا أحمد من المقربين إلى الشاه طهماسب الصفوى (٩٣٠ — ٩٨٤هـ/١٥٢٤ — ١٥٧٦م) .

حاكماً على تبريز إلى حدود سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م وابنه مملان المعروف بأبي نصر . وفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م عين أبو نصر مملان حاكماً على آذربيجان من قبل طغرل بك ، وقد صحبه قطران ونال منه الصلات والعطايا التي أطلقت لسانه بالمديح في قصائد كثيرة . وكان التشابه في الاسم بين ممدوح الروذكي نصر بن أحمد ، وبين ممدوح قطران أبي نصر سبباً في اختلاط الأشعار .

ويذكر «دينسن روس» D. Ross في مقالته التي كتبها بالمجلة الآسيوية عن ديوان الروذكي المنسوب اليه (١) أن النسخ المعروفة منه ثلاث اثنتان في المتحف البريطاني (٢) والثالثة عنده . ويذكر أن شكه في صحة نسبة هذه الأشعار تولد عندما وجد أن القصيدة الأولى في هذه المجموعة هي نفسها القصيدة التي كان «شفر» قد نشرها في الجزء الثاني من المنتخبات الفارسية Chrestomathie Persane ونسبها هناك إلى قطران . كما أنه — أي روس — وجد فيما بعد في نسخته الخاصة من ديوان الروذكي المرثية التي كان قطران قد قالها بمناسبة الزلزال الكبير الذي حدث في تبريز سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م . وقد نشرها أيضاً «شفر» وهذه الأدلة تكفي وحدها كما يرى روس لتقرير أن ما جاء في هذه المجموعة من أشعار الروذكي نسب اليه خطأ .

ولروس رأي آخر في هذا الخلط بين أشعار الروذكي وقطران فهو يرى أن هذا الخلط قد حدث قصداً لا عفواً ، ذلك أن رجلا من أهل الأدب الفرس قد عز عليه أن يجد ما بقي من أشعار الروذكي قليلا فانتقى أحسن ما في ديوان قطران من القصائد التي تحوي اسم أبي نصر وضمها إلى القصائد القليلة الباقية للروذكي التي لم يرد فيها اسم ممدوح الروذكي نصر بن أحمد . وهكذا جمع هذا الرجل للروذكي ديواناً (٣) .

---

(١) عدد المجلة الآسيوية الصادر في أكتوبر ١٩٢٤ وموضوع المقالة «الروذكي والديوان المنسوب اليه» .

(٢) Or 7894 — Or 3346

(٣) المجلة الاسيوية : أكتوبر ١٩٢٤ مقالة روس ص ٦١٦ J. R. A. S.

وإذا جارينا روس في استنتاجه فالمعقول أن يحدث هذا الخلط عفواً لا قصداً . والأرجح أن ذلك الذي نسب أشعار قطران إلى الرودكي كان مدفوعاً بدافع من الاجتهاد حين رأى أن هذه القصائد قد ورد فيها اسم أبي نصر ولم يرد فيها اسم ممدوح غيره ، فظن مجتهداً أنه نصر ممدوح الرودكي . ومن هنا يكون الخلط عفواً . ولست أتبين من كلام روس وجه المصلحة في أن ينسب هذا الرجل قصائد قطران إلى الرودكي وهو عالم حقاً بما يفعل .

وهذا الرأي الذي رأيته من أن هذا الخلط قد جاء عفواً يؤدي بي إلى الاعتقاد بأن أشعار قطران هذه التي نسبت إلى الرودكي لم يكن أمر نسبتها إلى قطران مؤكداً ، ولم يعرف أهل الأدب صاحب هذه الأشعار معرفة مؤكدة وهذا هو السبب الذي حمل بعض أهل الاجتهاد على نسبتها إلى الرودكي .

المدح عند الرودكي :

وما دام الرودكي شاعر بلاط فلابد أن يكون المديح هو الفن الأول واللون الأغلب في شعره .

وشخصية الأمير هي أولى الشخصيات التي يوجه إليها الشاعر مدحه . ولكننا بالأسف لم نعثر له إلا على أبيات معدودة يمكن أن نطمئن إلى أنه قد مدح الأمير بها حقاً . وليس هناك أي دليل يدلنا على أن الأبيات الأخرى التي وردت في المدح إنما عني الشاعر بها الأمير نصر بن أحمد لا من سياق الحوادث ولا من نفس النص . والغريب أن الشاعر قد بقيت له قصيدة طويلة في مدح أبي جعفر – الذي كان حاكم سيستان من قبل الأمير – وسيرد الكلام عنه . ويمكن أن تكون العوامل السياسية سبباً في قلة ما بقي من أشعار الرودكي في مدح الأمير نصر ، فقد كان نصر بن أحمد علماً على نهضة دولة سياسياً وأدبياً . ومن المحتمل أن يكون سقوط دولته بعد ذلك وانتصار أعدائه سبباً في اختفاء ما كان له من مناقب وما قيل فيه من مدائح ، كما أن نصراً الآخر – أعني نصر بن مملان ممدوح قطران – كان سبباً هو الآخر

لتشابه الاسم فيما وقع فيه الرواة والمؤرخون من الخلط الذى أدى إلى الامتزاج بين مدائح الممدوحين .

ومن الشخصيات البارزة التى مدحها الرودكى شخصية الأمير أبى جعفر حاكم سجستان . ولقد بقيت للرودكى قصيدة طويلة فى مدحه تعد من أطول وأروع ما وصلنا من قصائد الرودكى مما يدل على مكانة الرجل وعظيم أهميته فى الدولة وقتذاك . ويقول حمدالله المستوفى عنه ما مؤداه أن الأمير نصراً رأى يوماً فى مرآة شاباً جميلا عليه أمارات العظمة فسأله عن اسمه وعن أصله وأمنه على نفسه فقال إن اسمه أحمد وأصله من بنى ليث فرق قلب الأمير نصر لحاله ، وطيب خاطره ، ومنحه الأموال ، وزوجه احدى قريباته وولاه امارة سجستان وبقيت امارة سجستان حتى النهاية فى عقبه (١) .

وقد كتب عنه « تاريخ سيستان » بعض التفصيلات يمكن أن نخرج من مجملها بأنه ينتمى إلى بنى ليث ، وأنه ولد يوم الاثنين لأربعة بقيت من شعبان سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م . وكان له عقل الشيوخ وكانت تبدو عليه أمارات العظمة ، وقد حصل كثيراً من العلم . فلما ثار أهالى سجستان على واليهم عزيز بن عبد الله حل محله فى الولاية وكان ذلك سنة ٣١١ هـ . وازدادت على مر الأيام محبة الناس له ، وقيل انه كان على درجة من الشجاعة لا تدانى حتى استطاع التغلب على أعدائه الكثيرين أمثال عزيز بن عبد الله .

وكان يوزع وقته بين الجد واللهو ؛ فجعل وقتاً للصلاة والتلاوة ، ووقتا للهو والشراب ، ووقتا لتصريف أمور الملك ، ووقتا للراحة والاستجمام .

وكان من أعداء الدولة الخطرين الذين استطاع أبو جعفر أن يتغلب

---

(١) تاريخ گزيده ، ٣٨٢ ط . براون ١٩١٠

عليهم ما كان بن كالى . وقد احتال عليه أبو جعفر حتى استطاع رجاله أن يقبضوا عليه ويحضروه اليه فى سجستان ويحملوا خزائنه وأمواله .

ولما وصل إلى الأمير نصر خبر ظفر أبى جعفر بما كان أعجب بهمته وشجاعته . وأرسل اليه هدايا عظيمة .

وكان الرودكى قد قال شعراً فى هذه المناسبة وأرسله اليه لعجزه عن الذهاب بنفسه ولتقدم سنه فى ذلك الوقت .

وقد قتل أبو جعفر بيد جماعة من خدمه اتفقوا على ذلك وكان مقتله ليلة الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة للهجرة (١)

والمديح من أقدم فنون الشعر الفارسى الاسلامى . ذلك لأن هذا الشعر نشأ فى كنف القصر والبلاط فكان طبيعياً أن يتجه الشاعر أول ما يتجه إلى مدح الملك الذى يرعاه ويرعى غيره من الشعراء ويفسح لهم فى بلاطه وقصره . وقد برز الرودكى فى هذا الميدان — ميدان المديح — وشهد له غيره من الشعراء بالاجادة والتفوق . وكان الرودكى يعرف لنفسه هذا التفوق حتى انه كان يقرن نفسه بجرير والطائى وحسان وسحبان .

وفيما يأتى نماذج من شعره فى مدح الأمير نصر :

يقول الرودكى (٢) :

أنت فى السخاء حاتم الطائى
وأنت فى المعركة رستم دستان (٣)

لا . ليس حاتم جواداً إذا قيس بك
لا . وليس رستم رجلا إذا تحارب معك (٤)

---

(١) تاريخ سيستان : ٣١٠ — ٣٢٦ نشر بهار
(٢) أحوال وأشعار رودكى : ٣/٩٨٨
(٣) حاتم طائى توئى اندر سخا — رستم دستان توئى اندر نبرد
(٤) نى كه حاتم نيست باجود تو راد — نى كه رستم نيست درجنك تو مرد

ومن أبيات أخرى له يرجح أن تكون فى مدح الأمير قوله (١)

ليعش طويلا ذلك الملك العظيم
لكن روحى رهينة روحه (٢)

ليس بين الملوك شاب مثله
حر فصيح جسور عاقل (٣)

لايقدر أحد مدى شجاعته
ولايعلم الناس مبلغ كرمه (٤)

يده تنثر الذهب ولسانه يفيض بالدر
لم يدع اسمه فى الدنيا عبثاً (٥)

مهما يجتهد الشعراء فى المديح
فلن يقدموا الأشعار لمن مثيل له (٦)

من يرغب فى الدنيا الحزعة والشقاء
سوى حاسد للأمير على نعمته (٧)

ايها الملك لتدم لك من أحبابك المحبة
أيها الفلك لتضحك دائما من حال أعدائه (٨)

آخر شعرى ذلك الذى قاله أولا
ليعش طويلا ذلك الملك العظيم (٩)

---

(١) أحوال وأشعار رودكى : ٩٨٩/٣

(٢) دير زياد آن بزركوار خداوند — جان كراى بجانش اندر پيوند

(٣) از ملكان كس چنو نبود بجهان — راد وسخندان وشير مرد وخرد مند

(٤) كس نشناسد همى كه كوشش اوجون — خلق ندانند همى كه بخشش اوچند

(٥) دست وزبانه زر ودر پراكند اورا — نام بكيتى نه از كزاف پراكند

(٦) كرچه بكوشند شاعران زمانه — مدح كسى راكسى نكويد مانند

(٧) كيست بكيتى خير مايه ادبار — آنكه باقبال او نباشد خرسند

(٨) اى ملك از حال دوستانش همى ناز — اى فلك از حال دشمنانش همى خند

(٩) آخر شعرآن كنم كه أول كفتم — دير زياد آن بزركوار خداوند

أما قصيدته فى مدح أبى جعفر فطويلة تكتفى منها بالمجموعة الآتية من الأبيات. يقول الرودكى(١)

لم يخلق من نسل آدم له مثيل
وإذ صدقت فلن يكون له نظير (٢)

الخلق من تراب وماء ونار وريح
وهذا الملك من بريق جوهر ساسان (٣)

إذا كنت فصيحاً فاذكر مناقبه كلها
وإن كنت كاتباً فانقل مدائحه كلها (٤)

ذلك الذى إذا نظرت اليه نطقت بالحكمة
هذا هو سقراط اليونان وأفلاطونها (٥)

وإن كنت فقيها تميل الى الشرع
فهو الشافعي وابوحنيفة وسفيان (٦)

يزداد منه أهل الأدب عقلا وحكمة
ويزداد منه أهل العقل أدباً وايماناً(٧)

لو رآه وقت الحرب اسفنديار
لجرى واثباً مضطرباً أمام سنانه (٨)

ولو نازله فى المعركة اله الحرب
أرامن أنه سيتحول غذاء لسيفه (٩)

---

(١) أحوال وأشعار رودكى: ٣/١٠١١

(٢) آنك نبود از نژاد آدم چون او — نيز نباشد اكر نكوئى بهتان

(٣) خلق زخاك وز آب وآتش وبادند — وين ملك از آفتاب كوهر ساسان

(٤) كر تو فصيحى همه مناقب أو كوى — ور تو دبيرى همه مدايح أو خوان

(٥) آنك بدو بنكرى بحكمت كوئى — اينك سقراط وهم افلاطون يونان

(٦) ور تو فقيهى وسوى شرع كرائى — شافعى اينكت وبو حنيفه وسفيان

(٧) مرد أدب را خرد فزايد وحكمت — مرد خرد را ادب فزايد وايمان

(٨) ورش بديدى سفنديار كه رزم — پيش سنانش جهان دويدى ولرزان

(٩) ور بنبرد آيدش ستاره بهرام — توشه شمشير او شود بكروكان

وحين يجلس للشراب
يجود بما لا يجود سحاب الربيع بمثله (١)

إذا قيست عطاياه التي يمنحها بالكفين
بالطوفان لبدا أمر الطوفان تافهاً (٢)

لاجرم أن جعل جوده وسخاؤه
المدح غالياً والذهب رخيصاً (٣)

يقصده الشاعر فقيراً خالي اليد
فيرجع بالذهب الكثير والأحمال (٤)

وحين يعدل بين الخلق
لا ترى في الدنيا مثله نبيلا سامياً (٥)

يشمل عدله الضعيف والقوي على السواء
ولا ترى منه جوراً ولا عدواناً (٦)

لقد بسط نعمته على الدنيا كلها
فلا ترى رجلا عارياً من نعمته (٧)

كل بائس في الدنيا يجد عنده الراحة
وكل مريض في العالم يجد عنده العلاج (٨)

---

(١) باز به آنکه که می بدست بگیرد — ابر بهاری چنو نبارد باران
(٢) بذل کف او زبس عطا که ببخشد — خوار نماید حدیث و قصه طوفان
(٣) لاجرم از جود و از سخاوت اوست — رخ گرفته مدیح و صامت ارزان
(٤) شاعر زی او رود فقیر و تهی دست — با زر بسیار باز گردد و حملان
(٥) باز بهنگام داد و عدل بر خلق — نیست بگیتی چنو نبیل و سلطان
(٦) داد بیابد ضعیف همچو قوی زوی — جور نبینی بنزد او و نه عدوان
(٧) نعمت او گسترید ه بر همه گیتی — آنچه کس از نعمتش نبینی عریان
(٨) بسته گیتی ازو بیابد راحت — خسته گیتی ازو بیابد درمان

أى رودكي اطو مدح كل الخلق
وترنم بمدحه ونل عطاءه (١)

هذا هو مدحي الذى بلغته جهدى
لفظة عذب كله ومعناه أيضاً سهل (٢)

يعجزنى أن أنشد الأمير مايليق به
مع أنى فى الشعر جرير والطائى وحسان(٣)

طالما شكوت ماظهر من عجزى فى مدحه
ولو أنى فى الفصاحة قرين سحبان (٤)

لاتعجب إذا أصبح الرودكي فى مثل هذا المقام
مبهوتاً وبقى ساكناً حيران (٥)

لتـــدم دولة أميرى فى ارتفـــاع وازدياد
ولتدم دولة أعدائه فى انخفاض ونقصان (٦)

وإذا راجعنا أشعار الرودكي فى المديح وأخصها قصيدته التى أوردناها له فى مدح الأمير أبى جعفر نلاحظ :ــ

١ ــ البعد عن الإغراق فهو يصف ممدوحه بكثير من الصفات الحسنة التى هى فى حد ذاتها طبيعية ومعقولة . وقلما نرى فيها شيئاً من الاستحالة بالنسبة للبشر فهو يقول عن ممدوحه مثلا إنه كالشافعى فى الفقه وانه يشبه سقراط وأفلاطون فى الحكمة ، وإنه شجاع لايرى فارس مثله فى الشجاعة .

---

(١) رودكيا بر نورد مدح همه خلق مدحت او گوى و مهر دولت بستان
(٢) اينك مدحى چنانكه طاقت من بود لفظ همه خوب وهم بمعنى آسان
(٣) جز بسزاوار مير گفت ندانم ورچه جريرم بشعر وطائى وحسان
(٤) سخت شكوهم كه عجز من بنمايد ورچه حريفم ابا فصاحت سحبان
(٥) نيست شگفتى كه رودكى بچنين جاى خيره شود بى روان وماند حيران
(٦) دولت ميرم هميشه باد بر افزون دولت أعداى او هميشه بنقصان

٢ — البعد عن الإغراق ، والميل إلى البساطة كثيراً ما أدى بالشاعر إلى أشياء تافهة . من ذلك مثلا قوله :—

لو رأيته يوم الموقعة والخصام والحمية
لرأيته بين المغفر والدروع (١)

وهذا شيء طبيعي ، وهو معلوم . ومن اللغو مدح الممدوح به لأن المحارب —أيا كانت مكانته— لابد أن يرى في مثل هذه الأشياء يوم الموقعة . وكيف يحارب ما لم يكن مجهزاً بمثل هذه الأدوات .

٣ — من أبرز ما في مدائح الرودكي البساطة التي يراها خير وسيلة للتعبير عما في نفسه من اخلاص للممدوح يدفعه إلى ارسال الكلام على سجيته دون تكلف في المعاني أو الألفاظ ، فيصدر الكلام من قلبه ليقع في قلب قارئه أو سامعه رغم خلوه من مظاهر التفنن في القول والتعميق في الكلام . أنظر مثلا إلى أشعاره التي وجهها للأمير في مراة يبين فيها محاسن بخارى ليثير فيه الشوق إليها ويدفعه بذلك إلى الرحيل عن هراه التي أطال فيها المقام تجده يقول :

يا بخارى أسعدى وعيشى طويلا
وليأت إليك الأمير سعيداً دائماً
الأمير قمر وبخارى هي السماء
والقمر نحو السماء يتجه دائماً
الأمير سرو وبخارى هي البستان
والسرو يسمو في البستان دائماً (٢)

---

(١) باز بروز نبرد و كين وحيث — گرش ببينى ميان مغفر وخفتان

(٢) اى بخارا شاد باش ودير زى — مير زى تو شادمان آيد همى
مير ماهست وبخارا آسمان — ماه سوى آسمان آيد همى
مير سرو است وبخارا بوستان — سرو سوى بوستان آيد همى

فأى معان أبسط من هذه ؟ وهى مع هذه البساطة البادية تنفذ إلى قلوبنا بسهولة ذلك لأنها خرجت من قلب صاحبها فأرسلها على لسانه تعبيراً بسيطاً صادقاً دون أن يضيف اليها شيئاً من الزينة أو الصناعة فى لفظ أو معنى .

ولعل هذه البساطة هى التى أثارت دهشة أولئك الذين ينظرون إلى الشعر على أنه معرض من معارض الزينة والتجميل والصناعة الفنية . ويتحدث دولتشاه عن هؤلاء فيقول : «وينظر العقلاء فى دهش إلى هذه الحكاية العجيبة فان هذا النظم ساذج وهو خال من البدائع والصنائع والمتانة ، ولو كان غيره قاله فى مجلس السلاطين لقوبل بالانكار من العلماء ، ولكن هذه الأشعار قد لقيت القبول لأن الرودكى عرضها مع الغناء والألحان والموسيقى» (١) . والحكاية العجيبة التى يشير اليها دولتشاه هى تأثر الأمير نصر تأثراً شديداً حين سمع هذه الأبيات حتى هب من مجلسه قاصداً بخارى (٢) . وهؤلاء الذين لم ترقهم بساطة هذه الأبيات وسهولة ألفاظها يحاولون تعليل شدة وقعها فى نفس نصر وسامعيه بما صحبها من موسيقى وألحان . ولكنهم فى الحقيقة ينسون أن جمالها يرجع أساساً إلى هذه البساطة التى عابوها وإلى ما فيها من صدق العاطفة وبراءة الشعور . ولعل هذه البساطة والصدق هى التى طوعت النجاح للأغنية بعد أن أضيف اليها اللحن والأداء .

ومن أمثلة هذه البساطة أيضاً قوله :

لتطل حياة هذا السيد العظيم

فقد ارتبطت روحي العزيزة بروحه (٣)

فأى بساطة أجمل من هذه وأبلغ ؟ فهو يدعو للممدوح بطول الحياة لأن حياة الشاعر ارتبطت بحياة الممدوح . ولا شك فى أن الشاعر يحرص

---

(١) تذكرة الشعراء : ١٨ .

(٢) راجع بحثنا «تعليقات على بعض الاشارات الفارسية فى الأشعار العربية» ص ٩٧ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ١٨ سنة ١٩٦٤ .

(٣) دير زياد آن بزرگوار خداوند جان گراى بجانش اندر پيوند

على حياته وطولها كل الحرص . ومن هنا جاء دعاؤه للممدوح بطول العمر بسيطاً غاية البساطة صريحاً غاية الصراحة .

وقوله وفيه صدق عاطفة وبساطة تعبير :

يامن تتعلق بروحه أرواح الملوك
لا أرانا الله مكروهاً فيك (١)

الخمر عند الرودكي :

أهم ما جاءنا من خمر

والقسم الأول من هذه القصة

عن القسم الثاني الخاص بالمد

تكلمنا عن المدح عند الرودكي

بالقسم الأول من القصيدة و

ومطلع هذه القصيدة ،

مادر مى ر

بجه اورا

وترجمته الحرفية : «لابد أن

وسجنه » وأم الخمر هنا هى ا

منها ، والسجن هنا كناية عن الدن

فهو يقول إذا أردت أن تحصل ع

وتنزعها من مصدر حياتها وهو شجرة الكرم ثم تعصرها وتضع عصيرها فى الدن .

مع تحيات
عميد الكلية ورئيسة تحرير المجلة

---

(١) اى جان خداوندان برجان تو پيوند ... مكروه تو مارا منماياد خداوند

(٢) أسرار وأشعار رودكي : ١٠٠٨/٢

وإذا نظرنا إلى هذه القصيدة ، أو هذا الجزء الخاص بالخمر : وجدناها في مجملها شيئاً بعيداً عن الشعر بمعناه الفني الانساني . فالشاعر في هذا الجزء من القصيدة يشبه أن يكون خماراً يشرح لنا في تفصيل ودقة عملية صناعة الخمور . فالعناقيد تعصر ليستخرج ما فيها من عصير يوضع في الدنان حقبة طويلة من الزمن . ولا يصح أن يستخرج العصير من العنب قبل أن يمضي عليه — أي العنب — سبعة أشهر كاملة ليكون تام النضج وفير العصير وإذا انقضت هذه المدة ونضج العنب جاز لك أن تعصر العناقيد وتستخرج العصير منها وأن تضعه في الدن ليتحول خمراً . وقد عبر عن الدن في أحد الأبيات بالسجن الضيق . ويشرح لنا الشاعر عملية تخمير العنب وكيف يتحول خمراً ، فالعصير يوضع في الدن مدة . وهو في هذه المدة الأولى هادىء ساكن وقد عبر عن هذا بقوله انه يبقى مشدوهاً حيران لأنه لم يألف المكان بعد الذي وضع فيه ثم لا يلبث هذا العصير حتى يضيق بسجنه محاولا الثورة عليه فيأخذ بعد فترة في الحركة والاضطراب والفوران فيرتفع سافله وينخفض عاليه ويستمر كذلك فترة أخرى كأنه جمل هائج غطت الرغوة فمه من شدة الغضب . ويأتي صانع الخمر بعد ذلك — ويعبر عنه بالحارس لأنه يحرس ذلك السجين في سجنه — فيأخذ الرغاوي حتى يزول ما في العصير من كدر ويصبح صافياً . وأخيراً عندما يستقر السجين — أي العصير — ويهدأ في سجنه — أي الدن — يحكم الحارس سد باب السجن . وحين يسكن العصير تماماً يصبح صافياً ويشبه في لونه الياقوت الأحمر والمرجان . والخمر أنواع منها ما هو أحمر كالعقيق اليماني ومنها ما يشبه في الحمرة ياقوت يد خشان وإذا شممته خيل اليك أن الورد الأحمر قد أعاره رائحته وكذا المسك والعنبر . وهكذا تسيل الخمر في الدن إلى الربيع الجديد ومنتصف نيسان . فاذا أقبل الربيع وهو وقت المتعة واللهو والشراب أطلق الحارس سراح السجين ، وفتح الخمار فوهة الدن ، وسكب مما فيه من خمر صافية متلألئة كأنها عين الشمس المتوقدة . واذا ذاق هذه الخمر اللئيم غدا حراً وأضحى الضعيف شجاعاً شجاعاً وإذا ذاقها مصفر الوجه الوجه توردت وجنتاه ، ومن شرب في سرور قدحاً منها لم يعرف الأحزان بعد ذلك ولا التعب ، وهي تطرد كثيراً

من الأحزان وتجلب ألواناً جديدة من السعادة . ومثل هذه الخمر المعتقة إذا شرب منها الانسان نسي نفسه وفقد وعيه .

ومثل هذه الخمر تقدم في مجالس أعدت إعداداً خاصاً . ويجب أن يزود المجلس بكل أسباب البهجة والمتعة . يجب أن يهيأ بالورد والياسمين والرياحين المشهورة ، وأن يرتدي الندماء الملابس الذهبية ، وأن يتخذ له الفرش الجديدة والأرائك الكثيرة الوثيرة ، وأن تتوفر فيه آلات الموسيقى ووسائل الطرب من بربط وصنج وناي وشعر . وفي مثل هذا المجلس الملكي يتصدر أمير خراسان ، ويصطف أمام العرش الآف الغلمان ، من الأتراك الحسان ، كأن كل واحد منهم قمر في ليلة التمام . ويتوج كل واحد من هؤلاء الغلمان رأسه بأكاليل من الآس . أما الساقي فغلام بديع التكوين أسود العينين ، ملائكي الوجه ، وقامته كشجرة السرو . وحين تدور في حبور كؤوس الخمور يمشي مليك الدنيا سعيداً مسروراً ضاحكاً (١) .

بين الرودكي وأبي نواس :

وهناك شاعر عربي آخر من خبراء الخمر هو أبو نواس الذي يحدثنا عن هذه العملية نفسها فيقول :

وصفقوها بماء النيل إذ برزت — في قدر مس كجوف الجب روحاء
حتى إذا نزع الرواد رغوتها — وأقصت النار عنها كل ضراء
استودعوها رواقيداً مزفتة — من أغبر قاتم منها ، وغبراء
وكم أقرامها دهراً على ورق — من حر طينة أرض غير ميثاء
وعمرت حقباً في الدن لم يرها — حي من الناس في صبح وامساء
حتى إذا سكنت في دنها وهدت — من بعد دمدمة منها وضوضاء
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها — من برج لهو إلى آفاق سراء
كأنها ولسان الماء يقرعها — نار تأجج في آجام قصباء

(١) اكتفينا هنا بترجمة الأبيات دون اثبات نصها لطوله

ومن مقارنة أبيات الشاعرين ترى أن أبا نواس قد عبر عن نفس المعنى ولكن فى صورة أوضح ، ومعنى أبسط وان كان الشاعر الفارسى قد فصل وأطال . أنظر مثلا إلى بيت أبو نواس .

حتى إذا سكنت فى دنها وهدت   من بعد دمدمة منها وضوضاء
جاءت كشمس ضحى فى يوم أسعدها   من برج لهــو إلى آفاق سراء

نجد أن الشاعر الفارسى قد عبر عن هذين البيتين بمجموعة من الأبيات يقول فيها : «وأخيراً عندما يستقر العصير ولا يثور مرة أخرى يحكم الصانع سد الباب . وبعد فترة يسكن تماماً ويصفو ويشبه فى لونه الياقوت الأحمر والمرجان ، ويحكى فى رائحته الورد الأحمر والمسك والعنبر . وهكذا تبقى الخمر فى الدن إلى أن يأتى الربيع الجديد . وعندئذ إذا فتحت الدن فى منتصف الليل رأيت عين الشمس المتوقدة» (١) وهذا راجع إلى الفرق فى طبيعة الأسلوبين العرنى والفارسى ، وطريقة الشاعرين فى التعبير عن المعنى .

ومما ورد فى هذه القصيدة مشتركاً فى المعنى مع بعض أشعار أبى نواس قول الرودكى :

من يشرب فى سرور قدحاً منهــا
لا يرى التعب بعد ذلك ولا الأحزان (٢)

تطرد حزن سنوات عشر إلى طنجة
وتجلب سعادة جديدة من الرى وعمان (٣)

---

(١) آخر كارام گيرد ونخچد نيز   درش كند استوار مرد نگهبان
جون بنشيند تمام وصافى گردد   گونه ياقوت سرخ گيرد ومرجان
جند ازو سرخ جون عقيق يمنى   جند زو لعل جون نگين بلخشان
ورش ببوئى گمان برى كه گل سرخ   بوى بدو داد ومشك وعنبر بويان
هم بخم اندر همى گدازد جونين   تابگه نو بهار ونيمه نيسان
آنگه اگر نيم شب درش بگشائى   جشمه خورشيد را ببينى تابان

(٢) وآنك بشادى يكى قدح بخورد زوى   رنج نبيند از آن فراز ونه احزان

(٣) اندہ ده ساله را بطنجه رماند   شادى نو را ز رى بيارد وعمان

يريد أن يقول إن الخمر تطرد من الهموم شيئاً كثيراً كأنها هموم عشر سنوات، إلى مكان قصى لا ترجع منه مثل طنجة التى هى فى أقصى الغرب كما أنها تولد فى الانسان أنواعاً من السعادة لا تتيسر له عادة لبعدها عن متناول يده . أى أن الخمر تذهب الحزن إلى أقصى مكان وتجلب السعادة من أقصى مكان . والرى وعمان بلدتان فى الشرق قابل بهما طنجه التى هى فى أقصى الغرب للبعد الشاسع بينهما . وهذا المعنى يشبه قول أبى نواس :

فقلت أذنها تنأ الهموم لقربها
فتنقلها من دار قرب إلى بعد

وهذه العبارة النواسية «من دار قرب إلى بعد» فصلها الرودكى التفصيل الذى شرحناه فيما سبق ، فحدد قدر الحزن الذى تطرده الخمر كما حدد بعد المسافة .

ومن المعانى المشتركة كذلك بين الشاعرين قول الرودكى :

خمر عقيقية من رآها
لم يفرق بينها وبين عقيق مذاب

فكل منهما من جوهر واحد لكن
هذا تجمد وذا الآخر ذاب (١)

وقول أبى نواس فى نفس المعنى :

أقول لما تحاكيا شبهاً	أيهما للتشابه الذهب
هما سواء وفرق بينهما	أنهما جامد ومنسكب (٢)

(١) وآن عقيقين مى كه هر كه بديد | از عقيق گداخته نشناخت
هر دو يك گوهرند ليك بطبع | اين يفسرد وآن دگر بگداخت

(٢) ديوان أبى نواس .

ومما اشترك بينهما قول الرودكي :

لونت يدي الانسان قبل أن تمس
وأسرعت إلى العقل قبل أن تذاق (١)

وقول أبي نواس :

كأن بنان ممسكها أشيمت
خضابا حين تلمع في الزجاج (٢)

وقول الرودكي في صفاء الخمر :

هات تلك الخمر التي تشبه الياقوت الصافي
أو تشبه وهج السيف جرد في ضوء الشمس (٣)

يشبه قول أبي نواس في هذا المعنى :

من قهوة كالعقيق صافية   عادية العمر ذات اسلاف
كأن في لحظ عين مازجها   إذا اجتلاها بريق أسياف (٤)

ومن أبيات الرودكي اللطيفة في الخمر قوله :

لو انصبت قطرة من تلك الخمر في النيل
لظل التمساح ثملا من رائحتها مائة سنة

ولو شرب الغزال في الصحراء قطرة منها
لصار أسداً كاسراً لا يبالي بالنمر

---

(١) نابرده دو دست رنكين كرده   ناچشيده تبارك اندر تاخت
(٢) ديوان أبي نواس .
(٣) أحوال وأشعار رودكي : ٣/١٠٢٨
(٤) ديوان أبي نواس .

الغزل عند الرودكي

والحكم على هذا الفن عند الرودكي عسير فلم يصلنا فيه سوى أبيات معدودة مفرقة لا تمكن من الحكم الصحيح. ولكنها على أى حال تعطينا فكرة عن اتجاه الشاعر فى هذا الفن .

وتبين لنا أشعار الرودكي الغزلية أن المرأة عندهم كانت من وسائل المتعة واللهو والظرف ، ولم تكن مصدراً لعاطفة حقيقية .

وفى كثير من أشعار الرودكي نجد الخطاب موجهاً إلى امرأة كما ورد فى قصيدته التى يشكو فيها الزمان ويتحسر على شبابه(١) . وليس لهذه المرأة وجود حقيقى ، فهى متخيلة على الطريقة العربية إذ كان الشاعر العربى يتخيل أمامه عيوبة يخاطبها أو زوجة تحثه على الاقتصاد وهو يأبى إلا أن يكون جواداً متلافاً .

والمرأة عند الرودكي كائن مادى يعنى أنه ينظر اليها باعتبارها جسداً جميلا . وهى فى نظره تتألف من مجموعة أجزاء أو أعضاء ينبعث من كل منها جمال وفتنة تولد اغراء الشاعر به وتهافته عليه . وليس للجانب المعنوى فى المرأة نصيب من اهتمام الشاعر . ولا يبدو فى أشعاره أنه اهتم بعقل المرأة أو ذكائها أو روحها أو ما إلى ذلك من مظاهر الحياة المعنوية الراقية .

وأهم ما يلفت نظر الشاعر فى المرأة : خصلة الشعر ، والشفاه الدقيقة ، والوجنات الوردية ، والرائحة المسكية .

وفى هذا ما يدل على أن الشاعر كان مع المرأة لاهياً عابثاً ، ولم يعرف عنه أنه عشق امرأة حتى يتذوق الجمال فى المرأة من ناحيتيه المادية والمعنوية معاً .

---

(١) مرا بسود وفرو ريخت هر چه دندان بود   نبود دندان لا بل چراغ تابان بود

وهذه أمثلة من غزليات الرودكى ، يقول :

يامن انتزع من الورد الأحمر اللون والرائحة
فللوجنة اللون وللشعر الرائحة

يصبح الغدير كله وردى اللون حين تغسل فيه وجهك
ويمسى الحى كله مسكى الرائحة حين تنشر شعرك (١)

ويقول :

رأيت خصلتك ملوية الطرف من الكبر
تماوج على ورد الخد الأرجوانى

تأسر فى كل لية من لياتها ألف قلب
وتجذب فى كل طية من طياتها ألف روح (٢)

ويقول :

من ذا الذى جعل خصلة شعرك جيما ؟ إنه الذى
جعل من خالك نقطة تلك الجيم

فمك الدقيق كأنه
حبة رمان انشطرت شطرين(٣)

(يشبه خصلة شعر الحبيب فى تدليها وتثنيها بحرف الجيم لانثنائه ، ويشبه خال الحبيبة بالنقطة وهذا الخال هو نقطة الجيم .)

ويقول :

الورد والمسك والعنبر والتفاح
والياسمين الأبيض والآس الجميل

---

(١) أى از گل سرخ رنگ بر بوده وبو — رنگ از پى رخ ربوده بو از پى مو
گل رنگ شود چو روى شوئى همه جو — مشكين گردد چو مو فشانى همه كو
(٢) زلفش ديدم سر از چمان پيچيده — وندر گل سرخ ارغوان پيچيده
درهر بندى هزار دل در بندش — در هر پيچى هزار جان پيچيده
(٣) زلف ترا جيم كه كرد آنكه او — خال ترا نقطهٔ آن جيم كرد
وآن دهن تنگ تو گوئى كى — دانگكى نار بدو نيم كرد

كلها قد تفتحت وأينعت مرة واحدة
لديك يامعبود الملوك الفتان

كأن ليلة عاشقك ليلة القدر
إذا كشفت له فيها عن وجهك النقاب (١)

ويقول :

إذا كنت خريفاً لحديقة العقل
فأنت لجنة العشق ربيع

إذا كنت للعشق نبيا
فأنت للحسن رب (٢)

(يقصد أن المحبوب وان كان لفرط جماله يذهل العقل ويذهبه فيصبح كأنه فى خريفه الا أنه للعشق والشباب ربيع . فالعقل فى خريف لما يعتريه من ذهول ودهش من جمال الحبيب ، والقلب والعشق فى ربيع لما يذكيه جمال الحبيب من نار الحب) .

ويقول :

جاءنى من ؟ الحبيب . متى ؟ وقت السحر
يخاف من ؟ الخصم . خصمه من ؟ الأب

قبلته قبلتين . علام ؟ على شفة ناعمة
أكانت شفة ؟ لا . فماذا كانت ؟ عقيقاً مثل ماذا ؟ مثل السكر

---

(١) گل صد برگ ومشك وعنبر وسيب — ياسمين سپيد وسوسن بزيب
اين همه يكسره تمام شدست — نزد تو اى بت ملوك فريب
شب عاشقت ليلة القدر ست — چون تو بيرون كنى رخ از جليب

(٢) چون عقل را خزان اگر — گلشن عشق را بهار توئى
عشق را گر پيمبرى ليكن — حسن را آفريدگار توئى

(٣) آمد بر من كه؟ يار. كى؟ وقت سحر — ترسنده ز كه؟ ز خصم. خصمش كه؟ پدر
دادمش دو بوسه بر كجا؟ بر لب تر — لب بد؟ نه. چه بد؟ عقيق. چون بد؟ چو شكر

ويقول :

إذا كنت تقبل الرودكي غلاماً عندك
فلن يرضى ألف دارا عبيداً له (١)

أى أنه يكفيه سعادة أن يقبله المحبوب غلاماً له . وهذا أفضل عنده من أن يتخذ ــ أى الشاعر ــ ألف ملك مثل دارا عبيداً له ، ولأن يكون عبداً للمحبوب خير من أن يكون الملوك عبيداً له .

الربيع عند الرودكى :

ومن شعر الرودكي الجميل فى وصف الربيع قوله :

جاء الربيع السعيد بألوانه وروائحه الذكية
مع مائة الف من الزينات العجيبة

فى هذا الوقت يمكن أن يرتد الشيخ شاباً
وتطرح الدنيا المشيب لتكتسى بالشباب

قد جند الفلك العظيم جيشاً
وجيشه السحاب المظلم وريح الصبا هى النقيب

كأن البرق المضىء قاذف النفط فى هذا الجيش وكأن الرعد ضارب الطبل
رأيت آلاف الخيل ولم أر منظراً مهيباً مثل هذا .

أنظر إلى ذلك السحاب الذى يبكي بكاء المحزون
وذلك الرعد الذى ينوح كالعاشق الكئيب

ووجه الشمس يظهر أحياناً من خلال السحاب
كأنه عصـــور يفلت خلسة من الرقيب

تضنى العالم أزماناً فى ألم وعناء
ثم تحسنت حاله حين اتخذ له الطبيب من رائحة الياسمين دواء

---

(١) تو رودكى بغلامى اكر قبول كنى بنده كى نهـد هزار دارا را

أمطرت الدنيا مطراً ممطراً أولا بأول
واكتست بالثلج حلة قشيبة (١)

كل ركن كثر فيه الثلج نما فيه الورد
كل بجلول كان جافاً صار زاخراً

الرعد في الصحراء يثير دائماً الريح
والبرق من بين السحاب يرفع دائماً العصا

شقائق النعمان بين المزارع تضحك دائماً من بعيد
وقد صارت ككف العروس المخضب بالحناء

والبلبل دائماً يغني على غصون الصفصاف
فيردد الزرزور الغناء من فوق شجر السرو

وقد ترنم القمرى على شجرة السرو بلحنه القديم
وصدح البلبل على غصن الورد بلحن غريب

الآن فلتشربوا الخمر والآن فلتعيشوا سعداء
فان الحبيب قد أخذ الآن نصيبه من صدر الحبيب

اختر الساقي والخمر واشـــــــرب على لحن الزير
فهذا هو الزرزور يشدو في الحقول وهذا هو العندليب يغرد في البستان

(١) آمد بهار خرم با رنگ وبوی طیب — با صد هزار زینت وآرایش عجیب
شاید که مرد پیر بدین گه شود جوان — گیتی بدیل یافت شباب از پی مشیب
چرخ بزرگوار یکی لشکری بکرد — لشکرش ابر تیره وباد صبا نقیب
نفاط برق روشن وتندرش طبل زن — دیدم هزار خیل وندیدم چنین مهیب
آن ابر بین که گرید چون مرد سوگوار — وآن رعد بین که نالد چون عاشق کئیب
خورشید را ز ابر دهد روی گاه گاه — چون حوریی که گلرخ دارد از رقیب
یك چند روزگار جهان دردمند بود — به شد که یافت بوی سمن را دوا طبیب
باران مشکبوی ببارید نو بنو — وز برف برکشید یکی حلة قشیب

مهما يكن ربيع حياتك الجديد جميلا فى عينك
فرؤية ذلك السيد العظيم الحسيب أجمل

لك فى تدانيك رفعة ، وفى الرفعة تدان
أبناء آدم من أمرك فى حيرة ودهشة (١)

وفى هذه الأبيات حديث عن الربيع وصور كثيرة . فهو يصور السماء بما فيها من قطع السحاب المظلم ، والرياح المزمجرة ، والبرق المضىء ، والرعد القاصف بالجيش المظلم الذى يسد الأفق فتتعذر معه الرؤية ، والرياح فى زمجرتها كأنها نقيب ذلك الجيش الذى يصدر اليه الأوامر بصوته القوى ، يشبه البرق المضىء بقاذف النفط الذى يلقى قذائفه فتحرق وتضىء ، ويصف الرعد فى صوته بضارب الطبل فى ذلك الجيش . ومع أن الشاعر رأى آلاف المعارك والمواقع التى احتشدت فيها الخيل والجند إلا أنه لم ير منظراً يدانى هذا هيبة . وينتهى الشاعر من وصف الربيع ليدخل بعد ذلك إلى المدح . وبهذا نرى أن هذا الوصف مقدمة للدخول فى الموضوع الرئيسى وهو المديح ونقطة التحول بين وصف الربيع والمدح هو ذلك البيت الذى يذكر فيه الشاعر أن الربيع مهما يكن فى العين جميلا فرؤية الممدوح أجمل . وهذا الممدوح مع ارتفاعه وعلو شأنه متواضع لا يتعالى .. الخ .

---

(١) گیتی که برین پیش همی داشت گل   هر چوبکی که خشک همی بود شد رطب

تندر میان دشت همی باد بر دمد   برق از میان ابر همی بر کشد قضیب
لاله میان کشت بخندد همی ز دور   چون پنجه عروس بحنا شده خضیب
بلبل همی بخواند در شاخسار بید   سار از درخت سرو مرورا شده مجیب
صلصل بسرو بن بر با نغمه کهن   بلبل بشاخ گل بر با لحنک غریب
اکنون خوریدباده واکنون زیید شاد   کاکنون برد نصیب حبیب از بر حبیب
ساقی گزین و باده و می خور بیانگ زیر   کز کشت سار نالد واز باغ عندلیب
هر چند نو بهار جهانست بچشم خوب   دیدار خواجه خوبتر آن مهتر حسیب
نشیب تو با فراز و فراز تو با نشیب   فرزند آدمی بتو اندر بشیب و ریب

الزهد فى شعر الرودكى :

وللرودكى فى الزهد أشعار طيبة . ومن الجو الذى يسود هذه الأشعار ، جو التوبة إلى الله ، والندم على مافات ، والنظر إلى الدنيا نظر الزاهد المنصرف يتضح لنا أن هذه الأشعار قد قيلت فى أخريات أيامه . فهو يرى أن :

هذا العالم حاله كالنوم تماماً
يعرف هذا من كان قلبه واعياً (١)

وهو لا يبالى بما وقع له فى أمسه وما يأتيه به الغد فيقول :

يجب ألا يفرح الانسان بما يأتى
ويجب ألا يذكر الانسان ما قد مضى (٢)

والحياة مهما طالت فالمصير إلى الموت لا مفر منه مهما لقى الانسان فى حياته من شدائد وعناء أو نعم ورخاء .

مهما تطل الحياة أو تقصر
ألا تنتهى أخيراً إلى الموت
فعش ان شئت فى شدة وعناء
وعش ان شئت فى نعمة ورخاء (٣)

كما ينبغى أن ينصرف الانسان عن اللذات :

لا ترطب شفتك بالماء الذى يسيل فى القدح
وارفع اليد عن الكباب فانه توأم السم (٤)

---

(١) اين جهان پاك خواب كردار است — آن شناسد كه دلش بيدار است
(٢) زآمده شادمان نبايد بود — وز گذشته نكرد بايد ياد
(٣) زندگانى چه كوته چه دراز — نه بآخر بمرد بايد باز
خواهى اندر عنا وشدت زى — خواهى اندر امان بنعمت وناز
(٤) لب تر مكن بآب كه طلخست در قدح — دست از كباب دار كه زهرست توامان

والآن وقد أوشك الرجل أن يستدبر الدنيا ليستقبل الآخرة فليس له الا أن ينقطع لمدح الله ويدع مدح الناس .

مدحت الله الذى خلقنى
فانقطع لسانى عن الغزل ومدح عباده (١)

وأبسط تعليل لظاهرة الزهد فى شعر الرودكى وغيره من الشعراء أن الانسان إذا علت به السن وتوقع بين يوم وآخر مفارقة هذه الدنيا ندم على ما كان منه من عبث وفسوق أيام الشباب . والمشيب بطبعه وقت ضعف وعجز عن مباشرة اللذات وارتكابها . ومن هنا كان الاتجاه إلى الله فيه خالصاً قوياً لانعدام أسباب تحصيل المتعة واللذات .

ومن قول الرودكى فى الموعظة والحكمة :

أيها المغموم وحق لك أن تغتم
يامن تسح دموعك فى الخفاء

مضى من مضى وأتى من أتى
وكان ما كان فما جدوى ذلك الغم

هل تريد دنيا لينة مهادنة
انها الدنيا متى كانت تقبل المسالمة

لا تضرع فانها لا تسمع الضراعة
ولا تنح فانها عن سماع النواح صماء

نح ما شئت حتى يوم القيامة
متى كنت بالنواح ترد ذاهبا

ما أكثر ما يصيبك من أذى هذه الدنيا
إذا كنت تنوح لأى سبب

---

(١) خداى رابستودم كه كردكار منست   زبان از غزل ومدح بندكانش بسرد

كأن بلاءها موجه
إلى كل ما تعلق القلب به (١)

ويقول وقد فهم حقيقة الحياة :

مازهوك كله ووجودك نفسه سوى حلم
حكم الحلم هو حكم المجاز (٢)

وقد سبق عند الكلام على شيخوخة الرودكي أن لخصنا بعض معانيه في قصيدته المشهورة التي يشكو فيها الزمان ويتحسر على المجد والشباب الذي ولى ولن يعود . وهذه القصيدة من شعره الممتاز ، ولعلها من خيرما قيل في شكوى الزمان . انظر ص من هذا البحث .ويختم الشاعر هذه القصيدة ببيت مؤثريعبر فيه عن تغير الحال والزمان، وتبدل الصحة ، وزوال النعمة فيقول :

تغير ذلك الزمان وتغيرت أنا الآخر
احضر الآن العصا فان وقت العصا والخلاة قد آن (٣)

الموسيقى والشعر عند الرودكي :

كان الرودكي ينشد أشعاره على نغمات الموسيقى فيضاعف ذلك من حسنها وتأثيرها . ويظهر أن ذلك كان خطة كبار الشعراء في العهود

---

(١) أى آنك غمكنى وسزاوارى   وندر نهان سرشك همى بارى
رفت آنك رفت وآمد آنك آمد   بود آنكه بود خيره چه غم دارى
هموار كرد خواهى كيتى را   كيتيست كى پذيرد همواری
مستى مكن كه نشنود او زارى   زارى مكن كه نشنود او زارى
شو تاقيامت آيد زارى كن   كى رفته را بزارى باز آرى
آزار بيش زين گردون بينى   گر تو بهر بهانه بيازارى
گوئى گماشته است بلائى او   بر هر كه تو دل برو بگمارى

(٢) اين همه باد وبود تو خوابست   خواب را حكم نى مگر بمجاز

(٣) كنون زمانه دگر گشت ومن دگر گشتم   عصا بيار وقت عصا وانبان بود

الفارسية الاسلامية الأولى . وكان الشعراء الكبار أمثال الرودكي ومنجيك الترمذي وفرخي من أساتذة زمانهم فى الموسيقى . ومن الواضح أن هذا الأسلوب فى انشاد الشعر قد جاءهم من العهد الساسانى . ومن هذه الناحية نرى أن هناك أوجهاً كثيرة للمقارنة بين شاعرنا السامانى الرودكي وبين باربد الساسانى .

وكما كان الرودكي مغنى نصر بن أحمد السامانى كان باربد مغنى خسرو برويز الساسانى . وكما كان رجال الحاشية فى البلاط السامانى يستعينون بالرودكي فيما لا يقدرون أن يبلغوه الأمير بأنفسهم كان كذلك رجال البلاط الساسانى إذا لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة لأن يخبروا خسرو برويز بخبر ما استعانوا بمغنيه باربد ليلقى اليه هذا الخبر فى شعر رائق وصوت عذب ولحن جميل .

وقد رووا أن خسرو برويز كان له حصان جميل حبيب إلى قلبه عزيز على نفسه . وكان يسمى شبديز . فمرض ذات يوم ، وألح عليه المرض فأقسم خسرو ليقتلن من ينعاه اليه . ولما نفق شبديز لم يجرؤ مروض خيله أن يبلغه الخبر وخشى إن هو سأل عنه أن يبلغه أنه نفق فيكون فى هذا هلاكه ، فجاء إلى باربد مغنى كسرى ورجاه أن ينظم هذا الخبر فى احدى أغانيه التى يغنيها أمام الملك . وقد استطاع باربد ببراعته فى النظم والغناء أن ينهى إلى الملك خبر موت شبديز فى أسلوب غير مباشر . فلما سمع الملك الأغنية فهم أن شبديز قد نفق فصاح «مات شبديز» فقال باربد على الفور « لم أقلها يامولاى أنت قلتها» فأعجب الملك بحسن العرض الذى لجأ اليه باربد وقال له «لقد أنقذت نفسك وأنقذت غيرك حين رويت لى الخبر على هذا النحو» . وقد روى هذه القصة كثير من المؤلفين العرب وقيلت فيها أشعار عربية مختلفة . وتروى عن خسرو برويز ومغنيه باربد قصة أخرى تشبه هذه ، فيذكر ابن الفقيه أن السبب فى بناء قصر شيرين أن الملك أمر أن تقام له حديقة واسعة يؤتى اليها من كل صيد حتى يتناسل ويكثر نسله فيها . فلما فرغ

العمال من انشاء هذه الحديقة عاينها الملك وسربها فأمر فأنعموا على العمال بالأموال الكثيرة . وفى غمرة الفرح والسرور بهذه الحديقة ونشوة الخمر قال خسرو لزوجته ومحبوبته شيرين «تمنى على شيئاً» فطلبت أن يكون لها فى هذه الحديقة قصر تجرى من تحته أنهار من خمر ولبن . فوعدها الملك بتحقيق ما طلبت إلا أنه نسى الوعد بعد ذلك واستحت هى أن تذكره فلجأت إلى باربد وطلبت اليه أن يذكر الملك فى احدى أغانيه بما وعدها على أن تكافئه بضيعة لها كانت فى أصفهان . فوافق باربد ونظم شعراً فى هذا الموضوع وهيأه للموسيقى والغناء فلما سمعه خسرو تذكر ما كان ناسيا وأمر فبنوا القصر والقنوات . ووفت شيرين بدورها ووهبت باربد ضيعتها فى أصفهان (١) :

وإذا كان صاحب تاريخ كزيده عند وصفه مظاهر الترف التى كان يحيا فيها خسرو برويز قد ذكر أن باربد كان له فى مآدب برويز ثلاثمائة وستون أغنية يغنى واحدة منها كل يوم (٢) ، فلا شك أن الرودكى كان له هو الآخر مجموعة كبيرة من الأغانى والألحان فقد كان ملازما للأمير يغنيه صباحاً ومساء كما كان يصاحبه فى كل مكان سواء أكان الأمير مقيما فى بخارى أو مرتحلا خارجها . وهذه المصاحبة القوية تفرض على المغنى أن يكون واسع المادة ، متنوع البضاعة وإلا سئمه الأمير وانحطت مكانته عنده .

ويمكن هنا أن نلخص أوجه الشبه بين الرودكى وباربد :

كان كل منهما شاعراً ومغنياً وملحناً .

كما كان كل منهما ينشد الشعر مصحوباً بالغناء والموسيقى . وهو اتجاه ساسانى قلد فى العهد السامانى .

(١) ابن الفقيه : مختصر البلدان ١٥٨ ط ليدن

(٢) تاريخ گزيده : ١/١٢٢ ط براون ١٩١٠

وكان كل منهما عالى المكانة عند مليكه ينهى اليه أخطر الأخبار فى أبرع قالب .

واعترف لكل منهما معاصروه بالسبق واستفادوا من براعته وفنه الشيء الكثير .

ثقافة الرودكى :

قراءة أشعار الرودكى تدل على أنه كان ذا حظ من الثقافة العامة فى نواحيها المختلفة :

فهو ذو اطلاع فى الميدان الفلسفى . ونظرية الطبيعيين اليونان كانت معروفة عند الرودكى . ولا شك فى أن الرودكى قد سمع عن نظرية طاليس ومؤداها أن المادة الأولى هى الماء ، وعرف نظرية أنكسيمانس الذى يرى أن الهواء هو المادة الأولى ، وبلغته نظرية هرقليطس الذى ذهب إلى أن النار هى المصدر الأول الذى تصدر عنه كل الأشياء وترجع اليه ، وسمع عن نظرية أنبادقليس الذى اعتبر العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب هى الأصل الذى تتكون منه كل الأشياء .

هذا المذهب الطبيعى لا شك أن الرودكى قد وقف عليه حين يقول فى قصيدته التى مدح فيها أباجعفر :

الخلق من تراب وماء ونار وريح
وهذا الملك من بريق جوهر ساسان (١)

وفى القصيدة نفسها يشبه ممدوحه فى الحكمة بسقراط أو أفلاطون .

والفكرة الثنوية القديمة لا تزال تتردد فى شعر الرودكى ، فهو يرى أن الروح منيرة مشرقة ، وهى من عالم السماء ، وأن الجسد مظلم حالك ، وهو من عالم الأرض والتراب . واليك قوله فى رثاء المرادى :

---

(١) خلق ز خاك وز آب وآتش وبادند   وين ملك از آفتاب گوهر ساسان

رد روحه الطاهرة إلى السماء
وأودع الأرض الجسد المظلم (١)

ويقول عنه أيضاً :

طرح قالب التراب في التراب
وحمل عقله وروحه نحو السموات (٢)

ولا جدال فى أن غزو الاسكندر لبلاد ايران كان عاملا قوياً فى نشر الثقافة اليونانية التى وطدت أقدامها بعد ذلك فى عهد خلفائه السلوقيين اللذين خلفوه فى حكم البلاد ، كما أن دولة البارث الذين انتهت على أيديهم دولة السلوقيين كانوا من المعجبين باليونان وقد أظهروا حبهم لهم واعجابهم بهم فى صور مختلفة حتى نقشوا على العملة نقوشاً يونانية ، وكذلك انتشرت الثقافة اليونانية فى ايران فى العهود المسيحية والاسلامية أيضاً . وكان لها مدارس فى كثير من المدن كجند يسابور التى أسسها سابوربن أردشير الساسانى وغيرها .

ومن هنا نرى أن وصول مثل هذه المعلومات الفلسفية اليونانية إلى الرودكى أمر سهل ميسور .

وكان الرودكى ذا علم بالفقه ورجاله فهو يشبه ممدوحه أبا جعفر بأنه فى العلم بالفقه الشافعى وأبو حنيفه وسفيان فيقول :

وان كنت فقيهاً تميل الى الشرع
فهو الشافعى وأبو حنيفه وسفيان (٣)

---

(١) جان گرامی بپدر باز داد   کالبد تیره بمادر سپرد
(٢) قالب خاکی سوی خاکی فکند   جان وخرد سوی سماوات برد
(٣) ور تو فقیهی وسوی شرع گرائی   شافعی اینکت وبو حنیفة وسفیان

من لم تعلمه الأيام
فلن يعلمه معلم قط (١)

وعما يؤسف له أن ترجمة الرودكي الشعرية لهذا الكتاب لم يعثر عليها بعد كاملة ، ولم يبق منها الا القليل من الأبيات .

(١) هر كه نامخت از كذشت روزكار   نيز ناموزد ز هيچ آموزكار

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين

للدكتور احمد مختار العبادى

موضوع هذا المقال يتناول نشأة دولة اسلامية مغربية مجاهدة ، وهى دولة المرابطين . ولقد تعرضت هذه الدولة ، للأسف ، لعداوات الكثيرين ممن جاءوا بعدها من الموحدين والاندلسيين الذين حملوا عليها حملة ظالمة كان الدافع اليها إما تعصبا دينياً أومذهبياً ، وإما كراهة سياسية أو قومية ، فحاولوا النيل منها (١) ، وتبعهم فى تلك الكراهية بعض المؤرخين المستشرقين المحدثين أمثال العالم الهولندى راينهارت دوزى الذى دفعه اعجابه بالمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف إلى كره خالعيهم المرابطين واتهامهم ظلما بالجهل والوحشية والقضاء على العلم والحضارة فى الاندلس (٢) وقد تبعه فى ذلك نفر من المؤرخين المعاصرين (٣) .

وعلى الرغم من الغموض الذى اكتنف نشأة هذه الدولة المرابطية ، وندرة المصادر التاريخية التى سجلت تاريخها بوجه عام ، والمراحل الأولى منه بوجه خاص فان المحاولات التى اضطلع بها الباحثون المحدثون (٤) من أجل

---

(١) راجع على سبيل المثال (البيذق : كتاب اخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين)، حيث نجد باباً خاصاً فى ذكر مثالب المرابطين ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٧٧ ، وكذلك الشقندى فى رسالته التى كتبها فى فضل الأندلس والتى هاجم فيها يوسف ابن تاشفين والمرابطين واتهمه بالجهل . (راجع - المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٧٧ ، ص ١٩٢) .

(٢) راجع كتابه الخاص بتاريخ بنى عباد ملوك اشبيلية Loci Abbadides

(٣) نذكر منهم المؤرخ الأمريكى ارشيبالدلويس فى كتابه "القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٣٦٢ ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(٤) أمثال حسين مؤنس ومحمود مكى ، وحسن أحمد محمود وأويثى ميراندا Huici Miranda وبوسك فيلا Bosch Vila وغيرهم .

كتابة تاريخ منصف لهذه الدولة المجاهدة تكشف لنا عن مآثر حميدة تملأ الصفحات الطوال بأحرف من نور . وحسبي في هذه الدراسة أن أقتصر على عرض بعض صفحاتها الأولى التي تتناول مكان وزمان نشأتها والدوافع التي أدت إلى قيامها بدورها التاريخي الخالد .

وتبدأ مقدمة هذه الصفحات في جناح المغرب الأيمن ، في الصحراء الغربية صحراء شنجيط(١) أو مايسمى اليوم بموريطانيا . في هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضا وماشية ونباتا ، والتي تحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانة الكبيرة ، وفي الغرب المحيط الاطلسي ، وفي الشرق نهر النيجر عندما يلتوى شمالا إلى جهة تمبكتو ، وفي الشمال منطقة سجلماسه التي يقال لها اليوم تافيلالت(٢) ، في هذه الصحراء كانت تعيش قبائل صنهاجه اللثام البربرية ، ومن أشهرها : قبيلة لمتونه في شمال الصحراء ، وتليها جنوبا مسوفة ، ثم جدالة بالقرب من نهرى السنغال والنيجر وساحل المحيط . وهذه القبائل الصنهاجية ، كانت امتداداً لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغربين الأدنى والأوسط ، وكذلك الدولة الزيرية التي قامت في غرناطه بعد سقوط الخلافة الأموية أيام ملوك الطوائف .

---

(١) كلمة شنجيط أو شنقيط كانت تطلق في الأصل على قرية من قرى ولاية أدرار بموريطانيا ومعنى شنجيط بالبربرية عيون الخيل ، ويقال انها بنيت في القديم في القرن الثاني الهجرى ، ثم جددت في القرن السابع في موضعها الحالي ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله وصار أهله يعرفون بالشناجطة ومن الغريب أن الرحالة المسلمين الذين مروا بهذه البلاد مثل ابن بطوطه وليون الافريقي لم يذكروا اسم شنجيط في كتاباتهم مع انهم ذكروا مدنا أخرى أقل منها شأناً . ومازالت مدينة شنجيط هي العاصمة الروحية للبلاد أما العاصمة السياسية فهي مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسي .

راجع (الشيخ ماء العينين الشنجيطي الشريف الادريسي : الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط ص ١١ ؛ محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا . (الدار البيضاء ١٩٦٢) .

(٢) يلاحظ أن تافيلالت الحالية تقابل مقاطعة سجلماسه القديمة أما مدينة سجلماسه القاعدة فتقابلها اليوم مدينة الريصاني .

غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية ، كانت تختلف عن أقربائها فى الشمال فى أنها كانت تتلثم أو تتقنع ، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام(١).

ولعلها أخذت هذه العادة من زنوج افريقيا المجاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم(٢).

وفى ذلك يقول المؤرخ والجغرافى المعاصر أبو عبيد البكرى :—

"وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب ، وهو فوق اللثام ، حتى لايبدو منه الا محاجر عينيه ، ولايفارقون ذلك فى حال من الاحوال ، ولايميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب ، وكذلك فى المعارك ، إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه ، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك ألزم من جلودهم" (٣).

ويضيف صاحب الروض الهتون أنه إلى جانب استعمال اللثام ، كانوا يلبسون الغفائر (٤) القرمزية اللون ، والعمائم ذات الذوابات(٥).

كذلك اشاد المؤرخون بشجاعة الملثمين فى القتال ، فقال البكرى فى هذا الصدد : "ولهم فى قتالهم شدة وجلاد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت

---

(١) مدحهم فى ذلك الشاعر أبو محمد بن حامد بقوله :

قوم لهم درك العلا فى حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ

لما حووا احراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

(المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٩٣ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ٣٨)

(٢) راجع André Julian : Histoire de l'Afrique de Nord. P. 77, Paris 1952

(٣) راجع البكرى : المغرب فى وصف افريقية والمغرب ص ١٧٠ ، نشر دى سلان الجزائر ١٩١١) هذا ، ومازالت قبائل الطوارق أو التوارجة فى صحراء الجزائر يستعملون اللثام ، ويقال انهم من قبيلة ترجع لاحدى قبائل الملثمين ، ويضعهم ابن خلدون فى كتلة البربر البرانس التى تنتمى اليها صنهاجه . (حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٨) .

(٤) الغفارة : رداء واسع يلبسه الجنود عادة . ومازالت كلمة غفارة تستعمل فى المغرب بمعنى اللهام . راجع (R. Dozy : Supplement aux Dict. Arabes, 11 P. 218 .

(٥) عثمان بن غازى : الروض الهتون فى وصف مكناسة الزيتون ص ٦ .

ولقد استطاع هذا الفقيه ، بفضل ذكائه واخلاصه وحزمه ، أن يخلق من قبائل الملثمين قوة دينية سلفية تقوم :

(أولا) على الايمان الراسخ واقامة شعائر الاسلام وفق ما جاءت به السنة .

(ثانياً) على التمسك بمذهب مالك بن أنس فيما يرجعون اليه من قوانين دينية ودنيوية .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين ، أراد أن يتوج اتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية ، فسماهم بتلك التسمية الخالدة : « المرابطون » ، وقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الاسم ، فهناك فريق أمثال صاحب روض القرطاس وابن خلدون والسلاوى الناصرى ، يرجعونه إلى ذلك الرباط الذى اتخذه عبد الله بن ياسين فى بداية دعوته عند مصب نهر السنغال أو فى احدى جزر الساحل الموريطانى على المحيط الأطلسى .

وهناك فريق آخر أمثال ابن عذارى ، وصاحب الحلل الموشية ، وصاحب كتاب مشاهير أعيان فاس ، يرون أن هذا اللقب أطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة لمتونه عقب معركة عنيفة انتصرت فيها على قبائل من البربر على غير دين الاسلام (١) عند جبل فى شمال الصحراء ، فسماهم بالمرابطين بمعنى الصابرين المجاهدين فى سبيل الله دون التقيد برباط مادى يرابطون فيه . وسواء أكان هذا المعنى المادى أو ذاك المعنى المجازى الروحى ، أو كلاهما معاً هو أصل هذه التسمية ، فالذى يبدو من سير الحوادث أن المرابطين قد تفهموا جيداً المعانى النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة ، وفخموا من شأنها إلى درجة أنها صارت اسماً علماً لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك

---

(١) يرى صاحب كتاب مشاهير اعيان فاس ، أن هذه القبائل المشركة كانت من برغواطه وان المعركة دارت بنواحى بلاد السوس وسجلماسه .

بمثابة وسام عسكرى يمنحه كل سلطان مرابطى لأتباعه المجاهدين ، ليؤكد من جديد سنة أسلافه فى ايثار الجهاد والرباط والذود عن الاسلام (١)

بهذه الرسالة الدينية السامية كان خروج المرابطين من الصحراء . ويرى بعض المؤرخين أن السبب فى خروجهم يرجع إلى عامل سياسى وهو قوة مملكة غانا فى الجنوب واشتداد ضغطها على المرابطين الذين اضطروا أمام هذا الضغط إلى الاتجاه شمالا نحو المغرب (٢) .

وهذا التفسير لا يتفق مع طبيعة الأحداث ، لأن مملكة غانا هى التى تعرضت فى الواقع لضغط جيوش المرابطين منذ قيام دولتهم ثم لم تلبث عاصمتها مدينة غانا أن سقطت فى يد أمير المرابطين أبى بكر بن عمر سنة ١٠٧٦م (٤٦٨هـ)(٣) كذلك يرى كثير من المؤرخين أن سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين فى التحكم فى طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضى المغرب الخصبة . ونحن لا ننكر دور العامل الاقتصادى فى هجرات الشعوب إلا أن الاعتماد عليه وحده ، دون الالتفات إلى الدوافع الأساسية الأخرى ، لا يستقيم هنا فى حالة المرابطين خصوصاً وأن الطريق التجارى الصحراوى بين أودغشت جنوباً وسجلماسة شمالا كان طريقاً معروفاً ومطروقاً من قديم ، وكذلك كانت قبائل صنهاجة تعيش فى صحرائها من قديم ، وكثيراً ما قاست من أهوال الجدب والقحط

---

(١) مثال ذلك قول عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ «وحين ملك يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس ، تسمى هو وأصحابه بمرابطين ، وقوله فى ترجمة ابنه على «وقام بأمره ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه بالمرابطين ، فجرى على سنن أبيه فى ايثار الجهاد واخافة العدو وحماية البلاد» انظر كذلك مقالنا (دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان العدد الخامس سنة ١٩٦٠) .

(٢) راجع على سبيل المثال (دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى ص ٥٧) .

(٣) راجع ما كتبه الأستاذ قاسم الزهيرى من الممالك الاسلامية القديمة فى افريقيا السوداء فى مجلة دعوة الحق ، أعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (١٩٦٢)

وكونت أحلافاً اقتصادية فيما بينها ، الا أنها لم تقم بمثل هذه الهجرة الجماعية المنظمة إلى الشمال مما يدل على وجود عامل رئيسي جديد دفع بهذه القبائل إلى التكتل والاندفاع إلى خارج الصحراء شمالا وجنوباً — وهذا العامل هو من غير شك : الاسلام (١) . فالمرابطون ، كما هو واضح من أسمهم ومن أعمالهم ، كانوا وقبل كل شيء أصحاب رسالة دينية يريدون تحقيقها وهذا هو السبب الأساسي في خروجهم من الصحراء شمالا نحو المغرب وجنوباً نحو السودان .

ولكن هل كان هناك ما يوجب الجهاد الديني في البلاد المغربية في ذلك الوقت ؟ الاجابة على هذا السؤال تقتضي الكلام عن حالة المغرب قبيل غزو المرابطين :

إن الذي يدرس حالة المغرب في أوائل القرن الخامس الهجري ، يجد أنه كان يعاني محنة سياسية ودينية . وقد أعطانا البكري صورة واضحة لموجة التنبؤ والشعوذة التي عمت جزءاً كبيراً من بلاد المغرب الأقصى في تلك الفترة . كما صور لنا ابن عذارى حالة الفوضى السياسية التي كان يعيشها المغرب بتلك العبادة المختصرة : «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس»(٢).

---

(١) حاول المؤرخ الأمريكي ارشيبالدلويس في كتابه : القوى البحرية في حوض البحر المتوسط ص ٢٦٢ ربط هجرة المرابطين بهجرات السلاجقة الاتراك والعرب الهلالية، على أساس أنهم جميعاً قبائل رحل خرجوا من صحاريهم في وقت واحد تقريباً ونتيجة لظروف سياسية أو اقتصادية أو مناخية ، وانتهى إلى اتهامه لهم بعدم تقديرهم للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في البلاد التي اغاروا عليها ، وبأنهم كانوا مخربين لكل حضارة مستقرة . والواقع أن مثل هذا الحكم العام تعوزه الدقة العلمية والدراسة التحليلية المقارنة ؛ لأن كل شعب من هذه الشعوب له ظروفه وملابساته الخاصة به ولا وجه للمقارنة مطلقاً بين فساد العربان الهلالية مثلا وبين أعمال المرابطين الايجابية البناءة التي انقذت الاسلام في المغرب والأندلس من انهيار محقق .

(٢) ورد هذا النص في القطعة الباقية من الجزء الخاص بتاريخ المرابطين من كتاب البيان المغرب لإبن عذارى نشرها المستشرق الأسباني أويثى ميراندا تحت عنوان :

Ambrioso Huici Miranda : Un Fragmento Inédito de Ibn Idari Sobre los Almoravides, Hespéris Vol 11. 1961. fasc. 1.

فابن عذارى قد شبه الحالة فى المغرب بحالة الأندلس من حيث أن كلا من البلدين قد تحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات طائفية .

واذا نحن حاولنا استعراض هذه الطوائف المختلفة التى سادت المغرب قبيل وصول المرابطين ، نجد أنها كانت تنحصر فى هذه القوى الأربع :

(أولا) قبائل غمارة فى الشمال .

(ثانياً) قبائل برغواطة فى الغرب .

(ثالثاً) قبائل زناتة التى كانت تكون نطاقاً حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة .

(رابعاً) طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب .

أما عن الطائفة الأولى وهى قبائل غمارة ، فكانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحى سبته وطنجة غرباً ، إلى وادى نكور بالقرب من المزمة أو الحسيمة الحالية شرقاً ، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس . وكانت غمارة فرعاً من مصموده ، ويفهم من كلام المؤرخين أن عدداً كبيراً منها قد انحرف عن الاسلام فى القرن الرابع الهجرى وظهر فيهم متنبؤون ومشعوذون ، كما قصدتهم الخوارج للمنعة فى جبالهم . وفى ذلك يقول ابن خلدون وصاحب كتاب الاستبصار :

وكان غمارة هؤلاء ، عريقين فى الجاهلية بل الجهالة ، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير ، وتنبأ فيهم انسان يعرف بحاميم بن منّ الله ، ولقب بالمفترى – وفى رواية أخرى بالمقتدى – ولعلها هى الأصل ثم حرفت إلى المفترى – والجبل الذى تنبأ فيه ينسب اليه ، وهو جبل حاميم على مقربة من تيطوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته ، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها ، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ووضع لهم قرآناً بلسانهم (أى البربرية) . ومن تعاليمه انه أحل لهم أكل انثى

الخنزير ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء ، وحرم عليهم الحوت حتى يذكى ، وحرم بيض كل طائر .. الخ (١).

ولقد قتل هذا المتنبيء فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، بأحواز طنجة فى حروب له مع قبائل مصمودة الساحل (٢) على حد قول البكرى وابن خلدون، أو فى حروب مع جيوش الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ، على حد قول صاحب الاستبصار وصاحب مفاخر البربر (٣) .

وعلى الرغم من انقضاء أمر هذا المفترى فى القرن الرابع الهجرى ، فانه يبدو أن بقايا بدعه وضلالاته ، قد استمرت فى غمارة حتى مجيء المرابطين فى القرن الخامس الهجرى . فابن خلدون يشير إلى متنبيء آخر ظهر فى غمارة بعد حاميم اسمه عاصم بن جميل البردعوى(٤) . كذلك يفهم من كلام البكرى الذى عاصر تلك الفترة ، أن أحد أولاد حاميم واسمه عيسى ، كان لا يزال مبجلا فى قومه غماره ، وأن الاباحية بين النساء كانت مطلقة وأن رجالهم كانوا يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفاير ، ويطيبونها ويتعممون بها .. الخ (٥) فلو أن هذه البدع كانت قد انتهت قبل مجيء المرابطين لما فات البكرى ان يشير إلى ذلك .

---

(١) انظر (كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ص ١٩٠ نشر الدكتور سعد زغلول (مطبوعات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨)وكذلك، ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢١٦)

(٢) يغلب انها قصر مصمودة أو قصر المجاز أو القصر الصغير الذى بناه زعماء مصمودة بالقرب من طنجة على عهد طارق بن زياد ، وتقابله بلدة طريف Tarifa على الساحل الأندلسى المقابل ، والمسافة بينهما اثنا عشر ميلا .

راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٠ – ٢١١) ، البكرى : المغرب فى وصف افريقية والمغرب ص ١٠١ .

(٣) راجع (كتاب الاستبصار ص ١٩١ – ١٩٢ ، كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٧٧) .

(٤) انظر (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٦) .

(٥) البكرى: نفس المرجع السابق ص ١٠٠ – ١٠٢ .

أما الطائفة الثانية فهي دولة برغواطة :

نشأت هذه الدولة أول الأمر في القرن الثاني للهجرة في اقليم تامسنا(١) أو ما يسمى اليوم بالشاوية (٢) . وهي الأراضي التي تبدأ من مكان مدينة الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها (٣) ، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع . ويروى ابن الخطيب أن هذه الدولة اتخذت في بعض الأوقات مدينة شالة عاصمة لها (٤) وهذه المدينة ، كما هو معروف ، مدينة قديمة مندرسة ، مازالت أطلالها باقية خارج أسوار مدينة الرباط ، وقبالة مدينة سلا التي لا يفصلها عنها سوى وادي أبي الرقراق ولذا عرفت بشالة سلا (٥) .

ولقد اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بانه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد ، بل كان اسماً لاخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودى الأصل ، ادعى النبوة ، اسمه صالح ابن طريف بن شمعون البرباطي ، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس

---

(١) تامسنا : كلمة بربرية ، بلهجة زناتة ، ومعناها البسيط الخالي ، وقد اطلقت على البسيط الممتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء التي يسمى الآن بالشاوية ، وهو الآن تكسوه الزروع والعمارات ، ولكنه بالأمس كان ارضاً من مدرة وطين ترعى فيها الأغنام . وقد سمى أحد أبواب مدينة الرباط بهذا الاسم (باب تامسنا) وهو التي تمتد منه الطريق الذاهبة إلى الدار البيضاء ، وقد هدم اخيراً . ولا زال لفظ تامسنا يطلق في صحراء غدامس بمعنى الأرض القفر والبسيط الخالي . راجع (لارست : لغويات ، مجلة المغرب ، عدد سبتمبر واكتوبر ١٩٣٦ ، السنة الخامسة) .

(٢) لما تلاشت برغواطة ، حل محلها العرب ولاسيما عرب سويد من رياح الهلاليين وذلك في أيام الدولة المرينية ، وسموا بعرب الشاوية نسبة إلى الشاء ، لأنهم كانوا يقومون برعاية أغنام وماشية الدولة المرينية . راجع (أحمد العبدي : آسفي وما اليه ص ٣٥).

(٣) البكرى : نفس المرجع ص ٨٧.

(٤) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ص ١٨٤

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٣٢٢ . راجع كذلك : Henri Basset et Provençal : Chella, une Nécropole Merénide [Paris 1922].

فى ذلك إلى المؤثرات — اليهودية التى توجد فى ديانتها مثل استعمال كلمة ياكش التى يرجعونها إلى يوشع اسم النبى اليهودى ، ومثل تربية الشعور على شكل ضفاير ، على أنها عادة متبعة عند يهود بولونيا واليمن ، ومثل تحريم البيض ، والاعتقاد فى تأثير اللعاب وهى عادة عند يهود طنجة ، ومثل تقديس الديك وهى عادة لا زالت رواسبها باقية فى المناطق التى كانت فيها برغواطة مثل الشاوية ودكالة حيث يحتفل أهل البادية فى بعض مواسمهم بدفن عظام الديك، ومثل الاهتمام بموسى فى تعاليمهم وتقديمه على عيسى ، هذا إلى جانب أن مؤسس هذه الدولة يهودى الأصل من ولد شمعون كما اسلفنا .

ولا شك أن هناك تأثيرات يهودية واضحة فى ديانة برغواطة ، إلا أنه يلاحظ فى الوقت نفسه ، أن التأثيرات الاسلامية أقوى وأوضح بحيث يمكن أن يقال أنها تقاليد مشوهة للاسلام فى أساليب وطابع محلى بربرى .

ويبدو أن النزعات الاستقلالية والقومية التى انتشرت بانتشار مذهب الخوارج فى المغرب ، قد جعلت بعض المتطرفين يتجهون إلى مثل هذا الاتجاه الدينى المستقل عن الاسلام . وقد يدل على ذلك قول الرحالة البغدادى ابن حوقل الذى زار المغرب فى القرن الرابع الهجرى :

«وكان صالح بربرى الأصل ، مغربى المولد ، ضليعاً بلغة البربر ، يفهم غير لسان من ألسنتهم ، فدعاهم إلى الايمان به ، وذكر أنه نبى ورسول مبعوث اليهم بلغة البربر ، واحتج بقوله تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» ، وان محمداً عربى اللسان مبعوث إلى قومه . ثم يضيف ابن حوقل : «وفيهم (أى البرغواطين) من يفهم القرآن ، ويحفظ منه السور إلى الآن ، ويتأول لآياته الموافقة لكتابهم وقراءتهم(١) .

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك (صورة الأرض) ص ٥٦ — ٥٧ ، نشر دى خوية ، طبعة ليدن ١٨٧٣) .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهمنا في هذا الصدد هو أن هؤلاء البرغواطيين كانوا في نظر المسلمين عموماً منحرفين مارقين عن الدين الحنيف ، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم . وتجمع المصادر التاريخية على أن جميع الملوك والحكام الذين تداولوا حكم المغرب قبل مجيء المرابطين ، كالأدارسة والأمويين والفاطميين والزيريين والزناتيين ، قد جاهدوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى إنه ليخيل إلى القارىء أنه قد قضى عليها تماماً ، ولكننا مع ذلك نجد أن برغواطة ظلت باقية مستقلة ، بل كان خطرها يزداد شدة ، وحدودها تزداد اتساعاً على حساب المسلمين المجاورين لها .

ففي كتاب الاتحاف الوجيز لمحمد بن علي الدكالي (١) ، وكتاب آسفي وما اليه لمحمد بن أحمد العبدي (٢) ، نجد ما يفيد من أن الحدود الجنوبية لهذه الدولة قد امتدت جنوب الشاوية على طول سواحل المحيط الأطلسي حتى شملت أقاليم دكالة وعبده وغيرها من الأراضي الحوزية (٣) جنوبي آسفي ونواحي مراكش ، وان هذه الدولة قد ارغمت أهالي تلك البلاد المسلمين على التدين بديانتها ، فسفكت الدماء ، وخربت البلاد والمدن التي بين سلا وماسة .

ويؤيد هذا الكلام أيضاً مارواه ابن الزيات التادلي عن رباط شاكر ، القائم حتى الآن بالقرب من مدينة مراكش في طريق الشماعية إلى شيشاوه ويسميه الأهالي هناك سيدي شيكر ، فيقول :

---

(١) محمد بن علي الدكالي السلاوي (توفي ١٩٤٥م) : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D. 1320

(٢) محمد بن أحمد العبدي الكانوني : آسفي وما اليه ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) بلاد الحوز هي المناطق الخصبة التي تحد بوادي أم الربيع ودكالة وعبده والأطلس، ويشقها نهر تانسيفت والأودية المتفرعة منه . وقد قسم الجغرافيون بلاد الحوز إلى حوز غربي وأوسط وشرقي . ومن مواسم الحوز القديمة ، اغمات ونفيس ، اللتان اندرستا بعد بناء وازدهار مدينة مراكش (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) .

«ومنها سفرهم فى كل رمضان إلى رباط شاكر الذى ذكر أنه من أصحاب عقبة بن نافع الفهرى ، وأنه مات هناك ، وأن يعلى بن مصلين الراجراجى هو الذى بناه ، وكان يقاتل كفار برغواطة ، وغزاهم عدة مرات ، وأن طبله (وفى قراءة أخرى طبله) هو الباقى الآن (١) .

وهذا النص يبين أن رباط شاكر كان مركزاً حربياً لجهاد برغواطة التى امتدت حدودها جنوباً إلى نواحى مراكش . وما يقال عن رباط شاكر يقال أيضاً عن رباطات ماسه وفوز ونفيس التى انتشرت — كما يقول البكرى — على سواحل هذه المنطقة الجنوبية (٢) . . كذلك يذكر الرحالة ابن حوقل أن أمير سجلماسة (تافيلالت الحالية) محمد بن الفتح بن مدرار الذى رفض مذهب الخوارج وتلقب بالشاكر لله ، قد أخذ يدعو قومه إلى جهاد برغواطة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، إلا أنه لم يصل إلى غرضه لأن الفاطميين أسروه ثم قتلوه عندما استولوا على سجلماسة بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٤هـ(٣)

هذا إلى جانب ما ذكره صاحب كتاب مشاهير اعيان فاس من أن البرغواطيين فى أوائل القرن الخامس الهجرى كانوا يعيثون فساداً فى بلاد السوس وسجلماسة وان الملثمين اللمتونيين خاضوا معهم فى تلك الأماكن معركة فاصلة حموا على أثرها بالمرابطين (٤)

كل هذا يبين لنا مدى تغلغل الخطر البرغواطى فى هذه النواحى المغربية الجنوبية . أما عن الحدود الشمالية لهذه الدولة ، فالمعروف فى كتب التاريخ ،

---

(١) انظر (أبو يعقوب يوسف التادلى المعروف بابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٦ ، نشر ادولف فور ، الرباط ١٩٥٨) ، وراجع كذلك (عبد الحى الكتانى : اشرف بقعة وأقدس — بناحية مراكش ، مجلة المغرب ، السنة الخامسة ، يونيو — يوليو ١٩٣٦).

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٤٧ — ٤٨ ، راجع كذلك (البكرى ص ١٥١ ، ابن خلدون العبر جـ ٦ ص ١٢٢) .

(٤) راجع (مجلة البحث العلمى ، العدد الثالث ، سبتمبر — ديسمبر ١٩٦٤ ص ٤٠) .

أنها كانت تصل إلى قرب موضع مدينة الرباط ، العاصمة الحالية للمملكة المغربية .

وواضح من اسم هذه المدينة وتاريخها أنها كانت في الأصل رباطاً لجهاد برغواطة وفي ذلك يقول ابن حوقل في القرن الرابع الهجري :

«ومن وراء وادي سبو (١) إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد (٢) وادي سلا (٣) ، اليه تنتهي سكنى المسلمين ، وهي رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعني شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط بحفـ(٤) بها ، وربما اجتمع في هذا المكان

(١) وادي سبو Sbou من أعظم الأودية بالمغرب ، ينبع من جبل أطلس المتوسط وتتفرع منه عدة أودية تسقى نواحي فاس ومكناس ومنطقة الغرب ، ويصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة المهدية الحالية بعد مروره بالقنيطرة ، وطوله حوالي ٦٠٠ كيلو متر ، وتعاني البلاد من كثرة فيضاناته .

(٢) هي المسافة التي كان يقطعها عامل البريد ، وقد قدرها الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أي أن البريد هو مسافة اثني عشر ميلا تقريباً .

(٣) المراد بوادي سلا هنا هو الوادي الصغير الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط ، وهو المعروف الآن بوادي أبي الرقراق (بورجرج) ويصب في المحيط الأطلسي . وأبو الرقراق تسمية حديثة ذكرها الحسن الوزان (ليون الافريقي) في القرن السادس عشر الميلادي في كتابه المعروف بوصف افريقيا التي كتبه بالايطالية ثم ترجم إلى معظم اللغات ما عدا العربية للأسف . أما الجغرافيون والمؤرخون القدماء فقد أطلقوا على هذا الوادي عدة أسماء مثل وادي الرمان ووادي الغبط ووادي أسير ووادي سلا راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٨٥ حاشية ١ ، ٢) .

(٤) يفهم من هذا النص انه كان يوجد في هذه المنطقة ، رباطان متجاوران يفصل بينهما وادي سلا أو أبو الرقراق الحالي ، أحدهما كان في مدينة سلا الحالية ، والثاني كان في مواجهتها في مكان مدينة الرباط الحالية بجوار أطلال شالة . ومن المعروف أن الموحدين هم الذين حولوا هذا الرباط الأخير إلى مدينة عامرة أسموها رباط الفتح ، إذ كانت جيوشهم تتجمع فيها لتجهيزها وتموينها قبل أن تتجه إلى أسبانيا برسم الجهاد والفتح . حول تاريخ هذه المدينة التي أصبحت عاصمة المملكة المغربية راجع : أبو عبد الله بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٢٤هـ) راجع كذلك : (J. Caillé : La Ville de Rabat, 3 tomes (Paris 1945). وأيضاً (محمد بن علي الدكالي السلاوي : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D. 1320).

من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطة ، وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي شغّت(١) عمارة بلد الاسلام اليها (٢) .

على أن تحديد ابن حوقل لموضع مدينة الرباط ، كحد فاصل تنتهي عنده عمارة الاسلام ، لم يحل دون تغلغل نفوذ البرغواطيين وراءه نحو الشمال.

فابن الخطيب يشير إلى أن البرغواطيين اتخذوا من شالة عاصمة لهم في بعض الأوقات (٣) كذلك نجد في كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، للمولى عبد الرحمن ابن زيدان ، مايفيد بأن أمراء برغواطة قد امتد نفوذهم إلى شمال الرباط وانهم استولوا على مدينة المعمورة (٤) (المهدية الحالية) من ايدى بني يفران الزناتيين حكام سلا ، وأنهم خربوها فيما خربوه من المدن (٥) .

أكثر من ذلك ، إذا نحن صعدنا شمالا إلى منطقة سبتة وطنجة ، نجد أن هذه البلاد كان يحكمها بعض مماليك الحموديين ، الذين كانوا في الأصل من سبي برغواطة ثم ولاهم الحموديون بعض أعمالهم في سبتة ، فانتهز أحدهم واسمه سقوت أوسواجات البرغواطي ، فرصة ضعف الحموديين ، واستبد بحكم سبتة ، وعين ولده الحاجب ضياء الدولة على طنجة ، وطرد الحموديين من هذه المنطقة ، ولم تلبث قبائل غمارة أن دانت له بالطاعة (٦) .

---

(١) شغت بمعنى قلت أو خفت أو انتهت .

(٢) راجع (ابن حوقل : صورة الأرض ج ٢ ص ٥٦ (نشر دى غوية ، ليدن ١٨٧٣)

(٣) ابن الخطيب أعمال الأعلام : القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

(٤) مدينة المهدية الحالية بالمغرب الأقصى كانت تعرف قديما بحلق الوادى (سبو) أو المعمورة ثم سميت بالمهدية أيام المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢ هـ (١٦١٨م) عندما ضيق الحصار على الجيش الاسباني المرابط فيها ، فخرج اليه قائد الجيش مستسلما وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها المهدية . والمدينة تقع على ساحل المحيط عند مصب وادى سبو بالقرب من القنيطرة .

(٥) راجع (عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج ٢ ص ٧٢ ، الرباط ١٩٢٠)

(٦) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٢٢١) .

ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت ثمة علاقة بين هذه الامارة البرغواطية الشمالية وبين دولة برغواطة التي كانت في جنوبها ؟

النصوص القليلة التي لدينا في هذا الصدد تربط بين هاتين الدولتين وتؤكد وجود اتصال بينهما ومثال ذلك قول صاحب كتاب مفاخر البربر .

«وكان ظهور برغواطة في سنة ١٢٥ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك، ولم يزل الملك فيهم إلى أول ظهور الملثمين وخروجهم من الصحراء وآخر ملوك برغواطة هو الحاجب البرغواطي ضياء الدولة صاحب سبتة وطنجة » (١)

كذلك يقول ابن خلدون حين يصف شعوب تلك المنطقة :

«ويعضد ذلك اتصال مواطن عمارة عواطن برغواطة من شعوب المصامدة على ساحل البحر الغربي وهو المحيط» (٢)

كل هذا يفهم منه أنه كان هناك استمرار أو اتصال سياسي بين الدولتين وان كنا نشك في أن يكون سقوت البرغواطي وزملاؤه قد اتبعوا ديانة برغواطه المارقه بحكم اتصالهم بالحموديين الأشراف الأدارسة منذ صغرهم ، وقد يؤيد ذلك ما رواه ابن عذارى من أن سقوط البرغواطي ، طلب من ابي الوليد بن جهور امير قرطبة قارئا للقرآن . فعلق ابن جهور على هذا الطلب بقوله : "جاهل يطلب قارئا " ثم وجه اليه قارئا من طلبة قرطبة اسمه عون الله بن نوح (٣) . فهذه العبارة وإن كان فيها شئ من الاحتقار بشخصية سقوت إلا إنها لاتنكر كونه مسلما .

ولكن على الرغم من ذلك فان معظم المؤرخين قد أجمعوا على أن سقوت البرغوطي كان رجلا مفسداً على غرار أسلافه البرغواطيين ، وأن أساطيله قد عاثت فساداً في مضيق جبل طارق ، وأضرت بمصالح المسلمين في منطقة العدوتين ، ومثال ذلك قول بن بسام : " ... من رجل امتحان بالشر ،

---

(١) كتاب مفاخر البربر ، نشر ليفي بروفنسال ص ٤٧ .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٦ ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣/ ص ٢٥٠ ، نشر بروفنسال (باريس ١٩٣٠) .

وتهاون بالأمر ، لاسيما فى البحر ، فإنه أضرم بلججه ناراً ولقى ربه إعصاراً أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف إلى كل رعباً ، فضجت منه الأرض والسماء ، والتقت الشكوى عليه والدعاء ... إلى أن أذن الله لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين .... الخ (١) .

مما تقدم نرى أن المغرب فى هذه الفترة التى سبقت مجئ المرابطين ، كان يعانى محنة كبيرة من جراء هذه الدولة البرغواطية التى يبدو أن خطرها كان أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ ، خصوصا بعد أن تبين لنا اتصالها وتعاونها مع قبائل غمارة فى جبال الريف .

الطائفة الثالثة وهى للدول الزناتية :

ونعنى بذلك قبائل مكناسة ومغراوة وبنى يفران وغيرها من القبائل الزناتية التى تداولت حكم المغرب قبل مجئ المرابطين . وهذه الدول الزناتية ، كانت فى نظر المؤرخين ، ولاسيما بعد زوال نفوذ الأدارسة ، هى القوة الشرعية الحاكمة فى المغرب على اعتبار انها كانت سنية مسلمة .

وعلى الرغم من المنازعات والمنافسات الداخلية التى قامت بين هذه القبائل الزناتية فانها قامت بدور ايجابى فعال فى جهاد برغواطة ، ونلاحظ ذلك بوضوح من المواضع أو المراكز التى استقرت فيها هذه الإمارات الزناتية ، إذ نجد أنها كانت تكون نطاقاً أو تضرب حصاراً حول هذه التكتلات السابقة ولاسيما برغواطة . ومن أهم تلك المراكز الزناتية نذكر :

إمارة سلا وكان يحكمها بنو يفران ، وفاس ويحكمها مغراوة ، وتادلا ويحكمها بنو يفران واغمات ويحكمها مغراوة ، ثم سجلماسة فى أقصى الجنوب ويحكمها بنو خزرون المغراويون. وكانت إمارة سلا فى أيام أميرها ابى الكمال تميم اليفرانى — فى أوائل القرن الخامس الهجرى — من أشد الامارات وطأة على برغواطة . يروى صاحب القرطاس والسلاوى الناصرى فى هذا

---

(١) نقل هذا النص ، صاحب مفاخر البربر ص ٥٥ — ٥٦ .

هذا الصدد : " وكان أبو الكمال تميم اليفرانى ، مستقيما فى دينه ، مولعاً بجهاد برغواطة ، كان يغزوهم مرتين فى السنة إلى أن توفى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وفى سنة اثنين وستين وأربعمائة ، قتل ابنه فى حرب لمتونة ، فجاءوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه تميم ، فسمعوا من قبره تكبيراً وتشهدا كثيرا ؛ فنبشوا قبره ، فألفوه لم يتغير منه شئ ، ثم رآه بعض قرابته فى النوم ، فقال له : ماهذا التكبير والتشهد الذى سمعناه من قبرك قال : تلك الملائكة ، وكلهم الله بقبرى ، يكبرون ويهللون ويسبحون ، ويكون ثواب ذلك لى إلى يوم القيامة . قال وبم نلت ذلك ؟ قال بجهادى برغواطة (١) . هذه الرواية وان كانت تتسم بطابع قصصى ، الا أنها تبين أن حرب برغواطة كانت فى نظر المسلمين واجباً دينياً وجهاداً فى سبيل الله .

وعلى الرغم من تلك الجهود الطيبة التى قامت بها بعض هذه الدويلات فى جهاد برغواطة ، إلا أنها كانت عاجزة تماما فى القضاء عليها ، وصار الأمر يتطلب قوة أخرى جديدة تحل محلها فى هذا الميدان الذى أخفقت فيه .

الطائفة الرابعة من روافض الشيعة والوثنيين :

هذه الطائفة عبارة عن أقليات مبعثرة من روافض الشيعة والوثنيين الذين استقلوا بحكم بعض النواحى فى أقصى جنوب المغرب فى بلاد السوس .

اما الشيعة ، فقد انتشروا بصفة خاصة فى مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا يعرفون باسم البجليين (٢) . وقد أختلفت الآراء حول مذهبهم وتاريخ تشيعهم : فصاحب القرطاس ومن نقل عنه مثل السلاوى الناصرى ، يرون أن هؤلاء الشيعة كانوا اسماعيلية وانهم ينتسبون إلى على بن عبد الله

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ/١ ص ٢٢١

(٢) قال القلقشندى فى كتابه نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب ص١٧١ : وبنو بجلة بفتح الباء والجيم وسكون الجيم بينهما ، بطن من بجلة (بضم الباء) العدنانية . وبجلة أمهم نسبوا اليها وهى بجلة بنت هناءة بن مالك بن فهم الازدى . والنسبة اليهم بالتسكين .

البجلي الرافضي الذي نزل بلاد السوس أيام حركة الخليفة عبيد الله المهدى بافريقية ، وهناك في بلاد السوس نشر مذهب الرافضة وتوارثوه عنه جيلا بعد جيل (١) . أما ابن حوقل وكذلك الادريسى ، فيذكران أن هؤلاء الشيعة كانوا موسوية أى أثنا عشرية يقولون بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ولا يعترفون بامامة أخيه اسماعيل امام الاسماعيلية . ويضيف ابن حوقل أن هؤلاء الشيعة كانوا ينتسبون إلى رجل يدعى محمد بن ورصند البجلي ، وأنهم كانوا على عداء مع جيرانهم المالكية في السوس ، وان القتال والثأر متصل بينهم ليلا ونهاراً ، وأنه كان لهم مسجد واحد يصلى فيه الفريقان فرادى ، فاذا صلى هؤلاء أتوا هؤلاء وهكذا ، ثم يصف ابن حوقل طباع هؤلاء القوم سواء أكانوا مالكية أو موسوية فيرميهم بالجهل والجفاء وغلظ الطبع .. الخ (٢) .

أما البكرى وابن حزم ، فروايتهما تناقض هذه الروايات السابقة من حيث المذهب . فيقولان بأن هذه الطائفة كانت تنسب إلى رجل من أهل نفطة من أعمال قفصة جنوبي تونس ، يسمى الحسن بن على بن ورصند البجلي ، وأن هذا الرجل رحل إلى بلاد السوس قبل وصول ابى عبد الله الشيعى الداعى إلى افريقية وان مذهبه كان شبيهاً بمذهب الروافض ، إلا أنه كان يقول بان الامامة لا تكون الا في سلالة الحسن بن على بن أبى طالب وليس الحسين كما تقول الاسماعيلية والاثنا عشرية ولهذا كانت أمامة البجليين في سلالة الأدارسة . وقد رماهم ابن حزم بالكفر والالحاد (٣) أما الرحالة المقدسى ، فانه انفرد برواية خاصة سمى فيها هذه الطائفة بالادريسية

(١) ابن ابى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ٢١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٦ — ٦٦ الادريسى : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) نشرهنرى بيريس ص ٣٩ الجزائر سنة ١٩٥٧) .

(٣) البكرى : المغرب في وصف افريقية والمغرب ص ١٦١ ، نشر دى سلان (الجزائر ١٩١١) ابن حزم : كتاب الملل والنحل جـ ٤ ص ١٨٣ .

وقال إن مذاهبهم كانت قريبة من مذهب القرامطة ، ثم ربط بين المعتزلة والشيعة وقال بأنهم جميعاً يقولون بمذهب الاجتماعية (١) .

ومهما يكن من شئ ، فإن اختلاف المؤرخين حول تحديد مذهب هذه الطائفة ، لم يحل دون اتفاقهم جميعا على أن هؤلاء البجليين كانوا من روافض الشيعة وأنهم كانوا أعداء الداء للمذهب السني في المغرب .

اما من جهة العناصر الوثنية التي كانت أيضا تقيم في تلك الجهات الجنوبية ، فرجعنا فيها هو كتاب البكري الذي أشار إلى قبيلة مجاورة للبجليين ، كانت تقيم في جبل وعر بنواحي الأطلس الكبير ، وكان أفرادها يعبدون الكبش ، ويتسترون عند دخول الأسواق (٢) . ومن المعروف أن الكبش كان الها في مصر الفرعونية ويسمى بالاله خنوم ، فهل هذه العبادة كانت من رواسب مؤثرات مصرية قديمة ؟

من هذا العرض العام لهذه الدويلات الطائفية ، يتبين لنا أن المغرب في ذلك العهد ، كان يعاني محنة دينية وسياسية خطيرة ، وأنه كان في حاجة إلى معجزة تنقذه من هذا الموقف العصيب ، وهنا يأتي دور المرابطين . ولا شك أن المرابطين كانوا على علم تام بخطورة الحالة في المغرب ولاسيما بخطورة برغواطة ، أقوى دولة طائفية في المغرب في ذلك الوقت . وقد سبق أن أشرنا إلى أن شيخ المالكية بالقيروان أباعمران الفاسي ، حينما رسم خطة قيام دولة الملثمين مع زعيمهم يحي بن ابراهيم الجدالي أوصاه بحرب برغواطة بصفة خاصة . وقد يؤيد ذلك أيضا أن الفقية الذي أختير لمهمة هداية الملثمين وتوحيد

---

(١) راجع (المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٨ (نشر دي خوية ١٨٧٧) هذا وقد أشار اليعقوبي والبكري والادريسي إلى أن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال وأن عبد الله والد المولى ادريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة ، وان قبيلة أوربه التي ساندت المولى ادريس كانت تدين بالاعتزال راجع مقالنا (الموحدون والوحدة الاسلامية في مجلة التربية الوطنية المغربية ، العددان ١ ، ٢ ، مارس ، إبريل ١٩٦٢) .

(٢) البكري ص ١٦١ .

صفوفهم وهو عبد الله بن ياسين ، كان على علم تام بأحوال برغواطة قبل دخوله الصحراء ، وقد وصف ابن عذارى رحلة هذا الفقية فى بلاد المغرب وصفا مدعما بالأرقام ، وأغلب الظن أنها كانت رحلة استطلاعية تتعلق بالمهمة التى وكلت اليه ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : "ثم نزل عبد الله ابن ياسين بلاد المغرب الأقصى قريبا سنا ، فوجد فيها أنما لا تحصى ، أكثرهم تحت امراء البرغواطة وكان عسكر امراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنضاف اليهم من سائر القبائل مابين فارس وراجل ، أزيد من عشرين الفا من جراوه وزغاره ومطغره والبرانس وركونه وغيرها"(١)

كذلك يشير صاحب القرطاس إلى اهتمام المرابطين بأمر برغواطة بقوله : فلما علم عبد الله بن ياسين حال برغواطة وما هم عليه من الضلال ، رأى أن الواجب الديني يقتضي تقديم جهادهم على غيرهم"(٢) .

وفى هذا المعنى يقول لسان الدين بن الخطيب :

"وظهر أمر اللمتونيين ، ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين ، فجعلوا من برغواطة جهاداً تربا"(٣) .

ثم يأتى صاحب كتاب الاستبصار فيقولها كلمة صريحة :

"وكان خروج هذه القبائل الصحراوية لقتال برغواطة المرتدين عن ديانة الأسلام"(٤) .

وواضح من كل ماتقدم من نصوص أن المرابطين كانوا أصحاب رسالة سامية وأن خروجهم من الصحراء كان مرسوما وفق خطة موضوعة تقوم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب أو البيان المرابطى : وهى قطعة خاصة بتاريخ المرابطين نشرها المستشرق الأسبانى أوريثى ميراندا فى مجلة (Hésperis Vol 11, 1961, p. 48)

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس حـ ٢ ص ٢٧ .

(٣) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ص ١٨٦

(٤) كتاب الاستبصار ، نشر سعد زغلول ص ٢٠ .

على القضاء على أهل الزيغ والضلالة من البرغواطين وغيرهم . كذلك كان للمرابطين الى جانب هذاسياسة اصلاحية لم تلبث أن ظهرت نتائجها واستقرت أوضاعها فى المغرب منذ بداية دولتهم إلى يومنا هذا ، وهذه السياسة تقوم على عدم السماح بتعدد المذاهب الدينية التى انتشرت بشكل ملحوظ فى المغرب كالخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والمالكية ، مما جعل البلاد عرضة للفتن والخلافات المذهبية . ولما كان المغرب كالاندلس ، يعتبر ثغرا للاسلام فى أقصى الغرب ، فقد حرص المرابطون على الاكتفاء بسياسة المذهب الواحد وهو المذهب المالكى الذى قامت عليه دولتهم ، فتمسكوا به واتخذوه أساساً فى كل مايرجعون اليه من أمور دينية ودنيوية. وكان الأندلس قد سبق المغرب فى هذا المضمار منذ أيام هشام بن عبد الرحمن الأموى فى القرن الهجرى الثانى ، إذ يروى المقدسى فى هذا الصدد أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوماً بين يدى السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة فقال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة ، قال عالم دار الهجرة يكفينا ، فأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لاأحب أن يكون فى عملى مذهبان" (١). ولا شك أن هذه السياسة قد حفظت لهذه الثغور الاسلامية سلامتها ووحدتها الروحية فكانت لذلك درعا حامياللاسلام فى أقصى الغرب .

ومن الطريف أن الممالك المسيحية التى كانت متاخمة للمسلمين فى هذه المنطقة وأعنى بذلك اسبانيا ، قد اتبعت هى الأخرى سياسة المذهب الدينى الواحد باعتبارها هى الأخرى ثغرا للمسيحية فى هذه المنطقة ، فاقتصرت على المذهب الكاثوليكى وتعصبت له حتى ضرب بها المثل فقيل إنها أكثر تعصباً للبابوية أى للكاثوليكية من البابا نفسه "Mas Papista que el Papa" .

وهذه العبارة تذكرنا بموقف أهل الأندلس من المذهب المالكى عند قول المقدسى على لسانهم "وهم يقولون ولا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك(٢) .

---

(١) راجع Al Muqaddasi : Description de L'occident musulmane au IV=X siecle , texte arabe et traduction française Par Charles Pellat. P. 44 (Alger 1950)

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٠

غزو المرابطين للمغرب :

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني عبد الله بن ياسين، وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر اللمتوني . فاتجهوا أولا إلى بلاد السوس واستولوا على قاعدتها تارودانت ، وقضوا على الشيعة والوثنيين كما قاتلوا اليهود المنتشرين فى تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة (١) .

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى بلاد الحوز واستولوا على عاصمتها أغمات ، وقد ترتب على هذا الفتح أن قتل أمير أغمات لقوت المغراوى ، وتزوج الامير أبوبكر بن عمر ارملته زينب النفزاوية التى أشادالمؤرخون بجمالها وذكائها.

ونظراً لأهمية أغمات كمدينة متحضرة من جهة ، ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقته لهم إلى أن تم بناء عاصمتهم الجديدة مراكش التى أسسها اميرهم أبو بكر بن عمر سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠) (٢) .

وتحركات المرابطين بعدا استيلائهم على اغمات ، نجدها تتجه نحو هذه التكتلات الرئيسية المارقة : برغواطة وغمارة . اتجه عبد الله بن ياسين وأبوبكر بن عمر اللمتونى نحو برغواطة ، بينما اتجه القائد يوسف بن تاشفين بعد ذلك نحو غمارة . ويبدو من تحركات جيوش المرابطين ، أن العمليات العسكرية الرئيسية التى قاموا بها قد دارت فى الشمال بصفة خاصة . فبالقرب من مدينة الرباط الحالية فى منطقة زعير دارت معركة عنيفة بين المرابطين والبرغواطيين ، استشهد فيها زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين (٣) سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . مات هذا الزعيم على الرغم من نصائحه ومبادئه التى

---

(١) روض القرطاس جـ ٢ .ص ٢١ — ٢٤

(٢) راجع مقالنا حول أهمية كتاب الحلل الموشية فى مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠)

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣٠

كان يرددها دائماً من أن حياة الجيش تتوقف على حياة قائدة ، إذ يروى أنه غضب يوما على الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، وضربه بالسوط على رجله لأنه عرض حياته للخطر أثناء القتال وقال له : " أن الأمير لايدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة جنده ، وهلاكه هو هلاكهم " (١) ولكن تشاء الأقدار أن يقع هو نفسه فى هذا المحظور . ودفن عبد الله بن ياسين على ربوة قريبة من الرباط تطل على وادى كريفلة أحد فروع وادى أبى الرقراق ، ولا يزال قبره هناك فى هذا المكان ويسميه أهالى تلك الناحية سيدى عبد الله مول الغارة (٢) .

وتولى الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى زعامة المرابطين الروحية والعسكرية ، وأخذ يعمل على توحيد صفوفه من جديد بعد تلك الكارثة التى حلت بجيوشة من جراء وفاة زعيمهم الروحى عبد الله بن ياسين ، فيروى ابن الأثير أن أبا بكر بن عمر صلى بجنوده ، ثم دعا ربه بدعاء سمعه معظم جيشه : " اللهم أن كنا على حق فانصرنا ، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا" ثم اندفع بجنوده نحو برغواطة فاستأصل شأفتهم وعادعوتهم وأسلم الباقون منهم إسلاماً جديداً (٣) .

أما الحملة التى قام بها يوسف بن تاشفين فى بلاد غمارة ، فأنها اتخذت نفس الهدف والاتجاه ، إذ يفهم من كلام المؤرخين أن يوسف بن تاشفين قد تحاشى الاصطدام بالقوات الزناتية ، وأنه دخل فاس صلحا سنة ٤٥٠ هـ وترك فيها حامية صغيرة ثم تقدم صوب الشمال إلى بلاد غمارة ، ففتح جبالها وبلادها من الريف إلى طنجة واستعان فى مهاجمتها بحصون وقلاع أسسها فى مواجهتها مثل حصن تاودا أو بنى توده وحصن Amergo أمرجو ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الخاص بالمرابطين فى (Hespéris, Vol. II, 1961)
(٢) راجع (Jacques Caillé : La Ville de Rabat, tome I p. 43)
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٥٩ ويفهم من روايات بعض المؤرخين ان القضاء النهائى على برغواطه لم يتم الا فى عهد الموحدين على يد خليفتهم الأول عبد المؤمن بن على الكومى راجع (ابن ابى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ١٤٢ — ١٤٥).

وقد أشاد المؤرخون بمناعة تلك الحصون وبالدور الهام الذى قامت به فى فتح هذه البلاد وتطهيرها من الفساد المنتشر فيها ، ومثال ذلك قول صاحب كتاب الاستبصار :

"وكانت تاودا مدينة كبيرة ، أسسها الملثمون ليتملكوا منها جبل غمارة ، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر وكانت فى أيامهم معمورة بالمبانى الحسان والقصور المنيعة ، وهى على وادى ورغه ، وعليها جبل منيف ، فيه حصن كبير من بناء الملثمين يسمى أمرجو ، وهو مبنى بالحجارة والجير ، لايقدر أحد على هدم شئ منه إلا بالمشقة" (١) .

وما زالت اطلال مدينة تودا باقية إلى اليوم شمالى فاس بنحو تسعين كيلو مترا فى طريق وزان وتعرف الآن بقلعة فاس البالى (٢) .

ومن الطريف أنه توجد فى مصر الآن أسرة معروفة باسم التودى ، فلعلها تنتسب فى الأصل إلى هذه المدينة المغربية المجاهدة .

وبينما كان يوسف بن تاشفين يحارب غمارة فى الشمال ، إذا بالزناتيين فى فاس يتكتلون ضده ويقتلون حاميته ويستولون على المدينة ، فاضطر يوسف أن يعود ادراجه وان يقاتل الزناتيين وينتصر عليهم ثم يدخل فاس للمرة الثانية سنة ٤٦٢ هـ (٣).

ولقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يوسف بن تاشفين قد أخطأ خطأ حربياً جسيماً باندفاعه نحو غمارة أولا ، وتركه للزناتيين يتكتلون وراءه

(١) كتاب الاستبصار ص ١٩٠ .

(٢) هدمت تودا فى أوائل أيام الموحدين ، ثم عادت فعمرت من جديد إلى أن هدمها أول ملوك السعديين أبو عبد الله القائم بأمر الله فى أوائل القرن السادس عشر ، ومازالت انقاضها تحتل مساحة كبيرة . ومن اطلالها جدار ارتفاعها ٣ إلى ٥ متر وحمام مربع الشكل مقسم إلى ثلاث غرف . راجع (الصديق بن العربى : كتاب المغرب ص ١١٩ ، عبد العزيز ابن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ٢/ ص ٥٤) كذلك (Le guide Blue : Maroc. p. 395)

(٣) السلاوى الناصرى : كتاب الاستقصا جـ ٢ ص ٢٧

ويتقاون حاميته في فاس ، واتجهوا إلى أمام يوسف بن تاشفين بالطمع والاندفاع (١) . والواقع اننا بعد أن بينا أهداف المرابطين التي قامت على تقديم جهاد المارقين قبل أي جهاد آخر ، ندرك لماذا بادر المرابطون إلى قتال برغواطة وغمارة قبل الزناتيين فخطة الغزو المرابطي نراها واضحة وسليمة ومدبرة تدبيراً محكماً .

مما تقدم نرى أن المرابطين قد نجحوا إلى حد كبير في تحقيق رسالتهم ، ولعل أبسط دليل على ذلك هو أن تلك المناطق التي كانت موطناً للمتنبئين وذوى العقائد الضعيفة ، قد أصبحت في القرنين السادس والسابع أى في عهد المرابطين ثم الموحدين بعدهم ، من أشد المناطق تديناً ، بل واغراقاً في الزهد والتصوف :

ففي جبال غمارة ، ظهر عدد كبير من الصلحاء والمتصوفة الذين أفرد لهم عبد الحق البادسي كتاباً خاصاً تحت عنوان : "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف" (٢) . وحسبي ان أشير إلى بعض أقطابهم أمثال عبد السلام بن مشيش وتلميذه أبي الحسن الشاذلي (٣) . كذلك يلاحظ أن عادة تربية الشعور بين رجال غمارة التي وصفها البكري في أوائل القرن الخامس الهجري ، قد اختفت بعد ذلك فحلق الناس رؤوسهم ، وورث ذلك الأبناء عن الآباء — وقد لاحظ هذا التغير صاحب كتاب الاستبصار في القرن السادس الهجري وعلل ذلك بانه نتيجة لتغلغل الاسلام(٤) في بلادهم. أما المنطقة الغربية والجنوبية التي كانت مهداً للبرغواطيين فقد تحولت هي

---

(١) راجع على سبيل المثال (دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٠٢) .

(٢) هذا الكتاب ألفه عبد الحق البادسي سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وقد ترجمه إلى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي g. s. Colin كولان في Archives Marocaines XXVI, paris 1926)

(٣) هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الجبار الشاذلي (٥٩٣ — ٦٥٦هـ = ١١٩٧ — ١٢٥٨ م) راجع ما كتبه عنه الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ١٦١ (القاهرة ١٩٦٥) .

(٤) كتاب الاستبصار ص ١٩٣ .

الأخرى إلى مسرح خصب لحركة صوفية شعبية قوية . ويكفى أن نشير إلى سلسلة الرباطات التى انتشرت على طول الساحل الغربى فى آنفا وأزمور وآسفى وتيط وغيرها . هذا إلى جانب الصلحاء والمريدين والمتصوفة الذين ظهروا بكثرة فى هذه المنطقة على عهد المرابطين والموحدين وقد أفرد لهم ابن الزيات التادلى كتاباً خاصاً تحت عنوان : «التشوف إلى رجال التصوف»(١).

هذا ويلاحظ أن هذه الحركة الصوفية كانت فى ذلك الوقت سليمة وبعيدة عن الشوائب والبدع ، لأن المشرفين على حكم المغرب فى ذلك الوقت كانوا متشبعين بالروح الصوفية السليمة ، فلم يسمحوا لظهور أى بدعة فى بلادهم . وقد عبر عن هذه الحالة ، الامام الزاهد أبو بكر الطرطوشى نزيل الاسكندرية ، عندما بعث برسالة إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين يذكره فيها بالحديث النبوى الشريف :

«لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» ثم يضيف معقبا : والله أعلم ، هل أرادكم بذلك رسول الله (صلعم) ، أو أراد أهل المغرب لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع »(١) .

جهاد المرابطين فى السودان الغربى :

لم تقتصر مآثر المرابطين على جهاد المارقين فى بلاد المغرب شمالا ، بل امتدت إلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان جنوباً ، وكان لها من النتائج الهامة مثل ما كان لجهادهم فى الشمال .

وكان يحكم بلاد السودان الغربى فى ذلك الوقت ، مملكة غانا التى تعتبر أقدم دولة فى غرب افريقيا شمالى نطاق الغابات . وقد رجع المؤرخون

(١) هذا الكتاب ألفه ابن الزيات فى القرن السابع الهجرى ، وقد تحاشى ذكر الأحياء من معاصريه . وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسى أدولف فور فى الرباط سنة ١٩٥٨ م .

(٢) راجع : عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٥ ، عبد العزيز ابن عبد الله : الفكر الصوفى بالمغرب ، مجلة البينة ، (الاعداد : ٤ ، ٦ ، ٧ سنة ١٩٦٢).

أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وانها كانت تسمى بامبراطورية باغور ، ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم غانا وهو اللقب الذى كان يحمله ملوكها ، ثم توسعوا فى استعماله حتى صار يشمل اسم الدولة والعاصمة معاً . ولقد اندرست مدينة غانا العاصمة واندرست معالمها ، الا أن الحفريات التى قام بها العلماء ، قد كشفت عن مدائن تمتد عدة كيلو مترات قرب مدينة النعمة فى منطقة الحوض من موريطانيا على مسافة ثلاثمائة كيلو متر من باماكو ، وهى تشهد بحضارة دولة غانا ورقيها (١) .

وكان ملوك هذه الدولة وعامة شعبها يدينون بالوثنية ، إلا أنه كانت توجد بينهم أيضاً أقلية إسلامية لها مساجدها وتتمتع بحرية تامة فى مزاولة شعائرها الدينية . وقد أعطانا المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب أمثال ابن حوقل والبكرى ، صورة واضحة عن مدى ما بلغته هذه الدولة من حضارة ورقى .

ويبدو أن هذه الدولة قد بلغت أوج عزها وعظمتها فيما بين القرن الثالث وأوائل الخامس الهجرى ، وأن نفوذها قد امتد إلى تمبكتو شرقاً وبلاد التكرور أو السنغال غرباً ، وينابيع النيجر جنوباً ، وأغلب الصحراء الغربية (موريطانيا) شمالا .

ولم تكن العلاقة طيبة بين مملكة غانا وبين جيرانها الملثمين فى الشمال . فقد كثرت المنازعات بينهما ، وحاول كل منهما أن يعتدى على أرض الآخر . وكثيراً ما استغلت غانا تفرق شمل هذه القبائل الصنهاجية ، كى تبسط سيطرتها على هذه المنطقة . على أن هذا الوضع السياسى لم يلبث أن تغير تماماً بعد هذه الانتفاضة الدينية التى وحدت شمل هذه القبائل ، وجعلت

(١) راجع ما كتبه الأستاذ قاسم الزهيرى حول الممالك الاسلامية القديمة فى أفريقيا السوداء فى مجلة دعوة الحق (الأعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ سنة ١٩٦٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرق القارة الافريقية وغربها ص ٥٤-٥٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

منها قوة تخشى بأسها على مملكة غانا نفسها ، والأحداث التاريخية التى تلت ذلك تدل على أن نهاية مملكة غانا كانت فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وعلى يد هؤلاء الملثمين الصنهاجيين أو بتعبير أصح المرابطين . وتفصيل ذلك أن الأمير أبا بكر عمر اللمتونى بعد أن وطد نفوذ المرابطين فى المغرب ، وبنى لهم مدينة مراكش لتكون قاعدة لملكهم هناك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ترك الأمر هناك لابن عمه يوسف بن تاشفين ، واتجه عبر الصحراء جنوباً للجهاد فى الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية . وفى سبيل هذا الهدف العظيم ، اضطر الأمير المجاهد أبو بكر بن عمر ، أن يترك زوجته وأهله ووطنه ، وأن يبيع نفسه من الله ، يروى أنه قال لزوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها : يازينب ، انى سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلى أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر ، ولا يمكنى أن أمشي عنك وأنت فى عصمتى ، فان أنامت ، كنت مسؤولا عنك ، والرأى أن أطلقك ثم طلقها ، ويقال انه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين : «تزوجها فانها امرأة مسعودة» فتزوجها يوسف» (١) ثم خرج أبو بكر بن عمر إلى غزو مملكة غانا ، وفى ذلك يقول السلاوى الناصرى : «ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال ، وزحف اليهم فاتح المغرب الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى وفتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن قد أسلم قبل ذلك ، على الاسلام ، فدانوا به ، ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية .. ثم غلب أهل مالى على الأمم المجاورين لهم وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدى أهل غانة» (٢) .

وقال صاحب الحلل الموشية : «وأسلم أهل غانة ، وحسن إسلامهم عند خروج الأمير أبى بكر بن عمر اللمتونى اليهم» (٣) .

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الخاص بالمرابطين فى Hésperis - Tamuda Vol-II, 1961).

(راجع كذلك (روض القرطاس جـ ٢ ص ٢٣) .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٥ ص ١٠٠ .

(٣) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٧ (نشر علوش)

كذلك يقول صاحب القرطاس : وخرج أبو بكر إلى غزو بلاد السودان ، فجاهدهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد بسهم مسموم بعد أن استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان(١).

فن هذه النصوص وغيرها ، نجد أن سقوط مملكة غانا ، وانتشار الإسلام بين أهلها ، ثم قيام مملكة مالى الاسلامية على أنقاضها ، كان ثمرة من ثمرات جهاد هذا الأمير وجنوده المرابطين (٢) .

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد الكبير بالشهادة التي كان ينشدها ، فذكرنا بالشهيد عقبه .

وبعد ، فهذه هي بعض الصفحات الأولى التي خطها المرابطون بسيوفهم ودمائهم ضد المارقين والمشركين في المغرب والصحراء والسودان ، فنصروا الإسلام وأدوا رسالتهم أحسن الأداء .

---

(١) ابن ابى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٣٥ ، ولعل المقصود بجبل الذهب هنا هو بلاد ونقارة Wangata التي كانت تقع خارج حدود غانة والتي كانت شعوب الماندنجو تستخرج منها الذهب وتستبدله بالملح والسلع الأخرى من غانة . راجع (حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة ص ٥٦)

(٢) يقال ان عدداً كبيراً من أهالى غانا فروا من الموت أمام زحف المرابطين ، وقصدوا ساحل الذهب وعمروها . ولهذا اختار الرئيس السابق نكروما اطلاق اسم غانا على دولته إحياء لذكرى هذه الدولة القديمة العريقة .

أبو تمام في مصر

للدكتور طه الحاجري

١

قضى أبو تمام فترة حداثته في مصر . وحداثة الرجل هي — في حقيقة الأمر — الفترة التي تجتمع فيها معظم العوامل التي تعين وجهته ، وتطبع شخصيته ، وترسم الخطوط الكبرى في منهج حياته . ففي هذه الفترة التي قضاها أبو تمام في مصر شقت شاعريته سبيلها ، واختارت له مقاديره الوجهة التي جعل يتجه اليها ، وتكونت لشاعريته عناصرها الأولى التي مالبثت أن نمت وامتدت وترعرعت وهيأت له ذلك المكان الرفيع الذي تبوأه بين شعراء القرن الثالث ، وذلك اللون الخاص الذي عرف به في تاريخ الأدب العربي .

ومع هذه الخطورة الظاهرة التي تمتاز بها هذه الفترة من حياة أبي تمام فانها مضت مغمورة مطوية ، لا يكاد أحد يعنى بها أو يقف عندها ؛ ممن ترجموا له من علمائنا المتقدمين ؛ إذ لم نظفر منهم إلا بما قد يعد طرفة تبعث الدهشة ، من أنه بدأ حياته في مصر وهو يصطنع السقاية في المسجد ، يلتمس بها عيشه ، ويقيم بها أوده . فيقول الخطيب البغدادي مثلا : «كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم منهم» (١)، ثم يجيء بعده ابن خلكان فلا يزيد على ترديد هذا الخبر ، إذ يقول : «ونشأ بمصر ، قيل أنه كان يسقي الناس ماء بالجرة في جامع مصر»(٢)

(١) تاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨ ، ط القاهرة ، سنة ١٩٣١م.

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٧

أما ما عدا ذلك من ألوان حياته بمصر ، وصنوف صلاته بها ، وما أتيح له فيها من مقومات كيانه ، وما تقلب عليه من أحداث وما عاناه من خطوب ، وما تعرض له فيها من تجارب نفسية ، فقد ذهب مطوياً فى الغمرات التى كانت تلف حياة شاعر ناشىء مثله ، فى إقليم بعيد عن مركز النشاط العلمى والأدبى كمصر .

وقد عرض لأبى تمام جماعة ممن عنوا بتاريخ الأدب العربى والتأليف فيه من علمائنا المعاصرين ، فمنهم من عرض له فى سياق كلامه عن تاريخ الأدب عامة ، أو تلك المرحلة التى تقع فيها حياة أبى تمام من ذلك التاريخ ، فكان من الطبيعى الا نجد العناية بأبى تمام فى مصر متسعاً لها فى ذلك الإجمال .

ومنهم من عرض له فى سياق دراسته لتاريخ الأدب العربى فى مصر كالدكتور محمد كامل حسين ، ولكنه — وان تلبث عنده برهة — لم يلبث أن مضى عنه معجلا ، لأن «حياة أبى تمام فى مصر غامضة أشد الغموض ، إذ لم يصلنا عنه شىء كثير فى مصر ، ولا نعرف عن أخذ علومه ، كما لا نعرف شيئاً عن اتصاله باشراف مصر وشعرائهم » ، كما هو نص عبارته (١)

ومنهم من توفر عليه ، فأفرده بالدرس وخصه بكتاب على حدة ، كالأستاذ عمر فروخ فى كتاب سماه : «أبو تمام شاعر الخليفة محمد بن المعتصم بالله»(٢) والأستاذ نجيب محمد البهبيتى فى كتابه : «أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره»(٣) ومن الطبيعى أن نتوقع فى مثل هذا النمط من التأليف أن نجد فيه هذه الفترة ، فترة حياة أبى تمام فى مصر ، مكاناً خاصاً يتسع لتفصيل القول فيها ؛ إذ كانت جزءاً من حياته ، ومرحلة كبيرة الخطر بين مراحلها .

---

(١) فى الأدب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين ، ص ١٩٤ ، مطبعة الاعتماد بمصر .

(٢) طبع بمطبعة الكشاف ، فى بيروت ١٩٣٥ م .

(٣) طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ، فى القاهرة ، ١٩٤٥م

بيد أن هذين الكتابين اللذين يمثلان هذا النمط يتفاوتان فيما بينهما تفاوتا كبيراً فى أسلوب التفكير ومنهج الدراسة ، وخاصة فيما يتعلق بالكلام عن أبى تمام فى مصر . فلم يكد صاحب كتاب «أبو تمام شاعر الخليفة...» يلم بهذه الفترة من حياة أبى تمام ، ويجمل القول اجمالا فى صلته بعياش بن لهيعه حتى يمضى عنها . فى حين وقف صاحب كتاب «أبو تمام الطائى» عندها وقفة طويلة بعض الشيء ، مقدراً مالها من خطر ، وأخذ فى وقفته هذه يردد النظر ويقابل بين وجوه الرأى ، ويستقرىء ألوان ثقافة أبى تمام ، كما يشير اليها شعره ، على اعتبار أن هذه الثقافة انما تكونت له فى مصر ، وأن تعرفها إنما يعد تعرفاً لهذه الفترة من حياته . وبذلك جاز لنا القول بأن الدكتور نجيب البهبيتى أول من اتجه إلى العناية بتجلية حياة أبى تمام فى مصر بغض النظر عن مبلغ ما أصاب فى ذلك من توفيق ، وما بلغه من مدى . فقد يبدو لنا انه لم يتقص شعر أبى تمام على الوجه الذى يمكن له من هذه التجلية بما يتفق مع مكانة هذه الفترة فى تاريخه وفى سيرته الشعرية . ولكنها — على كل حال — أول محاولة جدية من هذا القبيل ، فلها بذلك هذه الفضيلة ، وإن جاءت مشوبة ببعض مظاهر النقص والاضطراب .

ونحن فى هذه الدراسة التى نقدمها اليوم ، والتى أردنا بها أن نسهم فى هذه الناحية ، نرجو أن يكون قد اتيح لنا من التوفر على تعرف حياة أبى تمام فى مصر ، ما يجعلها أدنى إلى الاحاطة ، وأقرب إلى ابراز صورة واضحة دقيقة لها ، وإلى تبين العوامل والملابسات المختلفة التى أحاطت بأبى تمام فيها ، وكان لها أثرها الكبير فى توجيه ملكاته الفنية وإنتاجه الشعرى هذه الوجهة التى نراها .

٢

متى قدم أبو تمام مصر ؟ ومتى رحل عنها ؟ أو بعبارة أخرى : ما هى حدود الفترة التى أقامها فيها ؟ .

هذه هى المسألة الأولى التى لابد من القضاء فيها قبل كل شيء . ولا سبيل إلى أن نبلغ من ذلك مقطع الحق أو ما هو أشبه به ، كما لا سبيل إلى تصوير

شيء من حياته في هذه الفترة ، الا أن نعتمد على شعره ، نتقصاه جهد ما نملك ، ونستبطنه غاية ما نستطيع ، ونستلهمه في بصيرة وحذر ،ونستخرج منه ما عسى أن يكون فيه من الأعلام الهادية المميزة ، نهتدي بها في هذا المجهل المبهم الغامض من حياته ، مع المقارنة بما عسى أن يكون هنالك من الأحداث التاريخية الملتبسة بهذا الشعر ، مما أتيح له أن يظفر بعناية المؤرخين الذين بلغتنا آثارهم .

ومن ذلك ما احتفظ لنا به أبو عمر الكندي في كتابه عن قضاة مصر وولاتها ، في سياق كلامه عن عبد الله بن طاهر وولايته مصر ، وما كان بينه وبين ابن السرى من أحداث ، سنة ٢١١ ، مما قاله شاعرنا أبو تمام في مدح ابن طاهر ، والتنويه بتلك الموقعة التي انتصر فيها على خصمه ابن السرى . فلهذا — ولاريب — دلالته القاطعة على أن ابا تمام كان بمصر في ذلك الوقت ، سنة ٢١١ .

ومن ذلك أيضاً ما احتفظ به ديوان أبي تمام الذى بين أيدينا من الشعر الذى قاله في رثاء عمير بن الوليد . فاذا علمنا أن عميرا هذا قتل سنة ٢١٤ ، كان في ذلك ما يدلنا على أن أبا تمام ظل في مصر إلى هذا العام .

ولكننا لا نلبث حتى نجد مصر مذكورة في قصيدة أخرى له قالها في مدح المأمون ، مما يرجح لدينا أنه قالها وهو لا يزال مقيما في مصر، وذلك إذ يقول فيها :

أهلا وسهلا بالامام ومرحباً ، سهلت حزونة كل أمر قردد
متجرداً ثبت المواطن ، عزمه متجرد للحـــــادث المتجرد
فانتاش مصر من اللتيا والتي بتجـــــاوز وتماطـ ـف وتغمد

فلعله إنما كان يشير بذلك إلى تلك الفتن المتصلة التي كانت مصر تضطرب بها في ذلك الوقت ، والتي حفزت الخليفة المأمون إلى أن يمضي بنفسه اليها ،

لمعالجتها واطفاء نائرتها ، سنة ٢١٧ . فاذا صح ذلك ، وهو — فيما يبدو لنا صحيح — كان لنا أن نذهب إلى القول بان أبا تمام ظل فى مصر إلى هذه السنة سنة ٢١٧ ، وإذ رأينا أنه كان فيها منذ سنة ٢١١ ، كان لنا أن نذهب إلى القول أيضاً بان اقامته بها لم تكن أقل من ستة أعوام (١) .

وذلك هو ما يمكن أن يؤديه إلينا شعر ابى تمام فى هذه المسألة ، مقارناً بما اتيح له أن يبلغنا من الأحداث التارخية المتصلة به .

أما صاحب «أبو تمام شاعر الخليفة...» فقد ذهب فى ذلك إلى افتراض ذهابه إلى مصر فيما بين سنتى ٢٠٨ ، ٢٠٩ . ولكنه — إذ يقرر ذلك — يرسله إرسالا ، دون رواية تسنده ، أو دليل يعتمد عليه ، أو شبهة تذكر معه . فهو اذن فرض تحكمى ، لا علينا أن نتجاوزه دون مناقشة .

وأما صاحب «أبو تمام الطائى» فقد ذهب فى ذلك مذهباً طريفاً يختلف كل الاختلاف مع ما ذكرنا ، إذ يجعل مقام ابى تمام فى مصر فى فترتين ويجعل مقدمه اليها مرتين ، أولاهما حول سنة ١٩٥ حتى سنة ١٩٨ ، وقد اتصل — عنده — فى هذه الفترة بعياش بن لهيعه الحضرمى ، والأخرى سنة ٢١١ وقد اتصل فيها بعبد الله بن طاهر ، ثم بعمير بن الوليد ، حتى غادرها أخيراً إلى العراق بعد مقتل عمير ، سنة ٢١٤ .

ويحس الأستاذ البهبيتى ، حين يذهب هذا المذهب الطريف فى بيان اتصال ابى تمام بمصر ، بما فى ذلك من تجانف عن المقرر ومخالفة للمعروف فيقول فى سياق تقريره له : «وليس فى التاريخ ذكر لمقدم أبى تمام» ،

---

(١) يشير أبو تمام فى احدى قصائده التى يشكو فيها عيشه فى مصر ، إلى أن اقامته بلغت خمس سنين ، وذلك إذ يقول :

أخمسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان ثكل من الثكل (الديوان ص ٣٠٩)

على أنه ليس فى القصيدة كلها مايدل على أنه قالها وهو مرتحل من مصر . فليس فى هذا البيت دليل أو شبه دليل على أن مقامة فى مصر كان خمسة أعوام لا أكثر ، وانما مبلغ مايدل عليه هذا البيت أن مقامة فيها لم يكن أقل من خمسة أعوام .

أن ننظر فى هذه الضرورات التى اعتبرها فى ذلك الفرض ، ورسم عليها ذلك النسق ، لنرى مبلغ ما يمكن أن نصل اليه من ذلك .

أما أن أبا تمام كان فى مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ يمدح عبد الله بن طاهر ، فهذا ما لا ريب فيه عندنا . وكذلك القول بانه اتصل بعياش بن لهيعه فيها ، فهذا ما لا نحسب أحداً يملك انكاره أو المجادلة فيه . وأما أن اتصاله بعياش ابن لهيعه هذا وامتداحه لا يمكن إلا أن يكون قبل سنة ٢٠١ ، وهى السنة التى تولى فيها الشرطه ، واختفى بعدها من التاريخ ، على حد تعبيره ، فمسألة فيها نظر . ذلك أن اختفاء عياش من التاريخ لا يعنى مطلقاً اختفاءه من الحياة ، حتى ما يجوز لحى أن يتصل به ، كما لا يعنى تجرده من كل شيء من الجاه ، حتى ما ينبغى لشاعر أن يقصده . وإذا جازلنا أن نثق بالتاريخ واستقصاءه للدقائق واحاطته بالتفاصيل — وما نرى ان ذلك مما يجوز فى أى حال من الأحوال — فما ينبغى أن نحمل اختفاء عياش من التاريخ على أكثر مما يحتمل ، فهو لا يدل على أكثر من ابتعاده عن الحياة الرسمية التى يعنى المؤرخون بحفظها وتسجيلها والتنويه بها ، إذ لم يعد له فى مناصب الدولة مكان ملحوظ .

على أن الأستاذ البهبيتى يجد نفسه مضطراً (خضوعاً للنسق الذى رسمه، وإن ظهر أنه متهافت وعرضه للخلل فى غير موضع منه) إلى أن يجعل اتصال ابى تمام بعياش بن لهيعة قبل أن يلى الشرطه فى سنة ٢٠١ ، إذ كان ذلك يقضى بان يترك أبو تمام مصر فى سنة ١٩٨ ، كما رأينا منذ قليل ، واذن فولاية عياش للشرطة لا دخل لها — كما يرى هنا — فى صلة ابى تمام به وامتداحه له (١) . فاذا كان الأمر كذلك فأى ضرورة تلزمنا أن نجعل

---

(١) ومع هذا فإنا نلمح فى كلام الأستاذ من هذه المسألة شيئاً من الاضطراب أيضاً ، كما رأينا ذلك فيما سبق . فبينما يقرر هنا (ص ٦١) أن ابا تمام اتصل بعياش بن لهيعة قبل سنة ٢٠١ نراه يخالف ذلك الرأى فى موضع آخر ، فيقول فى (ص ٥٩) «وأغلب ظنى ان ابا تمام اتصل به فى ولايته الشرطة لابعدها . وفى شعره مايشعر أنه كان كذلك أيام اتصال أبى تمام به . يقول : يهوتك أن تلقاه صدراً لمحفل ونحراً لأعداء وقلباً لموكب»

اتصاله به فى هذه الفترة المفترضة افتراضاً دون الفترة الثانية ؟ إذا كنا لا نملك القطع بان الرجل مات قبل مقدم ابى تمام مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ ، وكنا مع هذا لا نرتب مدح ابى تمام له على أنه كان يتولى منصباً من مناصب الدولة ، فلم تعد هناك ضرورة تلجىء الباحث إلى ذلك الفرض ، وتحمله على التزام مثل هذا التاريخ . وبذلك تكون هذه الضرورة من الضرورات التى انبنى عليها ذلك المذهب واهية باطلة لا حقيقة لها .

فهذه واحدة . وأما اتصاله بأبى المغيث موسى بن ابرهيم الرافقى ومحمد بن حسان الضبى ، وقد زعم انه اتصل بالأول بعد خروجه من مصر إلى الشام سنة ١٩٨ ، واتصل بالثانى بعد أن ترك الشام إلى الرقة ، فليس فى شىء منهما شبهة تلزم الباحث تاريخاً معيناً . وما زعمه من ذلك ليس الا فرضاً مجرداً ، لا ضرورة تحمل عليه أو تلجىء اليه ، فلا يمكن أن يستند اليه فى فرض آخر . وعندنا أن اتصال ابى تمام بأبى المغيث الرافقى كان بعد خروجه من مصر سنة ٢١٧ إلى الشام ، وربما كانت نشأة هذه الصلة قبل ذلك وهما فى مصر ، كما قد نعرض لذلك فى موضع آخر من هذا البحث. وأما امتداحه اياه فانما كان — على كل حال — وهما بالشام . وكذلك نرى أن اتصاله بمحمد بن حسان انما كان فى أثناء ولايته الطويلة بالجزيرة ، وقد تولى مظالم الجزيرة وقنسرين والعواصم والثغور سنة ٢١٥ ، وولاه المعتصم مظالم الرقة سنة ٢٢٤ ، وأقره الواثق عليها .

ومثل هذا اتصال ابى تمام بمالك بن طوق ، وقد افترض الأستاذ البهبيتى سنة ٢٠٠ تاريخاً له ، إذ مدحه بقصيدته البائية التى أشار فيها إلى ما كان من فتنة بين بنى تغلب وبنى أسامة بن بكر ، وقد زعم أن هذه الفتنة انما هى التى اشار ابن الاثير اليها فى حوادث سنة ٢٠٠ ، فاذا صح ذلك فلا بد أن يكون ذلك هو تاريخ القصيدة ، وتاريخ اتصال ابى تمام بمالك ابن طوق ، ولكن كيف يمكن القطع بان ما أشار اليه أبو تمام فى قصيدته هو نفسه ما ذكره ابن الأثير فى حوادث تلك السنة ؟ ولم يفت صاحب ذلك

القول أن يحس بما فيه من تحكم لا سند له ، فقال معقباً عليه: «وقد يعترض على هذا ، بأنه ليس لنا أن نقطع بان ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التي حدثت في تلك الأيام ، وليس ما يمنع أن تتكرر الفتنة بين جماعتين بعينهما في أزمنة تتباعد ، فيأتي ابن الأثير فيذكر واحدة لا يعينها ، ويترك الباقي ثم يأتي أبو تمام فيذكر الأخرى لاتصالها بممدوحه، فيلتبس التاريخ بالشعر بما يثير في الظن أنهما عن حادثة واحدة ، وليس ذلك صحيحاً» . وهذا — كما نرى — اعتراض واضح قوي ، يمليه منهج علمي سديد . ولكنه لا يكاد يفرغ من تقريره، حتى يذكر النسق الذي وضعه لحياة أبي تمام، فيغلبه حرصه عليه وافتتانه به ، فاذا هو يسرع في رد هذا الاعتراض بقوله : «هذا حق ولكن ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به» (١) . وليس في هذا ما يدحض ذلك الاعتراض ولا قيمة للقول بان ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، لما على هذا بني القول فيه ، وانما يكفي ان يقال انه ليس هنالك ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في هذه الفتنة أو في غيرها ، ليبطل الاستدلال بها ، والاستناد اليها في ادعاء ذلك التاريخ لها .

وإذن فالقول بان اتصال أبي تمام بمالك بن طوق كان في سنة ٢٠٠ قول لا دليل عليه ولا سند له ، وبذلك لا يصلح هو أيضاً أن يكون نقطة ارتكاز في رسم ذلك النسق .

ومثل هذا أيضاً ما ذكره عن علي بن مر ، وافتراضه ان صلة أبي تمام به نشأت بينهما في اذربيجان ، في ابان ثورته على الدولة ، بعد قتل الأمين . وكان هذا في حساب ذلك النسق بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٠ ، كما رأينا فيما نقلناه عنه في هذا الفصل .

---

(١) أبو تمام الطائي ص ٥٢ ، ٥٣ .

وفى موضع آخر ذكر صاحب «أبو تمام الطائى» على بن مر ، وصلة ابى تمام به ، بهذه العبارات : « وفى سنة ١٩٨ أيضاً يقتل الأمين ، وتزلزل أرجاء العالم الاسلامى بفتن كانت تلتهمه كالنار ، فيخرج بكل قعار من استطاع أن يخرج به .. ومن بين الخارجين بأذربيجان ، على بن مر ممدوح ابى تمام وصديقه ؛ ولكن لم تلبث اذربيجان أن اعيدت إلى حظيرة الخلافة ولاشك فى أن على بن مر هذا كان مغضوباً عليه إذ ذاك من الخليفة . ويظهر انه رضى عنه بعد ذلك فى زمن لا نعرفه» . ثم يشير بعد ذلك إلى القصيدة النونية التى مدح أبو تمام بها على بن مر ، وما جاء بها من اشارات إلى رضا الخليفة عنه ، واستخدامه اياه فى قمع بعض الفتن ، كما يذكر أن صلة أبى تمام به ترجع إلى أيام جفوة السلطان له ، كما قد تدل على ذلك هذه الأبيات من تلك القصيدة :

لى حرمة بك ، فاحفظها وجازبها ۔ يا حافظ العهد والعواد بالمنن
أولى البرية حقاً أن تراعيه ۔ عند السرور الذى آتاك فى الحزن
ان الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ۔ من كان يألفهم فى المنزل الخشن (١)

هذا ما أورده الأستاذ البهبيتى فى أمر هذه الصلة ، مما كنا نرجو أن نجد فيه تفسيراً لما ذكره فى نسق حياة أبى تمام من أن صلته بعلى بن مر كانت فى ذلك التاريخ ، فاذا به لا يتضمن شيئاً يمكن أن يكون دليلا أو شبه دليل على ذلك . وانما مبلغ ما يمكن أن يقال — إذا صح ان ابا تمام يشير بتلك الأبيات إلى فترة الجفوة — انه كان على اتصال به فى اثنائها ، وإذ كانت هذه الفترة مجهولة الغاية كما يصرح هو بذلك ، فكيف يمكن أن يستند اليها فى افتراض وقت معين لحدوث هذه الصلة ليجعل من ذلك نقطة من النقط التى تحدد النسق العام لحياة ابى تمام .

وهكذا تسقط أيضاً هذه الجزئية من جزئيات ذلك النسق .

---

(١) ص ٥٢ .

بقي بعد ذلك من الشبه التي اعتبرها الأستاذ البهبيتي ، ورسم عليها ذلك النسق ، وبنى عليها ذلك المذهب ، ما جاء في ديوان أبي تمام من مدح الحسن بن سهل وزير المأمون . ووجه الشبهة عنده «ان حادثاً حدث في تاريخ الحسن بن سهل يجعلنا نرجح أن مدائح ابى تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣ ففي هذه السنة يروى لنا الطبرى وابن الأثير ان الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة ، حتى إنه وضع في الحديد وحبس» (١) .

وهذه شبهة غريبة لا ندرى كيف استطاعت أن تتأتى له وتعترضه . إذ كيف تحملنا إصابة الحسن بن سهل بالسوداء سنة ٢٠٣ على الذهاب إلى القول بان مدح ابى تمام اياه انما كان قبل هذه السنة لا بعدها ؟ ذلك شيء لا يمكن تصوره الا أن نفترض مع هذه الاصابة التي نزلت بالحسن انه بقي ممروراً موثقاً في الحديد محبوساً في محبسه ثلاثة وثلاثين عاماً متصلة ، منذ أصيب في بغداد ذلك العام إلى أن مات في سرخس سنة ٢٣٦ . فهل نملك هذا الفرض ليصح ذلك الزعم ؟

هذا شيء لا سبيل اليه . فما أكثر ما نرى الحسن بن سهل في هذه الفترة بريئا من تلك الصورة التي اداها المؤرخون عنه في سنة ٢٠٣ . فهو مرة في مجلس الخليفة المأمون ، يشفع لديه في ابرهيم بن المهدى ، ومرة أخرى يستمع معه معه إلى غنائه ، إلى غير ذلك من الصور التي تمثله لنا وقد برىء من تلك النوبة الطارئة ، وان لم تعد أعصابه تحتمل مكاره الحكم ومشاق الولاية . ولعل من الصور التي لا تغيب عن خيالنا صورته في فم الصلح ، سنة ٢١٠ يشهد زفاف ابنته بوران إلى الخليفة المأمون ، ويشارك في إعداد مظاهر الفرح والبهجة ، ويجلس للشعراء الوافدين عليه ، يستمع إلى مدائحهم ، ويطرب لتهانئهم ، ويغدق الجوائز لهم . فكيف يستقيم مع هذا أن نجعل سنة ٢٠٣ نهاية لحياته الحرة المختارة ، حتى ما يملك شاعر أن يقصده بمدحة ، أو يرجو عنده عطاء ، ثم نمضى فنحجر على أنفسنا واسعاً ، إذ نأبى الا أن يكون مدح

---

(١) ص ٥١ ، وانظر أيضاً : ص ٩٧ .

ابى تمام له قبل هذا التاريخ ، ثم نتخذ من ذلك أساساً لتعيين المراحل المختلفة التى مرت بها حياة ذلك الشاعر ؟

وبعد ، فهذه هى الضرورات التى أقام عليها صاحب «أبو تمام الطائى» نسقه ، والتى جعلته يعدل عن المعروف المألوف والأصل المقرر فى مجىء أبى تمام إلى مصر ، وذهبت به إلى أن يتكلف ألواناً من التكلف فى تقسيم شعره فيها إلى طائفتين يفصل بينهما عهد طويل مملوء بالتجارب المختلفة، وقد كان جديرا بذلك لو صح أن يكون له أثره فى التطور الفنى لذلك الشعر وأن يكون ذلك الأثر ظاهراً قوياً لاخفاء فيه، ولا اختلاف عليه ، فقد تهاوت هذه الضرورات كلها واحدة إثر الأخرى ، وبقى الأصل المقرر قائماً لا شىء يريبنا فيه أو يعدل بنا عنه ، وهو أن أبا تمام أقام فى مصر اقامة واحدة متصلة منذ دخلها إلى أن تركها ، على النحو الذى رأيناه .

وبهذا ، وبما رجح لدينا من أن مولد ابى تمام كان فى سنة ١٩٢ ، يستقيم القول فى هذا البيت من شعره الذى اشرنا اليه قبل ، وهو :

وان الذى أحدانى الشيب للذى رأيت ولم تكمل لى السبع والعشر

بعد أن اضطرب طويلا بين الفروض والتمحلات المختلفة يضرب بعضها بعضاً (١) . كما رأينا صورة من ذلك ، إذ كان لا ريب فى أن هذه القصيدة التى جاء فيها هذا البيت هى احدى قصائده المصرية الصريحة النسبة . وقد صرح هو بذلك فيها ، إذ يقول :

وان نكيرا أن يضيق بمن له عشيرة مثلى أو وسيلته مصر

غير انى أميل ميلا شديداً إلى القول بان كلمة «السبع» فى ذلك البيت محرفة عن كلمة «التسع» ، وذلك تحريف قريب شائع مفهوم الأسباب ، وبذلك تكون سنه عند قول هذه القصيدة تسعة عشر عاماً ، فيكون تاريخها

(١) انظر : أبو تمام الطائى ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٤ .

على هذا سنة ٢١١ ، وذلك يتفق تماماً مع تاريخ وجوده في مصر ، على القول الذي ذهبنا اليه .

على أن هناك اعتراضاً آخر أحسب انه — لابد — موجه إلى ، ومعترض به على . فلنعرض له ، قبل أن نفرغ من هذا الجزء من البحث .

٣

ما بال تلك القصائد الرائعة التي قالها أبو تمام في رثاء محمد بن حميد واحتفظ لنا ديوانه بها ؟ ان كتب التاريخ تجمع على جعل مقتل محمد بن حميد هذا في سنة ٢١٤ ، فاذا صحت الدعوى أن أبا تمام كان في مصر حتى سنة ٢١٧ فكيف يمكن أن يتفق هذا مع ما ثبت من رثائه محمد بن حميد ؟ الا إذا أمكن القول بأنه إنما رثاه وهو في مصر — وقد قتل محمد بن حميد في اذربيجان — ووجه قصائده فيه منها ، وذلك أمر بعيد الاحتمال جداً ؟ الا يدعو هذا إلى القول بان أبا تمام كان قد ترك مصر قبل ذلك ، وانه في الوقت الذي قتل فيه محمد بن حميد كان في اقليم شديد الاتصال بمثل تلك الأحداث ، كالعراق مثلا ، كما يذهب إلى ذلك صاحب «أبو تمام الطائي» في صورة جازمة قاطعة ؟ (١)

وهذا الاعتراض يبدو — كما نرى — قوياً مفحماً ، لولا أن هناك من الأمور الملابسة ما يثير التساؤل :

لقد رثى أبو تمام عمير بن الوليد بقصيدتين لا شك في أنه قالهما وهو في مصر (٢) ، وفي ثاني القصيدتين يمدح ابنه محمداً الذي جعلت اليه ولاية مصر بعد أبيه ، وان لم تطل هذه الولاية له أكثر من شهر واحد ، وكما انه لم يداخلنا الشك في المكان الذي صدرت عنه هاتان القصيدتان ، وهو مصر كذلك لا يداخلنا الشك في الزمان الذي قيلتا فيه ، إذ كان مقتل عمير بن الوليد معروفاً معيناً تعييناً دقيقاً ، وهو — كما يقول الكندى — «يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر»(٣) . وإلى جانب ذلك يبدو أن أباتمام لم يكن وقت

---

(١) ص ٩٥ . وانظر أيضاً : ص ١٠٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ، ص ٣١٢ ، ٣٣٥ ، مطبعة حجازى بالقاهرة ، ١٩٤٢ .

(٣) يعني من سنة ٢١٤ ، انظر : الولاة والقضاة ، ص ١٨٤ ط ليدن ، ١٩١٢ م

ذلك الحادث على نية الرحيل عن مصر ، فليس فى شعره ما يمكن أن نلمح من خلاله مثل هذه النية . بل لعلنا نرى فيه – على نحو ما – ما قد يشير إلى نية استمرار الاقامة ، فى نحو قوله :

فلأ شغلن بمدح ذا وبندب ذا ابدا لسانى ما ملكت لسانى

فى ذلك الوقت الذى كان أبو تمام فيه قاراً بمصر ، مطمئناً إلى مقامه فيها غير مزمع بالرحيل عنها ؛ كان محمد بن حميد الطائى قد استشهد فى المعركة التى شنتها الدولة على بابك الخرمى ، فى هشتادسر بأذربيجان ، لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول (١) ، (أى قبل مقتل عمير بن الوليد بثمانية عشر يوماً) .

فنحن إذن بازاء مشكلة تتوقف الاجابة على ذلك السؤال الذى صدر به الاعتراض على حلها والقضاء فيها ؛ إذ كان من المحال أن يكون الرجل فى مصر والعراق فى وقت معاً .

هذا هو ما يبدو للباحث لأول وهلة حين يواجه ذلك الاعتراض ويأخذ فى تحقيقه ، فليس الأمر إذن من اليسر والقرب كما يتوهم المعترض .

فهل يمكن القول بان أبا تمام رثى محمد بن حميد وهو فى مصر ، أو أنه رثى عمير بن الوليد وهو فى العراق ؟ كلا الفرضين بعيد لا دليل عليه ، والفرض الثانى أشد فى البعد اغراقاً ، كما قدمنا

أيمكن القول بان مراثيه فى محمد بن حميد زائفة لتصح مراثيه فى عمير بن الوليد ، أو أن مراثيه فى عمير غير صحيحة النسبة لتصح مراثيه فى محمد بن حميد ؟ كلا الفرضين كذلك بعيد بعداً شديداً فليس لواحد منهما سند يسنده أو شبهة ترجيه .

وأخيراً ، أيمكن أن يكون عمير بن الوليد الذى يرثيه أبو تمام بذلك الشعر رجلا آخر غير عمير بن الوليد المقتول فى تلك الموقعة ، سنة ٢١٤ ،

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٠ ط الحسينية ، القاهرة .

أم يكون محمد بن حميد المذكور اسمه فى باب المراثى من ديوان أبى تمام شخصاً آخر غير ذلك الذى يذكر فى حرب بابك ، فى تلك القصة التى يحكيها المؤرخون ؟

أما أن عمر بن الوليد الذى يرثيه أبو تمام رجل آخر غير الذى نعرفه فى مصر ، ففرض لا سند له . وفضلا عن انا لا نعرف فى ما وقع لنا من نصوص أو أخبار رجلا آخر بهذا الاسم ، فانا نجد أبا تمام يشير إلى مقتله على النحو الذى يرويه المؤرخون فيه ، حتى إنه ليذكر فى رثائه له اليوم الذى يذكرون أنه قتل فيه ، وهو — كما رأينا فيما نقلنا قبل عن الكندى — يوم الثلاثاء . وذلك اذ يقول :

فيايوم الثلاثاء اصطبحنا ... غداة منك هائلة الورود

وهكذا لا يبقى من الفروض التى افترضناها لحل تلك المشكلة الا أن يكون محمد بن حميد الذى يرثيه أبو تمام شخصاً آخر غير محمد بن حميد الذى قتله بابك سنة ٢١٤ ، فماذا عسى أن يكون نصيب هذا الفرض الذى نعرف مبلغ خطره ، إذ لم يبق لنا من الفروض فى هذه المسألة غيره ؟

على أنه ينبغى لنا — ونحن تنظر فى هذه المسألة — أن نتجرد من التأثر بما قرره فى ذلك بعض المؤرخين والأدباء كابن الأثير والبديعى ، حين ربطوا بين مقتل محمد بن حميد شهيد حرب بابك وبين مرثيه ابى تمام ، ففسروا هذه بتلك ، واستشهدوا بها ، فلعل الأمر لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام الكثيرة التى تعرض لها المتقدمون ، ثم اندفع من بعدهم فى سبيلهم متأثر بن بهم ، فى غير تحر أو تمحيص .

ونحن إذ ندرس المسألة مستقلين نلاحظ أول ما نلاحظ أنه كان هنالك فى ذلك العصر غير واحد ، يسمى كل منهم «محمد بن حميد» . فهنالك

(١) ديوان ابى تمام ، ص ٣٢٥ . وانظر فى ذلك أيضا سائر مراثيه فى بنى حميد .

محمد بن حميد الذى يذكره الطبرى وابن الأثير فى حرب بابك ، من غير تكنية ؛ وهناك محمد بن حميد ، أبو نصر ، الذى يرثيه أبو تمام ؛ و يصرح فى بعض مراثيه اياه باسمه وكنيته ، إذ يقول مثلا :

كفى ، فقتل محمد لى شاهد ان العزيز مع القضاء ذليل
الـى ابا نصر ؟ نـيت إذن يدى فى حيث ينتصر الفتى ويذيل

وهناك محمد بن حميد ، أبو نهشل ، ممدوح البحترى ، وهو يذكره باسمه فى مثل قوله (١) :

والى سراة بنى حميد ، انهم أمروا كواكب مذحج ابنة مذحج
سادوا وسادهم الأغر محمد بخلال ابلخ فى الخزاهز ابلج

وفى شعر أبي تمام نفسه ما يدل على تعدد المسمين بمحمد بن حميد ، إذ يقول فى احدى قصائد الرثاء هذه :

اضحت عراص محمد ومحمد وأخيهما وكأنهن طلول (٢)

وإذن فقد كان هناك فى عصر واحد غير واحد يدعى كل منهم «محمد بن حميد» ، وذلك وحده كاف لاسقاط القطع بان محمد بن حميد صاحب أبى تمام هو محمد بن حميد المقتول فى حرب بابك ، لا غيره ، إذا لم يكن ثمت ما يعتمد عليه الادعاء الا توافق الاسم ، فقد أصبح ذلك التوافق بعد ما رأينا لا يعنى شيئاً . فلابد لذلك الادعاء من دليل آخر . فهل نجد فى شعر أبى تمام الذى قاله فى رثاء محمد بن حميد ما يمكن أن يدل على أن مرثيه هو محمد بن حميد المقتول سنة ٢١٤ ؟

أما أنا فلم أجد شيئاً من هذا أو قريباً منه . وانما لاحظت أمراً جديراً بالاعتبار فى هذه المسألة :

---

(١) ديوان البحترى ١ : ١٠١ ط هندية وانظر أيضاً : معجم الشعراء للمرزبانى ، ص ٤٢٧
(٢) الديوان ، ص ٣٢٦

ذلك هو أن ابا تمام الذى استطاع الى حد بعيد أن يطوع عبارته الشعرية ايما تطويع ، وأن يجعل شعره متسعاً للأسماء الأعجمية ، مثل البذ وأرشق وابرشتويم وسندبايا ، وما إلى ذلك من أسماء المواقع المختلفة التى دارت فيها الحرب بين بابك والمسلمين ، دون أن ينبوعنها أو يضيق بغرابتها، وكأنما أراد أن يستغل ما كانت هذه الأسماء تثيره فى النفوس من مشاعر خاصة صادرة عن هذه الحروب ومتصلة بها ، وما كان ينبعث عنها من ظلال معنوية كبيرة الدلالة قوية الأثر ، ليحقق لشعره الحيوية الفنية بوضع هذه الأسماء فى مواضعها من شعره ، أبو تمام هذا الذى نعرف عن شاعريته هذا الحس الدقيق الذى يدفعه فى ذلك الاتجاه - لم يكن من المتوقع أن يغفل ، وهو يرثى شهيداً فى موقعة من هذه المواقع ، ذلك اللون من ألوان التعبير الشعرى ، وذلك النحو من انحاء التأثير الفنى ، فيخلى شعره من بعض هذه الأسماء ، بل ويترك تسمية اليوم الذى أصيب فيه محمد بن حميد.

ولكن هذا الذى لا يتوقعه الباحث هو ما نراه هنا فى الشعر الذى صاغه أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد ، إذ لا نجد فيه اشارة ما إلى بابك أو اذربيجان أو أى اسم من هذه الأسماء التى كانت لها فى نفوس المسلمين ظلالها الملازمة لها ، ومشاعرها الخاصة بها ، بل لا نجد أيضاً ما يمكن أن يكون اشارة إلى شىء من طبيعة هذه المواقع التى حدثت فيها الحرب بين الدولة وبابك فى حين أننا نجد أبا تمام نفسه فى موضع آخر من شعره ، فى سياق مدحه لأحد الحميديين ، وهو أصرم بن حميد ، يذكر محمد بن حميد شهيد معركة بابك ، فيسمى تلك المعركة التى استشهد فيها «يوم بابك» ، وذلك إذ يقول (١)

بنى حميد ، الله فضلكم ابقى لكم اصرما فأسعدكم
لو كان فى «يوم بابك» لكم لم تفقدوا فى اللقاء سيدكم

(١) الديوان ، ص ٢٢٤ .

أما فى رثاء الشهيد نفسه فتمضى هذه الشاعرية عمياء صماء ، ليس لها أدنى حس بما يضطرب به الجو حولها اىما اضطراب ، وما تدوى به نفوس المسلمين عن هذه الأحداث التى قتل فيها ذلك القائد . أيمكن أن يكون هذا ؟ أليس فى هذه المفارقة ما يثير التساؤل ، وما يجب أن يحملنا على مراجعة أنفسنا فيما تلقيناه قضية مسلمة عن محمد بن حميد هذا صاحب ابى تمام ؟

والواقع أن جو هذه القصائد ، قصائد أبى تمام فى محمد بن حميد ، بعيد كل البعد عن اذربيجان وحرب بابك ، أما إذا أردنا أن نتلمس فيها شيئاً من الاشارة إلى الناحية التى قتل بها محمد بن حميد ، وجدنا مثل هذا البيت :

مصيف أفاض الحزن فيه جداولا من الدمع حتى خلته صار مربعاً (١)

وإذن فقتل محمد بن حميد انما كان فى ناحية تعتبر مصيفاً ، وما نحسب أن أذربيجان كانت من ذلك فى شئ ، إنما كان ذلك عند أهل العراق والجزيرة هو اقليم الجبل فى الشرق ، وبعض جهات الشام فى الغرب . فهذه الأشاره الى المصيف تبعد بنا — فيما نرى — بعدا كبيرا عن حروب بابك وميدانها ، وتحصرنا — فيما نحسب — فى هاتين المنطقتين المتاخمتين للعراق والجزيرة .

ولعلنا نستطيع أن نجد تفسير هذه الاشارة وتحرير المراد بها ، فى كلمة «النباج» التى ترد فى غير موضع من هذه المراثى ، كقوله :

بأبى وغير أبى — وذاك قليل — ثاو عليه ثرى النباج مهيل (٢)

والتى يسمى بها المعركة التى قتل فيها ، إذ يطلق عليها «يوم النباج» ، كما يطلق على المعركة التى قتل فيها سميه المستشهد فى حروب بابك «يوم بابك» ، كما رأينا منذ قليل ، فيقول :

«يوم النباج» ! لقد ابقيت بانجة احشاؤنا أبداً من ذكرها تطع (٣)

---

(١) الديوان ، ص ٣٢٤

(٢) الديوان ، ص ٣٢٤ .

(٣) الديوان ، ص ٣٢٢

ومهما يختلف اطلاق كلمة «النباج» على غير موضع في بلاد نجد واليمامة والشام ، كما تذكر كتب البلدان ، فانها جميعاً مواضع عربية لا صلة بينها وبين اذربيجان ، فليس واحد منها من اذربيجان في شيء .

وإذ سبقت الاشارة إلى أن مقتله كان في احد المصيفين المعروفين ، فقد تعين أن المقصود بكلمة «النباج» هنا هو ذلك المكان الذي يذكره البحتري — في رواية ياقوت — في قوله :

إذا جزت صحراء «النباج» مغرباً وجازتك بطحاء السواجير ياسعد
فقل لبني الضحاك : مهلا ، فانني أنا الافعوان الصل والضيغم الورد (١)

وإذ كانت السواجير تطلق — كما يقول ياقوت ، نقلا عن البكري — على «نهر مشهور من عمل منبج بالشام» (٢) ، فالنباج التي يعنيها أبو تمام قريبة من نهر السواجير هذا ، وبذلك تكون واقعة في اقليم منبج ، بالشام .

وإذن فقد كان مقتل محمد بن حميد ، مرثي ابي تمام ، هنالك في اقليم منبج أو قريباً منه ، في تلك الجهات الواقعة إلى غربي الفرات ، والتي كانت ماتزال ميداناً شديد النشاط للمعارك المحتدمة المتصلة بين القبائل العربية النازلة هناك . وأكبر الظن أن مقتل ابن حميد كان في احدى هذه المعارك . وفي شعر أبي تمام في رثائه شواهد تؤيد ذلك لا نطيل بذكرها ، فليس ذلك من الموضوع الذي نعالجه ، وهو هذه المشكلة التي واجهتنا ، ونحن نريد أن نتبين وجه الحق في مقام أبي تمام بمصر ، حين رأيناه يرثي رجلين في وقت معاً ، في صورة تدل على أنه كان حاضرهما ، أحدهما في أقصى الغرب ، والآخر في أقصى الشرق ، على ما يذهب اليه مؤرخو ذلك الشاعر .

---

(١) هذه هي رواية ياقوت في معجم البلدان (٨ : ٢٤٤)، أما رواية الديوان في طبعته التي بين أيدينا فتضع كلمة «الغور» بدلا من النباج .

(٢) انظر معجم البلدان ، : ١٥٨ ، ٨ : ٢٤٤ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٠٦ .

وإذ قد انتهى بنا البحث إلى تخليص هذه المسألة وتجلية وجه الحق فيها وكشف تلك الظلمات التي كانت مطبقة عليها ، وإزالة ذلك الوهم الكبير السائد بين القدماء والمحدثين ، فلا علينا أن نتجاوز هذه القصائد ونمضي عنها ، فلها موضعها الذي هو أملك بها ، فإنما كانت غايتنا من ذلك كله هو دفع ما قد يوجه إلينا من اعتراض بهذه القصائد على ماذهبنا إليه في تاريخ إقامة أبي تمام في مصر .

وإذا كنا قد استطعنا بهذا التقصي أن نضع الأمور في نصابها ، وأن ندفع ذلك التعارض التاريخي ، وأن نقضي في هذه المشكلة التي تتصل بترتيب شعر أبي تمام ترتيباً زمنياً ، فلعلنا استطعنا بذلك أيضاً أن نقضي في مشكلة أخرى لعلها أخطر من هذه المشكلة التاريخية ، وهي مشكلة التفاوت الكبير الواضح من الناحية الفنية الخالصة بين شعر أبي تمام في عمير بن الوليد وشعره في محمد بن حميد ، وهو تفاوت ماكنا نملك أن نجد تأويلا صحيحاً له ، إلا أن نضرب في متاهات التمحلات ، أو صح أنهما صدرا في وقت واحد . أما الآن فقد أصبح ذلك التفاوت طبيعياً مفهوماً لا شذوذ فيه ولا غرابة .

٤

وإذ فرغنا من تعيين الفترة التي أمضاها أبو تمام في مصر ، وانتهينا — فيما نقدر — من إزاحة ما كان يغشى هذه المسألة من غواش وشبه ، فبنا أن نسائل أنفسنا بعد ذلك : كيف اتجه أبو تمام إلى مصر ، وكيف تهيأت له الرحلة إليها ؟ بل كيف اتجه خياله نحوها ، فقصد قصدها ؟

والصلة بين الشام ومصر قديمة موغلة في القدم متصلة طوال أعصر التاريخ حتى لقد كانا يعدان — في بعض الاعتبارات — إقليماً واحداً ، ولكنها كانت حتى ذلك العهد الذي نتحدث هنا عنه — صلات في أكثر أمرها تجارية وسياسية أو ما إلى ذلك ، ولعلها لم تبلغ أن تكون صلات أدبية أو ثقافية بالمعنى الخالص إلا بعد ذلك بقرون ، فأما في ذلك العهد فما نحسب أن الصلة بين البلدين كانت تجعل الاتجاه إليها من مثل أبي تمام (وقد كان يقيم في شمال

الشام) فى مثل تلك السن المبكرة اتجاها طبيعياً لا يثير التساؤل ، ولا يبعث على تلمس بعض الظروف الخاصة وافتراضها .

فأن يغادر أبو تمام مقامه فى موطنه إلى مصر ، وهو لا يزال فى تلك السن المترددة بين الصبا والشباب ، ولا شيء يدعوه إلى مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة إلا ضيق ذات يده ، وقد امتحنته الحياة محنة شديدة فى التماس أسباب العيش بين حمص ودمشق ، أو الرغبة الساذجة فى التماس المجد الأدبى قدر ما يتصوره شاب ناشيء مثله ، فأمر لا يعدو — فيما نحسب — أن يكون شاذا غير مألوف . وليس الشاذ هو الرحلة نفسها ، فالرحلة هى الوسيلة الطبيعية القريبة المعروفة لمثل ذلك ، ولكن الشاذ هو الرحلة إلى مصر بالذات ، فلعل الجزيرة أو العراق — وقد قصدهما أخيرا — كانتا أقرب اليه ، وأقل فى الرحيل اليهما مشقة ، وأكثر فى الاذهان صيتاً وشهرة ، وأدنى إلى أن يحققا له ما كانت تضطرب به نفسه من التماس الثروة ، أو العيش الرخى ، أو المجد الأدبى ، فكيف عدل إلى مصر عنهما ؟

أكبر الظن أن بعض الملابسات الخاصة اتيحت له ، ولا بست هذه الرحلة ، فماذا عسى أن تكون هذه الملابسات التى عينت له وجهته ، ورسمت له طريقة ، ومضت به الى مصر ؟

لقد رأينا من قبل أن ابا تمام كان فى مصر سنة ٢١٠ أو ٢١١ ، ونستطيع فى غير كبير تحرج أن نفترض ذلك العام تاريخ قصده مصر ، ومبدأ مقامه فيها . فاذا صح ذلك الفرض — وظواهر الأمور تدعو اليه — وأخذنا نرجع بأنفسنا إلى ذلك التاريخ ، ونضع أنفسنا فى ذلك الموطن الذى كان أبو تمام يعيش فيه إذ ذاك ، قبيل مقدمه مصر ، وجعلنا نتمثل صور الأحداث الجارية هنالك ، ومشاهد الحياة الطارئة فى تلك البيئة ، كان من أول ما يحضرنا ذلك الحدث الذى كان — فيما يظهر — من الأحداث الكبيرة البالغة الأثر فى اذهان أهل حمص (حيث كان يقيم أبو تمام فى ذلك الوقت) ، وكان مثار كثير من الأحاديث بينهم ، ومناط آمال الكثير منهم ، ذلك هو مرور

عبد الله بن طاهر بها ، فى طريقه من الجزيرة إلى مصر ، إذ وجهه الخليفة اليها لإقرار السكينة بها ، ووضع حد للفتن الكثيرة التى كانت ما تزال تضطرب فيها ، وتفسد على الدولة أمرها .

وكان عبد الله بن طاهر شابا من أروع شبان عصره ذكاء قلب وبعد همة وسراوة نفس ، ومن أكثر المترفين فى ذلك الوقت اصطناعاً لمظاهر الترف فى صورها المادية والمعنوية. وقد جرى من ذلك على تقاليد الأمراء والسراة . وكان قد قضى اذ ذاك فى الجزيرة خمس سنوات أميراً عليها ، محاربا لنصر بن شبث الثائر على الدولة فيها ، فكان بها — طوال هذه الفترة — مثال الأمير النبيل بكل معانى النبل : شهامة وسخاء وأريحية ولطف حس . وكان السخاء طبعاً فى آل طاهر ، وخلقاً يحرصون عليه ويتواصون به . ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك — إلى جانب الأخبار المنثورة فى كتب الأدب والمحاضرات — فى هذه الفقرات من كتاب طاهر إلى ابنه عبد الله هذا ، حين ولى الجزيرة :

«ولا تدخلن فى مشورتك أهل الدقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من منفعتهم . وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت من أمر رعيتك من الشح . واعلم انك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك الا قليلا ، فان رعيتك انما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك بالافضال عليهم ، وحسن العطية لهم . فاجتنب الشح ، واعلم انه أول ما عصى به الانسان ربه ، وان العاصى بمنزلة خزى ، وهو قول الله عز وجل (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من افضل أعمال العباد ، فاعدده لنفسك خلقاً ، وارض به عملا ومذهباً» (١)

---

(١) أنظر : تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦١ .

اليه ، إذ كان معظم شعر هذه الفترة — أن لم يكن كله — قد تلاشى دون دون أثر يدل عليه الا تلك البقايا التي اشرنا اليها . ولولا الرواة المصريون ثم أبو عمر الكندي مؤرخ مصر الأول — وقد كان دقيقاً في تسجيل تاريخ هذه الفترة وتتبع الآثار الدالة عليها — لما اتيح لنا — في أكبر الظن — أن نعرف أن أبا تمام مدح ابن طاهر في مصر ، وذكر الموقعة بينه وبين ابن السرى ، بقصيدة من الشعر احتفظ لنا منها بتلك البقايا .

ومهما يكن من شيء فقد انتهت هذه المحاولات الشعرية الأولى التي التي انقطعت عنا أخبارها — وان كنا لا نجد بداً من افتراضها — إلى بعض الغايات المرجوه التي كانت تتبرج لأبي تمام وتتخايل في نفسه ، وهي أن يعقد أسبابه بأحد هؤلاء السراة ، يتخذه ممدوحاً له ، يصوغ فيه شعره ، ويظفر بأعطياته ، ويرضى بمثل هذه الصلة ذلك الغرور الذي كان يملأ نفسه ويملك عليه أمره . وكذلك لا نلبث حتى نرى أبا تمام متصلا بعياش ابن لهيعة الحضرمي — وقد سبقت الاشارة اليه — إذ يتقدم اليه بقصيدة محكمة الصنع ، يمدحه بها ، لعلها أول قصيدة رضى بها عن نفسه ، وأحس لديها أن شيئاً ذا بال في صناعة الشعر قد أتيح له . وقد حكى الصولي عن البحترى انه قال : «سمعت ابا تمام يقول : أول شعر قلته : — تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي — ومدحت بها عياش بن لهيعة ، فاعطاني خمسة آلاف درهم[(١)]» وإذا صح هذا القول عن أبي تمام ، وليس لدينا ما يعارضه أو ما يعتبر اعتراضاً عليه ، فانما يعني بذلك أول شعر رضيه ، أما ما كان منه قبل ذلك فكانما أهدره ولم يعتبره .

أما كيف اتيح لأبي تمام أن يتصل بعياش بن لهيعة هذا ، فان الشعراء يجدون سبيلهم دائماً إلى السراة ، والسراة من جانبهم لا يمتنعون على الشعر بل يرحبون به ويشجعون عليه . ولكن الأمر بالقياس إلى شاعر ناشيء مبتديء مثل أبي تمام يحتاج إلى شيء من النظر . وليس يبعد عندنا

(١) أخبار أبي تمام ، ص ١٢١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م

أن تكون هذه الصلة قد اتيحت له عن طريق صلته بالمسجد ، وبسبب من دراسته فيه وتردده بين حلقاته ، فقد يبدو أن عياشاً لم يكن غريباً عن المسجد ، بل كان ذا صلة قريبة به ، إذ كان — فيما يظهر — من أحد بيوت العلم والدين ، وأن اباه كان رجلا من رجال الحديث ، كما نجد الاشارة إلى ذلك فى بعض شعر ابى تمام فيه ، بعد أن فسد الأمر بينهما — كما سنرى ذلك بعد —فأخذ يهجوه ، وجعل يعرض— فى سياق الهجاء — بأبيه ، فكان مما قال فى ذلك هذا البيت :

ملاحم من لباب الشعر تنسى   قراة ابيك كتب ابى قبيل (٢)

فالرجل لم يكن ، إذن ، بعيداً عن تلك البيئة التى كان أبو تمام فى ذلك الوقت وثيق الصلة بها ، وهى بيئة المسجد ، فليس يبعد أن يكون ذلك أحد الأسباب القريبة التى هدته اليه ووصلته به . وإذ كان — إلى جانب هذا — رجلا من سراة أهل مصر المعروفين ، وقد تولى غير منصب للدولة . ثم كان مع هذا رجلا يمنياً ، يرجع فى عصبيته إلى الأصل الذى يمت أبو تمام به فقد كان فى ذلك كله ماشق السبيل أمامه اليه ، ومهدها له ، حتى اتصل ما بينه وبينه .

أما من هو أبو عياش هذا الذى أشار اليه فى ذلك الشعر ، فذلك مالا ندريه على وجه التحقيق ، وان كان الذى نستظهره انه لهيعة بن عيسى الحضرمى الذى تولى قضاء مصر — على ما يقول الكندى — من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٤ . ولعل «عيسى» الذى ورد فى هذا البيت من شعر أبى تمام فى مدح عياش :

كم دعوة لى إذا مكروهة نزلت   واستفحل الخطب : ياعياش ياعيسى

انما كان يعنى به «عيسى» جده ، أبا «لهيعة بن عيسى» هذا .

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٣

(٢) الديوان ، ص ١٢٨ .

فأما عياش نفسه فقد سبقت الاشارة إلى ما أورده الكندى عنه من أنه كان يتولى الشرطة ، فى ولاية سليمان بن غالب بن جبريل ، والى مصر فى عهد المأمون، سنة احدى ومائتين. ثم سكت عنه فلم يعد إلى ذكره بعد ذلك . على أن الشيخ يوسف البديعى يذكر فى سياق شرحه لبعض شعر أبى تمام أن عياش بن لهيعة الحضرى كان على خراج مصر وقت قدوم ابى تمام إلى مصر (١) . ومهما يكن من أمر ، وسواء كان حين امتداح أبى تمام اياه على بعض المناصب أم لا ، فقد كان واحداً من كبار أهل مصر ومن سراتها المرموقين . وقد رأينا — فيما افترضناه واستظهرناه — كيف كانت سبيل ابى تمام اليه . وكيف كان مبدأ صلته به

ولم تمض هذه الصلة هينة لينة مطردة ، وانما عانت صنوفاً من المحن وألواناً من التقلبات ، ولكنها كانت بذلك كله — فيما نرى — من خير ما اتيح لشاعرية أبى تمام ، إذ عرضت عليه ألواناً من التجارب النفسية أنضجت حسه وأمدت موهبته الشعرية بما أرفدها ووسع من آفاقها ، وأتاح لها أن تظهر مكنونها وتبرز خصائصها وتجدد ميادين نشاطها . وبذلك نحسب أن هذه الصلة بوجوهها المختلفة كانت بعيدة الأثر فى حياة أبى تمام الفنية ، جديرة بذلك أن يقف الباحث عندها ويطول تأمله لها.

وقد انتهت هذه الصلة التى بدأت صلة حب واعجاب ، بعد المحن والصروف التى تعرضت لها ، إلى القطيعه . وبذلك مر شعر أبى تمام فى عياش ابن لهيعه بأدوار ثلاثة ، على ما يمثله لنا ديوانه ، وهى المدح ثم العتاب ثم الهجاء . ويجدر بنا الآن أن نعرض هذه الأدوار الثلاثة، ونتبين — قدرما يتاح لنا — ما تكشف عنه من حالات أبى تمام النفسية وخصائصه الفنية فى كل منها

٧

يحتفظ لنا ديوان ابى تمام من مدائحه فى عياش بن لهيعه بقصيدتين ، أكبر الظن عندنا أنهما ليسا كل ما وجهه اليه من ذلك القبيل ، فانما ينبغى

---

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ، ص ١٨١ ، ط مصر ، ١٩٣٤ .

ان تكون مدائحه له أكثر عدداً ، ولاسيا إذا لاحظنا ماوجهه اليه فى قصائده التى صاغها عتاباً له مما يشير إلى انقطاعه اليه ، واكثاره من مدحه ، مما لا يكاد يتفق مع القول بانه لم يمدحه بأكثر من هاتين القصيدتين . ولكنا – على كل حال – نستطيع أن نتمثل فيهما هذا الوجه من أوجه علاقته بعياش ، وهذا الدور من أدوار نشاطه الفنى ، تمثلا كافياً .

أما أولى القصيدتين فهى التى سبقت الاشارة اليها فى حكاية البحترى عن أبى تمام ، وهى :

تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي وليس جنيبي ان عذلت بمصحب(١)

وأما الأخرى فقصيدة سينية مطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوساً(٢)

والمدح يكون باباً من أبواب الفن المعتبرة ، وصورة من صوره الجديرة به ، حين يكون صادق اللهجة ، صحيح التعبير عما يحسه الشاعر ويضمره صادراً عن تأثر نفسى بالممدوح واعجاب به واستجابة طبيعية لذلك التأثر فيكون الممدوح من الشاعر مصدر إلهام له ، ويصبح بذلك موضوعاً من موضوعات شاعريته . أما فيما عدا ذلك فليس – فى حقيقة الأمر – الا صناعة شعرية محضة ، ووسيلة غير كريمة من وسائل التماس العيش وطلاب المكسبة . فذلك هو – فيما نحسب – الفرق بين المدح الذى يتسم بسمة الفن ويستحق اسمه ويدخل فى نطاقه ، والمدح الذى لا يعدو أن يكون صناعة مفتعلة ملفقة ، وكلاما مزوراً متكلفاً ، فى الأصل الذى يصدر هذا وذاك عنه .

وإذ كان بينهما هذا الفرق فى مصدرهما وأصل وضعهما ، فلابد أن يكون بينهما – تبعاً لذلك – مثل ذلك الفرق فى الصورة الشعرية لكل منهما .

(١) ديوان أبى تمام ، ص ٢٠ – ٢٢ .
(٢) ديوان أبى تمام ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

فالمديح الذى هو صورة من صور الفن وتعبير من تعبيراته ينبغى أن يصور الشخص الممدوح كما تأثرت به نفس المادح ، وكما انطبع فى خيال الشاعر ، وعلى هذا وجب أن تكون شخصية الممدوح ظاهرة فيه ، متميزة بخصائصها وملامحها وقسماتها التى تنفرد بها ، كما تظهر فيه — إلى جانب ذلك - شخصية الشاعر وطابعه فى شعره من حيث انفعل بهذه الصورة ، وبذلك تكون قصيدة المديح صورة للممدوح حية نابضة ، ممثلة له ، معبرة عنه ، كأنها لوحة فنية ، كما تعبر عن شخصية المادح وذاتيته وتكون قصائد المديح بذلك أيضاً مجموعة من الصور تختلف كل واحدة عن الأخرى فيما تمثله وتعبر عنه ، بقدر اختلاف الأصل ، واختلاف الحالة الانفعالية التى صحبت القصيدة .

وأما المديح الذى هو صناعة شعرية فلا شىء من ذلك فيه : إذ كان المادح لا يصدر عن نفسه ولا عن انفعال خاص انفعله لقاء ممدوحه ، وانما هو ينظم ابياتاً يتملقه بها ، ويحاول أن يصوره فيها الصورة التى ترضي غروره ، فهو يلتمسها فى صفات المدح العامة المختلفة ، يتناولها ويأخذ فى تنسيقها وتلفيقها وصياغتها كما يصاغ الشعر ، ولكنها تجىء بالرغم من كل مابذله فيها وأسبغه عليها شيئاً لا حياة فيه ، ولا روح تنبض فى أجزائه ، ولا تعبير يصدر عنه . وقد تروع أحياناً ، ولكنها هى روعة الصناعة البارعة ، والصياغة المفتنة ، والحذق فى التأليف والتصنيف والتلفيق والتنسيق . ومن الطبيعى — إذ كانت كذلك — الا نجد فيها صورة الممدوح خاصة ، وانما نجد فيها — إذا وجدنا — صورة عامة ليست هى أجدر بالممدوح منه بغيره . وانما تختلف المدائح المصنوعة هذه الصناعة باختلاف القدرة على سبك التلفيق والاجادة فى وجوه التنسيق ، والبراعة فى الصياغة الشعرية .

ذلك هو — فيما نرى — الفرق بين نوعى المديح . وتلك هى الوجوه التى يبدو فيها هذا الفرق . ونحن نستطيع أن نتبين ما قررنا من ذلك فى دواوين الشعر التى بين أيدينا ، كما نستطيع أن نتخذه معياراً نزن به ونقدر على أساسه ما يعرض لنا من شعر المديح الذى درج الكثير من دارسى الأدب

على أن يطرحوه جملة واحدة . فأى منزلة من هاتين المنزلتين نستطيع أن ننزلها ذلك الشعر الذى بين أيدينا من مدح أبى تمام لعياش بن لهيعة ؟ أكان أبو تمام يصدر فى ذلك الشعر عن انفعاله بالممدوح وتأثره بشخصيته واعجابه بصفاته البارزة ، فكان شعره فيه صدى لذلك الانفعال ، واستجابة لذلك الاعجاب ؟ أكانت صلة أبى تمام بعياش صلة شعرية فنية على ماهو الأصل فى الفن ؟ أيستطيع ذلك الشعر أن يعرفنا بعياش بن لهيعه ، ويؤدى الينا صورة منه حية نابضة معبرة عنه ، ممثلة لخصائص شخصيته ، كما تلقتها نفس أبى تمام ؟

عياش بن لهيعة ، كما يقدمه الينا أبو تمام فى قصيدتيه اللتين اشرنا اليهما ، رجل عالى الهمة ، شديد البأس ، كريم فياض الندى ، رفيع المكانة بين قومه من حضرموت ويعرب . ثم هو — إلى جانب هذه الصفات — نافذ البصيرة إذا رأى شيئاً ، واضح العبارة إذا عبر عنه . هذه هى صورة الرجل قدر ما ما استطاع أبو تمام أن يصوره ويقدمه الينا فى شعره الذى مدحه به ، أو فى هذه البقية الباقية من ذلك الشعر . ثم لا شيء وراء ذلك الا طائفة من الصور البيانية للتعبير عن تلك الصفات التى ذكرناها لتلك الصورة . فهى — كما نرى — منبهمة شديدة الانبهام ، لا يكاد الناظر اليها يستطيع أن يتبين فيها شيئاً من الملامح الخاصة أو القسمات المميزة ، على كثرة ما فيها من صناعة التشبيه والاستعارة وما اليهما ، مما يبدو أن أبا تمام انفق فيه جهداً غير قليل . ولكن هذه الصناعة لا يمكن أن تخدعنا عن حقيقة تلك الصورة الأولية التى هى أدنى إلى الشيوع ، وأشبه بأن تكون صورة مفتعلة مصنوعة ، لفقت صفاتها من هنا وهنا ، ثم اسبغت عليها هذه المجموعة المتكلفة من التشبيهات والاستعارات

ذلك هو ما يبدو — بادىء الرأى — فى تفسير ذلك الانبهام فى الصورة وذلك الشيوع فى مدلولها . على أن هنالك اعتباراً آخر ينبغى الا نغفله ونحن نبحث هذه الظاهرة ونتبين أصولها ، لنقدر شعر أبى تمام فى ذلك اللون وفى تلك المرحلة . ذلك انه كان فى ذلك الوقت شاباً ناشئاً ، صغير السن قليل التجربة

حديث العهد بالمِرس بالرجال . والصغار لا يدركون — بطبيعة الحال — من الرجال الا صورهم العامة التي تأخذهم ، والخطوط الكبرى البارزة من شمائلهم ، أما الدقائق والتفصيلات فقل أن يملكوا القدرة على ملاحظتها. ومن طبيعة هذه الصور العامة أنها تصدق على الكثيرين ، فهي بذلك أدنى إلى الشيوع في أفراد الجنس منها إلى الاختصاص بواحد معين . فاذا نحن أخذنا هذا الاعتبار وجعلناه في موضع تقديرنا ، وجدنا الأمر هنا في مثل هاتين القصيدتين ليس أمر تكلف وتلفيق وتقليد فحسب ، ولكنه مع ذلك أمر السن وحكمه وطبيعته .

وهذا عندنا اعتبار صحيح ، وشعر أبي تمام في هذه المرحلة متأثر به ، خاضع له ، إلى حد بعيد .

ولكن أين شخصية ابي تمام المميزة له في هذا الشعر ؟ ولسنا نقصد شخصيته في الصناعة الشعرية والأسلوب الفني ، فليس ذلك مما يعنينا هنا . ولكنا نعني بذلك الشخصية التي تظهر أكثر ما تظهر في عاطفة الشاعر نحو الموضوع الذي يعالجه بالشعر . ولاريب أن هذه العاطفة تكون أشد رهافة وأكثر طواعية وأدنى إلى الانفعال والتأثر حين ينشيء الشاعر شعره ، فأين هي هذه العاطفة التي تتميز بها شخصية أبي تمام في حال انشائه لهاتين القصيدتين ؟ أنستطيع أن نرى فيهما ميوله وأهواءه وحركات نفسه ، فنرى فيهما صورة نفسية منه ؟

اننا حين نقرأ القصيدة الأولى لنتحس فيها هذه الناحية لانكاد نظفر بشيء ، فان الصناعة المتكلفة ، والصياغة التقليدية ، تكاد تستغرقها ، حتى ما يبدو شيء عداها ، الا شيئاً ضئيلا واهياً خافتاً ينم عن بعض العاطفة ، ولكنها مع ذلك شيء بعيد عما نحن فيه . انها عاطفة ابي تمام فيا يتصل بآماله في الممدوح ومطامعه التي جعلت تحلق فوقه وتحوم حوله ، لا فيا يتعلق بالممدوح نفسه ، كما قد يظهر ذلك في مثل هذا البيت :

تركت حطاماً منكب الدهر اذ نوى   زحامى لما أن جعلتك منكبي

وما اليه مما تبدو فيه عاطفته هذه ضعيفة خافتة، لا تكاد تبلغ نفس القارىء.

فأما القصيدة الأخرى السينية فانها تختلف من هذه الناحية عن القصيدة البائية اختلافاً غير قليل، فالعاطفة فيها ظاهرة قوية، تبلغ نفس القارىء في غير معاناة، كما يستطيع القارىء أن يتبين من خلالها شخصية ابى تمام واضحة جلية. ولكنها هي أيضاً لا تتصل بعياش ولا بصورته على الوجه الذى يمكن أن تنفعل به نفس الشاعر، إذ هي — في حقيقة الأمر — عاطفته هو وأحاديث نفسه خالصة من الالتباس بالممدوح، إذ يذكر بلده التي فارقها، وقد جعل يحس الأسى لفراقها، كما يذكر مسارح هواه فيها، ومغانى لهوه بين أرجائها. وقد أخذ نفسه بالسلو عنها، وجعل يرم بالتصبر ما تصدع من عقله لابتعاده عنها. ثم لا يكاد يملك التمادى في هذا التصبر. وذلك إذ يقول في هذه الأبيات الجميلة الرائعة التي تروع قبل كل شيء بصدق تعبيرها عن الاحاسيس التي كانت نفس الشاعر تضطرب بها، إذ تؤدى الينا صورة حية نابضة منها، تستطيع بحيويتها هذه أن تنفذ إلى أعماق مشاعرنا، وأن تشركنا مع صاحبها. وقد جعل أبو تمام هذه الأبيات فاتحة لقصيدته، ومقدمة لمدحته:

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً ورم بالصبر عقلا كان مألوسا
مرى رداء الهوى في حين جدته واهاً له منه مسروا وملبوسا
لو تشهدينى اقاسى الدمع منهمراً والليل مرتتج الابواب مطموساً
استنبت القلب من لوعاته شجراً من الهموم فأجنته الوساويسا
أهل الفراديس لم أقصد لذكركم الا سقى ورعى الله الفراديسا
إذ لا تعطل منها منظراً أنقاً وملعباً بهمى اللذات مأنوسا

فها هي ذى عاطفة قوية محتدمة تبرز بها شخصية ابى تمام في هذه الأبيات بروزاً واضحاً لاخفاء فيه، وها هو ذا شاعرنا قد استطاع أن يطوع الشعر للتعبير عن أحاسيسه، وأن يوفق بين ذلك وبين الديباجة العربية التي يبدو انه كان — منذ أول أمره — حريصاً عليها، وان اهدر مشاعره في سبيلها

ولكن أين فى هذه القصيدة تأثر أبى تمام بممدوحه ، وانفعاله بشخصيته ؟ وأين هى العاطفة التى يمكن أن يقال إنها صادرة عن ذلك التأثر ؟ أيمكن أن نقول أيضاً ، فى هذه المسألة ، كما قلنا من قبل فيما يتصل بقدرة أبى تمام على تصوير الممدوح فى صورة تبرز شخصيته ، ان الأمر متصل هنا كذلك بطبيعته من حيث صغر سنه وقلة تجربته وحداثة تمرسه بالحياة والناس ، فهى المسئولة هنا أيضاً عن مثل ذلك القصور ، إذ كان التأثر بالرجل شرطاً لابد منه لنشوء تلك العاطفة ، وإذ كان ذلك التأثر انما يجىء فى المكان الثانى من تقديره له ، والتقدير أمر لا يتاح للصغار ، إذكان محتاجاً ، أول شىء ، إلى التجربة والخبرة ، وأين هم منهما . ومن أجل ذلك جاء شعر أبى تمام فى عياش بن لهيعة شعراً مصنوعاً ملفقاً مقلداً ، لا ينبع من النفس . أيمكن أن نذهب هذا المذهب فى تأويل عدم وضوح شخصيته فى ذلك الشعر على الوجه الذى قدمنا بيانه ؟ .

قد يكون ذلك قولا مقبولا إلى حد ما فى تأويل ذلك الطابع التقليدى الذى نشهده غالباً على ذلك الشعر ، ولا سيما فى أبيات المديح الخالص .

ولكن مهما يكن من أمر هذا الاعتبار فانه لا ينبغى أن نغفل فى هذا المقام اعتباراً آخر ، لعله من أول ما يجب ملاحظته وتقريره فى هذا الصدد ، ذلك هو منزلة العنصر التقليدى فى الفنون جميعاً ، فهو عنصر أساسى لابد منه ولاغناء عنه ، على اختلاف فى المنزلة التى ينزلها بين هذا الرجل وذاك من رجال الفن ، ولكنه على كل حال عنصر له مكانه فى أصول الفن وله قدره وخطره . والأمرهنا ينبغى أن يكون أظهر أثراً ، ففى شعرشاعر ناشىء ، كأبى تمام فى هذه الفترة ، ما يزال يصدر — أكثر ما يصدر — فيما يتاح له من انتاج فنى ، عن تلك المثل الفنية المتمثلة فى شعر الشعراء المتقدمين ، وقد عكف عليها واستغرق فيها يتأملها ويطيل درسها ويتخذها إماماً له فى صناعته ، ويجعلها نصب عينيه فى كل ما يعالج ، فان ذلك العنصر التقليدى لابد أن يأخذ المكان الأول عنده ، وخاصة فى مثل صناعة المديح

التي يجد نفسه مضطرا لمعاناتها ، ويرى انها سبيله إلى المجد الأدبي الذي ينشده إذا استطاع أن يظفر برضا النقاد الذين اتخذوا من الشعر القديم معاييرهم •

ذلك هو الوضع الذي ينبغي — فيما نرى — أن نضع فيه شعر ابي تمام في مدح عياش بن لهيعه . فاذا كان هذا الشعر لا يرضينا من وجهة النظر الفنية التي قدمناها ، فانما كان ذلك شيئاً طبيعياً بالقياس الى شاعر ناشيء مثله ، يقتحم هذا الفن الذي يعتبر — في حقيقة الأمر — من أدق الفنون الشعرية وأشقها ، وأكثرها حاجة إلى الشاعرية القوية الناضجة ، تمدها معرفة واسعة ، وخبرة مستقصية ، وبصيرة بحقائق الرجال نافذة .

٨

لم تلبث علاقة ابي تمام بعياش بن لهيعة أن تراخت وفترت . فلم يعد عياش يرى في ابي تمام ما كان يراه فيه من قبل ، حين كان يقدره ويجزل له العطاء ، كما فعل في أول قصيدة توجه اليه بها ، فأعطاه فيها — كما سبق القول — خمسة آلاف درهم . ولم يعد يهش له ، ويقبل عليه، ويتحفى به ، كما كان شأنه معه أول أمره . فما عدا مما بدا ؟ ماذا عسى أن يكون هنالك مما جعل عياشاً يصرف عن أبي تمام وجهه ، ويصد عنه بجانبه؟ أيمكن أن يقال أن مدح أبي تمام له لم يقع منه بعد الموقع الذي كان يرضاه ، لأنه —كما رأينا — شعر متكلف مصنوع ، فكان ذلك سبباً في انصرافه عنه ، وتأبيه عن تقديره ومجازاته ؟ كلا ! ذلك فرض لا نرى انه قريب سائغ ، لا لأن شعر أبي تمام في قصيدته الثانية لم يكن دون شعره في قصيدته الأولى التي ظفرت باعجابه وتقديره ، فحسب، ولكن لأن ذلك الفرض يبعده عندنا أيضاً ما هو مألوف معروف من طبائع الناس الغالبة عليهم والمصرفة لهم ، وخاصة سراتهم وأهل الترف فيهم ، من استنامتهم الى من ينافقهم ، وعجزهم عن الاعتصام من نفاقه ، أو تبين زيفه وتكلفه . فهذه ناحية ضعف قل من بريء منها أو تغلب عليها ، ومن أجل ذلك قل ان نرى ممدوحاً من هذه الطبقة لم ينخدع فيما يقدم اليه من مدح ، فيراه متكلفاً مفتعلا لا حقيقة يؤمن بها المادح ويصدر

فيها عن نفسه ، ويعبر في ذلك الشعر عنها . انه قدر مشترك من الغرور والايمان بالذات في الناس جميعاً ، وكلما ارتفعت بالمرء طبقته ، واترفت حياته ، عظم من الغرور نصيبه ، وضؤلت قدرته على الحكم وتمييز الحقائق من هذه الناحية .

ولا نريد أن نقفو هنا ما ليس لنا به علم ، فلعله كان هنالك بين الرجلين من أسباب الجفوة ما لم يبلغنا شيء منه . وقد حكى ابن عبد ربه في الفصل الذي عقده على (من مدح أميراً فخيبه) أن حبيبا الطائي مدح «عياش بن لهيعة وقدم عليه مصر ، واستسلفه مائتي مثقال ، فشاور فيها زوجته ، فقالت له هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً ، فاعتل عنه ، واعتذر اليه ، ولم يقض حاجته . فقال فيه ...(١)» وهذا خبر لانريد أن نقف عنده ، إذ كان — فيما يبدو — من تلك الأخبار التي توضع للاستطراف . ولسنا نرى فيه ، ولا في طبيعة هذا البحث الذي نعالجه ، ما يجعلنا نبيح لأنفسنا أن نصدر عنه أو نستند اليه .

ان الأصل في مثل هذا البحث أن نجعل مصدرنا الأول هو شعر ابي تمام نفسه ، فماذا يمكن أن نصدر به عن هذا الشعر في هذه المسألة ؟ ألا يمكن أن نرى فيه مالعله يكون دليلا على ما كان هنالك ، مما جعل يدب بين ابي تمام وعياش بن لهيعة ، ويعمل في تغيير نفس عياش على صاحبه ؟

بلى ، في شعر أبي تمام اشارات صريحة إلى شيء من هذا ، إذ يشير إلى انه كان بين أصحاب عياش وأهل مجلسه من جعلوا يطلقون التهم في أبي تمام : وشاية به عنده ، وتهوينا من أمره لديه ، وايغاراً لصدره عليه . وذلك إذ يقول في احدى قصائده التي جعلها في معاتبة عياش ، يشير إلى هؤلاء ويصف نظرتهم اليه :

---

(١) العقد الفريد ١ : ٣٣٠ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

أظن عندك أقواماً وأحسبهم لم يألوا فى ما أعدوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضى وانتظار غد والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكرى ولا رقابهم الا وهم حيض
أصبحت يرى تباهاتى مخامله من كله لنبالى كلها غرض (١)

فقد كان أبو تمام إذن يرتاب فى هؤلاء «الأقوام» الذين يجالسون عياشاً ويتهمهم بأنهم هم الذين أوغروا صدره عليه ، وصرفوا وجهه عنه ، بما كانوا يبسطون من ألسنتهم فيه عنده . وذلك فيما نحسب قريب ، فليس عجيباً أن يثير أبو تمام ، وقد استطاع أن يبلغ من عياش ذلك المبلغ ، وأن يظفر منه فى أول مدحة يتقدم بها اليه ، بخمسة آلاف درهم . وهو مع ذلك رجل طارىء وشاعر ناشىء ، ليس عجيباً أن يثير بذلك الحسد والحفيظة ، ويملأ قلوب أصحاب عياش وجلسائه اضطغانا عليه وكراهية لمكانه من صاحبهم فلا يجدون الا أن يأخذوا مجالسهم عند عياش بالوقوع فيه والنيل منه ، ملتمسين بذلك أن يصرفوا صاحبهم عنه ، ثم لا يزالون به حتى يبلغوا ما أرادوا ، فيفسد ما بين الرجلين .

فهذه واحدة لا نرى فى أنفسنا حرجاً من أن نعتدها من أول ما أحدث تلك الجفوة بين أبى تمام وممدوحه عياش . بل هى — فيما نحسب — الأصل الذى جدت تتفرع منه وتتكاثر عنه وتنبنى عليه أسباب الفساد الأخرى ، حتى انتهت إلى غايتها ، وهى القطيعة . ولعلنا لا نبعد كثيراً إذا نحن اعتبرنا فى ذلك ما نعرفه على وجه ما من خلق أبى تمام فى هذه السن الغضة ، من اعتداده بنفسه ، ومبالغته فى المغالاة بقدره ، والتنويه بما يستطيع أن يبلغ بشعره ، مما هو أدنى إلى الغرور الصبيانى ، وأشبه أن يجعله بغيضاً ثقيل الظل ، إلى حد ما . وحسبنا لنتبين ذلك اللون من خلق ذلك الفتى ، أن نقرأ له هذا البيت الذى

---

(١) ديوان أبى تمام ، ص ٢٤٤ .

يختم به قصيدته فى عياش ، ويعقب به على ما يذكر من آلائه عليه ورعايته له :

وهاك ثياب المدح ، فاجرر ذيولها ، عليك ، وهذا مركب الحمد فاركب

أو قوله فى موضع آخر ، وهو يعاتبه ويريد أن يترضاه :

جش لى ببحر واحد أغرقك فى مدح أجيش لها بسبعة أبحر
كم من كثير البذل قد جازيته شكراً بأطيب من نداه وأكثر
واعلم بأنى اليوم غرس محامد تزكو فتجنيها غداً فى العسكر (١)

فتلك — كما نشعر فى ذلك الشعر — لهجة بغيضة ثقيلة ، وخاصة حين تكون صادرة عن شاعر ناشىء مبتدىء . وهى تكشف لنا عن مبلغ الغرور الفج الذى يضمره هذا الشاب وتمتلىء به نفسه ، كما نستطيع أن نرى منها أن مسلكه من ممدوحه — وغيره — كان تعبيراً غير متجمل عن هذا الغرور الفج الغفل الثقيل ، فى صور قد تكون مثيرة . وهو بذلك قد مكن للقلوب الحاقدة المضطغنه ، والألسنة الحاقدة المنبسطة ، للنيل منه ، وبلوغ مأربهم عند عياش فيه ، فلم يلبث أن رآه معرضاً عنه بوجهه ، ثم صارفاً العطاء دونه .

وحين نرى فى الأبيات الضادية التى أوردناها منذ قليل كيف كان موقفه من جلساء عياش ، وكيف كان حديثه عنهم ومواجهته اياهم ، فى عبارات نابية أقرب إلى الفحش ، نستطيع أن نتمثل إلى أى حد كانت طبيعة ابى تمام التى وصفنا مسؤوله عن ذلك الفساد الذى أصاب ما بينه وبين عياش

وهكذا انتهت فى صلته به المرحلة الأولى . وهى المرحلة التى يمثلها الديوان بالمديح ، وبدأت المرحلة الثانية التى نديرعليها الحديث فى هذا الفصل ، وهى المرحلة التى يمثلها الديوان بقصائد العتاب .

وقد احتفظ لنا الديوان من شعر هذه المرحلة بقصائد أربع ، لا ندرى إلى أى حد تمثل هذا الشعر فيها ، وها هى ذى ، كما وردت فى الديوان .

---

(١) الديوان ، ص ٣٤١ .

قصيدة رائية بدأها بالحديث عن نفسه ، مطلعها :

صدفت لهـــيا قلبي المســــتهتر فبقيت نهب صبابة وتفكر (١)

وقطعة صغيرة من ستة أبيات ، بدأها بقوله :

ليس يدري الا اللطيف الخبير أي شيء تطوي عليه الصدور (٢)

وقصيدة صغيرة ضادية ، أوردنا بعض ابياتها منذ قليل ، ومطلعها :

ذل السؤال شجي في الحلق معترض من دونه شرق، من تحته جرض(٣)

فأما القصيدة الرابعة فقد جاءت في الديوان في باب الهجاء منه ، وهي إلى معاني العتاب أقرب ،فاعتبرناها بذلك الاعتبار ، وضممناها إلى اخواتها وهي :

قلبت أمري في بدء وفي عقب ورضت حالي في جور ومقتصد(٤)

وهناك قصيدة أخرى أوردها الديوان في باب العتاب ، على انها مما قيل في عياش بن لهيعه ، وهي القصيدة التي تبدأ هكذا :

يضحكن من أسف الشباب المدبر فبكين من ضحكات شيب مقمر

ولكنا أغفلناها إذ ليست في عياش قطعاً ، وان ذكر ذلك في ترجمتها ولكنها — كما يؤخذ من القصيدة نفسها — في رجل اسمه جعفر ، وكنيته أبو الفضل . أما اسمه فيدل عليه من القصيدة هذا البيت :

يعجبن مني أن سمحت بمهجتي وكذاك أعجب من سماحة جعفر

---

(١) الديوان ، ص ٣٤٠ .

(٢) الديوان ، ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ، ص ٣٤٤ .

(٤) الديوان ، ص ٢٧٥ .

(٥) الديوان ، ص ٣٤٢ .

وأما كنيته فقد جاءت الاشارة اليها أيضا ، فى هذا البيت من القصيدة :

انى انتجعتك يا أبا الفضل الذى   بالجود قرب موردى من مصدرى

وإذا كنا لم نتبين — كما قررنا من قبل — فى الشعر الذى قاله أبو تمام فى مدح عياش بن لهيعه شيئاً من سمات الفن الشعرى أو المدح الفنى الذى ينبعث عن نفس الشاعر اعجاباً بالممدوح واكباراً له وتقديراً لمزاياه ومآثره ، والذى يتجه إلى تصوير شخصيته تصويراً واضحاً معبراً ، فان الأمر على خلاف هذا فيا بقي لدينا من الشعر الذى قاله فى معاتبته على انصرافه عنه ، واغفاله أمره ، إذ نستطيع فى يسر أن نتبين فيه كثيراً من الخصائص الفنية ، كصدق اللهجة ، وانبعاثه انبعاثاً طبيعياً من أعماق النفس ، والملاءمة بين المعنى والعبارة ، والبساطة فى التعبير دون تكلف أو تصنع — كما نتبين ذلك أيضاً فى القصائد العدة التى هجاه بها — وهذا الخلاف بين هذين النوعين من شعر أبى تمام فى هذه الفترة يرجع — بين ما يرجع اليه — إلى ما أشرنا اليه آنفاً من دقة فن المديح ووعورة مسلكه ، وحاجته أكثر من غيره إلى شاعرية ناضجة . كما يرجع مع هذا إلى أن فى المدح قدراً من الموضوعية فى حين أن العتاب — وقريب منه فى ذلك الهجاء — ذاتية خالصة أو كالخالصة ، والشاعر انما يعبر فيه عن نفسه وحدها .

لقد كبر على أبى تمام أن يقف عياش منه هذا الموقف ، وأن يصد آماله فيه ذلك الصد ، فلم يلبث أن أحس بالوخز ينال كبرياءه ، ويحاول أن يطاطىء من غروره ، فانتفضت نفسه ، وثارت كبرياؤه الجريحة به ، فانطلقت شاعريته تعبر عن احساس الوجيعة الذى أصابه فى أعز شىء لديه ، وهو كبرياؤه . وبذلك اتخذت ثورته النفسية هذه الصورة الفنية التى نراها فى ذلك الشعر ، وقد بدأت هادئة متلطفة مترفقة ، ثم أخذت تشتد قليلا قليلا ، وتعنف شيئاً فشيئاً ، بقدر ما كانت مشاعره تتعقد فى نفسه ، فيشتد احساسه بالوجيعة ، وترتفع صيحة كبريائه به ، إلى أن بلغت غاية الشدة

وانتهت إلى حالة من العنف لاتكاد تقف عند حد،ولا تكاد تبقى على شيء ، كما سنرى ذلك عندما نعرض لهجائه عياشاً .

وليس بنا فى هذه الدراسة أن نحلل قصائده الأربع فى معاتبته عياشاً تحليلا مفصلا ، ولا أن نطيل النظر فى خصائصها الفنية التى أجملنا الاشارة اليها ، ولكننا نكتفى من ذلك بتعرف صورة من حياته النفسية فى هذه المرحلة كما تتمثل فى شعره . وهذه الصورة هى التى ينبغى أن تكون أساساً لكل تحليل فنى .

هاهو ذا صاحبنا يدخل على عياش كما كان يدخل عليه . ولكنه يحس فى هذه المرة شيئاً لا عهد له به من قبل،يداخل جو المجلس ، ويبعث فى قلبه شعور الانكار ، فصاحبه منقبض الوجه ، لا يتهلل له ولا يتحفى به ، كما كان شأنه قبل اليوم فى استقباله . ما هذه الغشاوة التى تنتشر على وجهه وتحجب دونه ما كان يعرفه ويأنس له قبل فى أساريره ، من هشاشة وبشاشة ومن بشر وتطلق ؟ أما إن بابه لا يزال مفتوحاً له ، فلا حاجب من دونه يحجبه ، ومجلسه لا يزال متاحاً له ، فليس من يمنعه محضره . ولكن ما جدوى ذلك ، وقد قامت «الكآبة والبسور» اللذان يغشيان وجه عياش مقام الحاجب الشديد المراس ، فلا هو مستطيع أن يداخل نفسه ، ولا هو مستطيع أن يتبين فى وجهه ما يداخل تلك النفس من معان تثير الريبة وتبعث الحيرة ، ولكنه يحس ذلك التقبض فتشتد ريبته ، ثم لا يلبث أن يرى رأى العين إعراضه عنه ، وانصرافه بلحظه إلى غيره من أصحاب مجلسه ، فينصرف قلق النفس وقد جعلت أشباح هؤلاء الجلساء تمر أمام خاطره ، تنبعث منها الكراهية والبغض . ولم تملك شاعريته إزاء تلك الصور وهذه المشاعر إلا أن تعبر عن نفسها ، فانطلقت بهذه الأبيات التى يوجه فيها القول إلى عياش هيناً ليناً هادئاً مطمئناً ، وإن كانت روح القلق تترقرق فى خلالها :

ليس يدرى الا اللطيف الخبير	أى شىء تطوى عليه الصدور
ويقولون : انك المرء بالغيـ	ـب محام عن الصديق نصور

فاذا جئت زائراً حجبت وجهك عنى كآبة وبسور
تنطلق من العناية ان البشر فى معظم الأمور بشر
أنما البشر روضة ، فاذا كا ن يبذل فروضه وغدير
واقسم اللحظ بيننا ان فى اللحظ لعنوان ما تجن الصدور

فهل استطاع أبو تمام أن يبلغ بهذه الأبيات الهينة اللينة الملطفة المترفقة شيئاً ؟ هل استطاع أن يعطف صاحبه اليه فيرد إلى نفسه الطمأنينه الذاهبة؟ كلا ! بل لعل أصحاب مجلس عياش قد الفيح لم من خلالها منفذ جديد ينفذون منه اليه ، ويأخذون السبل عليه ، فيبسطون فيه السنتهم ، ويزيدون ما بينه وبين عياش فساداً . فهاهو ذا لا يزال ماضياً فى غوايته : يقرن نفسه بعياش ويضع نفسه منه — وأين هو منه ؟ — ذلك الموضع ، اذ يراه قرينه ، ويعتده صديقه ، ويقف منه موقف الند للند ، لا موقف الطالب المستميح من السيد الباذل المقصود ، وذلك فى الوقت الذى يعرض فيه بهم ، وبما ينالونه به فى مجلسه :

ويقولون : انك المرء بالغيـ ـب محام عن الصديق نصور

وهكذا جعلت نفس عياش تزداد صدوفا عن ابى تمام ، وأخذت الفجوة بينهما تمتد وتتسع ، كما أخذت تمتلىء باحاديث السوء التى هى بطبيعتها سريعة التوالد والتكاثر . وانقبضت يد عياش عن أبى تمام كما انقبضت نفسه ، وجعل صاحبنا يتجه اليه وهولا يلفت لفته ، ويرجوه وهو مغرق فى إعراضه . وضاق بذلك أشد الضيق ، وقد جعل «ذل السؤال» يمضه ، وكان يحس به كالشجا فى حلقه ، يعترض انفاسه ، «من دونه شرق ، من تحته جرض» . ولكن ماذا عساه يصنع ؟ «من يشتكى ؟ وإلى من يعتزى ؟ وندى من يجتدى ؟» كما كان يقول فى احدى قصائده ، فقد جعلت الحيرة تتقاذفه وتأخذه من عين وشمال ، وهو لا يكاد يملك ازاءها الا هذا الشعر يستروح اليه ويتنفس به . فهو حريص على كرامته أشد الحرص ، يشعرها شعوراً صادقاً قوياً تنفخ فيه كبرياؤه الغريرة ، فهو يملك عليه أمره كله ، اذ ليس فى

«ماء كف» عياش عوض يمكن أن يستعيضه عن «ماء وجهه» إذا هو أراقه وأفناه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجد له منصرفاً عنه ، ومطالب حياته تستحثه وتحفزه وتأخذ بأكظامه ، وتهبه من تلك الكبرياء ، فما بد من أن يغمض قليلا على القذى . وهكذا يظل يتردد على عياش يترضاه ويستميح عطاءه حولا كاملا ، ويقول له :

الفطر والأضحى قد انسلخا ، ولى ... أمل ببابك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نداك ، وإنما ... تتوقع الحبلى لتسعة أشهر

وعياش لا يزداد مع ذلك الا اعراضاً عنه وغضباً عليه واستخفافاً بأمره .

ولعل مثل هذا الأسلوب الذى كان أبو تمام يصطنعه فى شعره ، وهذه الاستعارات التى تشى بروح السخرية ، كان مما يثير عياشاً فيمعن فى موقفه منه . والحياة تعض أبا تمام بأنيابها وتنوشه بأظافرها . وقد جعل يعز عليه ويشق على نفسه أن يبتلى مرة أخرى بالضيق والشظف ، وأن تصوح آماله وأحلامه بالحياة الراضية والجد الأدنى بعد أن نضرت وتفتحت ولم يكد يخالجه، هذه المرة ، شك فى أنها نضرة دائمة . وانه لينظر فى هذه المحنة المحيقة به ، وهذا البلاء الموكل بآماله ، ثم ينظر مرة أخرى فى نفسه ، فلا يعرف لهذا الذى يحيق به مأتى . لكأنما كانت حياة أبى تمام نوعاً من «الطباق» ، كما كان فنه الشعرى ، فرضته الحياة على شخصه ،فذهب هو يفرضه على شعره ؛ ولكأنما كان هذا الاحساس بالتناقض فى الحياة ، وقد جعل يلح عليه ، هو الأصل فى ذلك اللون الفنى الذى فتن به ، وانصرف إلى الافتنان فى إسباغه على شعره .

وقد لجأ أبو تمام فى محنته هذه إلى التنفيس عن نفسه بالشعر ، يتسلى بصناعته من ناحية ، وينفث فيه همومه وآلامه من ناحية أخرى ، فلم يعد يقصر القصيدة على معاتبة عياش وتوجيه الحديث اليه ، بل جعل — إلى جانب ذلك — يتروح بالحديث إلى نفسه وتأمل ما عرض لها فى حياته الماضية والحاضرة ، ونرى صورة صادقة من هذا الاتجاه فى قصيدته الرائية :

«صدفت لها قلبي المستهتر» ، إذ يقول فيها — مثلا — بعد أن يعرض جانباً من ذكريات صباه ، وان لهذه الذكريات مكانها فيما يرجوه من تنفيس واسترواح :

ورأت شحوباً رابها فى جسمه	ماذا يريبك من جواد مضمر
غرض الحوادث ، ماتزال ملمة	ترميه عن شزن بأم حبوكر
سدكت به الأقدار ، حتى انها	لتكاد تفجوه بما لم يقدر
ماكع عن حرب الزمان ورميه	بالصبر ، الا انه لم ينصر
ما إن يزال بجد حزم مقبل	متوطئاً اعقاب رزق مدبر

وما أروع ذلك تعبيراً عن الضيق الذى يأخذ بأكظامه ، وتصويراً للاضطراب الذى يغشى حياته النفسية ، وشعور التناقض الذى يلح عليه ، بين ما يتذرع به من أسباب الظفر والسبق ، وما تفرضه الحياة عليه من الهزيمة والتخلف .

ثم يأخذ أبو تمام من ذلك فى محاولة صرف عياش عن موقفه منه ، فى أسلوب بين التلطف والشدة التى تحاذر أن تشتد . ولكنه فى خلال ذلك لا يفوته التعبير عن شعور الاعتداد بنفسه والامتنان بشعره ، وأن عطاء الممدوح مردود عليه ثناء مضاعفاً ، يرى بذلك انه يحقق شخصيته إزاء ممدوحه ، كما يحسب بذلك انه يثير الممدوح وينهضه ويرده اليه ، ولا يعلم المسكين أى أثر سيء تتركه هذه اللهجة فى نفس عياش ، فهو لا يزداد الا اعراضاً عنه وتجاهلا له . وتكاد نفس ابى تمام تتميز غضباً وغيظاً ، ولكنه يمسك نفسه المتميزة ، ويربط على مشاعره الثائرة المتفجرة ، ويحبس لسانه الذى يوشك أن ينطلق بعبارات الغيظة والسخط والموجدة ، فهو ما يزال يرجو العائدة ، كما يصور ذلك إذ يقول فى قصيدة أخرى :

قلبت أمرى فى بدء وفى عقب	ورضت حالى فى جور ومقتصد
فما فتحت فمى إلا كممت فمى	وما مددت يدى إلا رددت يدى

وهكذا بلغت الحيرة النفسية بأبى تمام ذلك المبلغ الشاق المؤلم ، فما يدرى بعد أى صنيع يصنع وأى سبيل يسلك ، وأى وجهة يوليها . على انه على أى حال يريد أن ينتهى إلى حد فاصل يقر عليه أمره ، وتنقضى به هذه الحيرة ؛ فاما رجاء محقق خليق لن ينتهى إلى غايته ، واما يأس مطلق يفضى إلى نوع من الراحة والطمأنينه . فهو يهيب بعياش فى هذه القصيدة قائلا :

قل قولة فيصلا تمضى حكومتها	فى المنع ان عن لى منع أو الصفد
يحصن بها منكبى ، أو يمتنع عضدى	أو يدنلى أمدى ، أو يعتدل أودى
أو التى طالما أفضت وعورتها	من الأمور إلى منهاجها الجدد

ولكنه لا يكاد ينتهى إلى هذه العبارة الحادثة عن نفسه الموجعة وجيعة الحيرة والقلق ، والوقفة الطويلة فى مفترق الطرق ، حتى تهيج به كبرياؤه الجريحة ، فاذا به يصيح بعياش قائلا ، فى لهجة أشبه بان تكون لهجة توعد وتهدد ، تنتفض بالثورة المكبوته . وهى على كل حال لهجة مغيظ محنق بلغ غاية جهده فى كظم غيظه وامساك غضبه وحفيظته :

ان كنت فى المطل ذا صبر وذا جلد	فلست فى الذم ذا صبر وذا جلد
فقل ، وراءك ، فى سحق وفى بعد	فانى فيك أهل السحق والبعد

وكانت هذه الصيحة اليائسة آخر ما قاله — فيما نقدر — مما ينم بسمة العتاب ، وتغلب عليه روح التجمل والابقاء . وهكذا فرغ من الحيرة والقلق ، إذ صرح له أمره على حقيقته ، ولم يعد هناك موضع لتعاله يتعلل بها ، فاطمأن إلى أحدى الراحتين ، كما يقال . وكأنما أخذته الانفه من هذه الضراعة ، ومما كان يستشعره فى موقفه ذلك من هوان وضعة ، فأنهى ذلك الموقف بهذه الصيحة . وبذلك انتهى من هذا الدور ، دور العتاب ، أو دور العلاقة الواهية المضطربة ، لتدخل علاقته بعياش فى دورها الثالث ، دور القطيعة الباتة ، يمثلها فى ديوانه الهجاء الصريح الذى لا تجمل فيه ولا مواربة ولا تلميح .

هذه هي القصائد والمقطوعات التي قالها أبو تمام – على ما جاء في ديوانه – في هجاء عياش بن لهيعه ، حين ضاق بالتماس الوسيلة إلى رضاه عنه واحتابه اياه ، فاندفع مع شاعريته يهجوه هجاء يعبر عما كان يملأ نفسه من مرارة وما كان يتضرم فيها من سخط وألم .

وكما رأينا ابا تمام بدأ عتابه عياشاً هيناً ليناً متأنياً مترفقاً ، كذلك نرى هذه الظاهرة هنا في هجائه ، إذ نراه يبدؤه في القصيدة التي افترضنا أنها أولى قصائده في هذا الدور الثالث ، في هدوء واناة وطمأنينه . كأنما يتأمل بشعره تأملا ، ويتحدث إلى نفسه حديثاً رفيقاً ، لا ثورة فيه ولا عنف كالذى سنلاحظه بعد في هذا الشعر ، وكأنه حين انتهى من تلك الحيرة التي كانت تأخذ عليه سبيله ، وكانت تعبث بحياته النفسية أشد العبث وتكيد لها أشق الكيد ، وتفرض عليها ألواناً من الجهد والمعاناه ، وحين بلغ من ذلك حالة اليأس ، أخذ يستشعر شيئاً من الروح ، كالمكدود حين يصل إلى نهاية الشوط فلا يكون من همه الا أن يجلس ليستريح ، وكذلك كان صاحبنا . فما إن بلغ تلك الغاية حتى انتحى بنفسه ناحية يستريح ويتأمل أمره ويستعرض ما مر به . ولا مكان بطبيعة الأمر في تلك الحال لشيء من الثورة والانفعال .

وهكذا نراه في هذه القصيدة التي اشرنا اليها هادئاً أو كالهادىء ، متمهلا متأنياً ، تغلب عليه روح ادنى إلى الحزن والأسى ، وهو يتحدث فيها عن نفسه حديثاً نشعر فيه شعوراً قوياً بالحزن الهادىء أو الهدوء المحزون وهو يكاد يرجع عليها باللائمة في خيبة الأمل التي حاقت به ، إذ يسترجع ماضيه مع عياش ، ويتأمل ذلك الرجاء الذى عقده به زمناً ، ثم لم يلبث أن انهار وتبدد وتلاشى :

رجاء حل من عرصات قلبي	محل البخل من قلب البخيل
ورأى هز حسن الظن حتى	جرى ماءاه في عرضي وطولى
فأجدى موقفي بدراك جدوى	وقوف الصب في الطلل المحيل

وأعكفت المنى فى ذات صدرى عكوف اللحظ فى الخد الأسيل
وكنت أعز عزا من قنوع تعوضه صفوح عن جهول
فصرت اذل من معنى دقيق به فقر إلى فهم جليل
فما أدرى : عماى عن ارتيادى دهانى ، أم عماك عن الجميل ؟

هذه هى الروح السارية فى القصيدة ، روح أدنى إلى الهدوء وأقرب إلى الحزن . وكأنه لم يكن يقصد فيها إلى الهجاء قدر ما كان يقصد إلى التسرية عن نفسه والتنفيس عن همومه ، والتعزى عن آلام الخيبة التى منى بها فى علاقته بعياش ؛ وهى خيبة لا ترجع — فى رأيه — اليه هو ، وانما ترجع إلى ذلك الرجل الذى ارتبط به، وعقد به اسبابه ، ثم لم يلبث أن انكره ، كما ترجع إلى موضعه ممن حوله ، بالمعنى الذى يشير اليه بقوله إنه صار «اذل من معنى دقيق ، به فقر إلى فهم جليل» ، واذن فليس يعدو هذا الهوان الذى يعانيه أن يكون أمراً طبيعياً بالقياس إلى رجل مثله ، يعيش بين قوم لم تهيأ نفوسهم لفهمه ، كالمعنى الدقيق الذى لا يجد فهماً قوياً نفاذاً يجليه .

لم يكن بأبى تمام — فيما يظهر — أن يهجو عياشاً إذ ذاك ، فقد كانت حالته النفسية على ماوصفنا ، ومن ذلك جاءت هذه القصيدة وليس بها من معانى الهجاء الا تلك التعريضات والغمزات العارضة ، تجىء فى سياق تأمله حالته ونظره فى أعطاف نفسه ؛ والا ذلك التهديد والوعيد ؛ يصدر عما يختفى وراء ذلك الحزن الهادىء من ثورة كامنة تأبى الا أن يكون لها مظهرها فى خلال تلك القصيدة . فهو مرة يقول لعياش فيها :

أعياش ! ارع أولا ترع حتى وصل أولا تصل ابداً وسيلى
أراك — ومن أراك الغى رشداً — ستلبس حلتى قال وقيل
ملاحم من لباب الشعر تنسى قراة ابيك كتب أبى قبيل

ومرة أخرى يوجه اليه الوعيد على هذه الصورة :

ويلك! إن جهلك سوف يجلو لك الظلماء عن خزى طويل
وأقلل ، إن كيدك حين تصلى بنيرانى أقــل مــن القــليل

هذه هي الحالات النفسية التي كانت تغلب على أبي تمام في هذه الفترة التي تعبر عنها هذه القصيدة . ومن ذلك جاءت وكأنما هي تمهيد لهذا الدور الثالث من أدوار علاقته بعياش . وكأنه كان يروض نفسه على ذلك المنهج الذي يريد أن يصطنعه ، ويرود ذلك الطريق الذي لم يتحله من قبل أن يسلكه. وإنما مرجع الأمر – في الحقيقة – إلى تلك الحالة النفسية التي رأيناها .

ولكن هذه الحالة قد انتهت بانتهاء هذه القصيدة ، وأخذت تلك الثورة الكامنة التي رأيناها تطل برأسها ثم تختفي ، تترك مكمنها وتبرز في الميدان صاخبة مجلجلة . وكذلك جعل أبو تمام يظهر لنا بعد تلك القصيدة وقد فارقته تلك الأناة ، ومضى عنه ذلك الترفق ، فهو مندفع في عنف عنيف وصخب صاخب ، لا يبالي شيئاً . قد ركبه شيطان الغضب ، واستولت عليه الرغبة العارمة في أن يثأر لنفسه المكلومة ، وكبريائه الجريحة ، وآماله الخيبة المردودة . وبينما نراه في تلك القصيدة التي وقف بها على رأس سبيله تلك الجديدة طويل النفس إلى حد ما ، قد بلغ بها الثلاثين من الأبيات وتجاوزها نرى شعره بعد ذلك ضربات قصيرة ، لاتكاد تبدأ حتى تنتهي ، فهي مقطوعات تتراوح بين الثلاثة الأبيات والاثني عشر ، لا يكاد يتجاوزها ، فهو فيها لا يصنع ولا يتمهل ولا يروى ولايتأمل ، فالثورة التي يضطرب بها صدره لا تدع له سبيلا إلى شيء من ذلك ، فليس الآن يعبر عن انفعالاته الثائرة ، ويستجيب لتلك الجروح التي ماتزال تنغر في أحشائه ، وتصرخ منها مشاعره .

ذلك هو الطابع العام لتلك الأهجيات ، وذلك هو الأثر الأول الذي تتركه في نفوسنا عند قراءتها .

فإذا انتقلنا من ذلك إلى الموضوعات التي اتخذ منها أبو تمام مادة لأهاجيه

بدا كأن أبرزها هو عربية عياش بن لهيعه ، وانكار ابى تمام لهذه العربية ، وتفننه فى ذلك ألواناً من التفنن ، وذهابه فى تصويره المذاهب المختلفة .

وقد كانت مصر تعانى فى ذلك الوقت فتنة شديدة بين عنصرى أهلها: العنصر الفاتح وهو العنصر العربى ، والعنصر الأصيل وهو العنصر القبطى ، واضطرب جو مصر بهذه الفتنة ، وكان من آثارها أو مظاهرها أن أخذ كثير من القبط يحاولون الانتفاء من قبطيتهم ، ويلتمسون تصحيح أنسابهم كما كانوا يقولون . ولكن الأمر لم يقف عند ذلك ، فقد أخذ العرب لقاء هذه المحاولة ينكرون عليهم ما يذهبون اليه من ذلك ، ويتهمون القضاة الذين آزروهم ، كما نجد شرح ذلك عند الكندى فى تبسط واستيفاء (١).

وقد شارك الشعر فى التعبير عن هذه الفتنة وترديد اصدائها مشاركة كبيرة ، فكان ذلك الموضوع من الموضوعات التى لج فيها الشعراء المصريون فى ذلك الوقت لجاجاً ظاهراً . فلا جرم كان من الطبيعى أن يتأثر أبو تمام بذلك الجو الذى يعيش فية وهو بصدد هجاء عياش ، فيكون أول ما يخطر بباله من معانى الهجاء أن ينكر عليه عربيته ، أو أن يضع هذه العربية موضع الريبة ، فى ذلك الجو الذى يموج بالريبة فى عربية هذا أوذاك من الناس ، وأن كثرت إشادته من قبل بيمنيته التى اتخذها وسيلته اليه وشفيعه لديه ، كما يبدو ذلك واضحاً فى الشعر الذى مدحه به ، ثم بعد ذلك فى الشعر الذى جعله فى عتابه . بل انه فى قصيدة الهجاء الأولى التى عرضنا لها منذ قليل لم يحاول أن ينفى عنه عربيته أو يمنيته ، بل يقرها ويثبتها له ، حتى فى سياق ذمه والتعريض به والتشهير ببخله ، وذلك اذ يقول :

كلا أبويك من يمن ، ولكن كلا أبوى نوالك من سلول

فهو عربى يمنى إلى ذلك الوقت . وقد رأينا من قبل حقيقة موقفه فى تلك القصيدة .

---

(١) الولاة والقضاة ، ص .

ولكنه ما يكاد يأخذ سبيله فى هجاء عياش حتى يكون موضوع عربيته هو المادة الأولى له .

ولكنا نلاحظ انه إذ يتناول هذا الموضوع يتدرج فى طريقة تناوله ، من التعريض إلى التصريح ، ومن الانكار الساذج إلى توليده والافتنان فيه ، حتى نستطيع أن نتخذ من هذا التدرج الواضح اداة تعيننا على ترتيب هذه الاهاجى ، بوضع كل منها فى موضعها بالنسبة إلى غيرها .

فهو يعرض به أولا تعريضاً خفيفاً ، إذ يقول :

ومالى أهجو حضرموت ؟ كأنهم ... أضاعوا ذماى ، أو كأنك منهم

وهو فى هذا البيت يكتفي بنفى حضرميته عنه ، دون أن يتعرض لعربيته ولكنه لا يلبث أن يقول :

بنى لحيعة ، ما بالى وبالكم ؟ ... وفى البلاد منا ديح ومضطرب
لحاجة بى فيكم ليس يشبهها ... إلا لجاجتكم فى أنكم عرب

فينكر عليه بذلك العربية اطلاقاً ، ولا يكتفى بالانكار الساذج ، بل يصوغه صياغة لاذعة ، ويورده فى سياق ساخر ، إذ يقرر ان فى ادعاء عياش العربية لجاجة لا تصل به إلى شيء ، كما لم يصل هو إلى شيء حين لج فى التعلق به ، وعقد الأمال عليه .

وكأنما قد انفتح بذلك أمام أبى تمام سبيل واسعة رحيبة فى العبث بعياش والتندر به والسخرية منه ، مستلهماً الجو الذى حوله ، فهو يمضى فيها ويوغل فى شتى مسالكها . يولد من ذلك المعنى شتى التوليدات ، ويفرع عليه مختلف التفريعات ، إذ كانت تلك المعانى والصور التى يصوغ أهجياته منها حية متصلة بالبيئة التى يعيش الرجلان فيها أشد الاتصال ، مشتقة من تلك الحالة التى كانت تسود المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، وتشغل من الأذهان حيزاً كبيراً ، فقد كان من الطبيعى أن تأخذ سبيلها مباشرة إلى مدارك الناس وأخيلتهم ، وبذلك كانت — ولاريب — من أخطر ألوان الهجاء أثراً ،

وأوضحها ميسما ، وأكثرها تحقيقاً للغاية التي اتجه الشاعر إليها . فقد استطاع بهذه المادة التي اتيحت له أن يضع من صاحبه ويحيطه عند الناس بجو يضطرب بالريب والشبهات ، ويجعله عندهم مثار التندر والعبث والسخرية ، وأن يثأر بذلك لنفسه المكلومة أشد الثأر وأروحه لها .

وإذا كان أبو تمام قد لج في الاتصال بعياش وعقد نسبه به — كما يقال له ويعير هو به — فهاهو ذا عياش يلج في الانتساب إلى العرب ، وكلا اللجاجتين شيء بغيض ، إلى انه باطل لا معنى له وينبغي الا يتشبث به أمل . وإذا كان قد اتجه اليه يرجو نائله ، وكان ينبغي أن يعلم أن ذلك باطل لا جدوى فيه ولا محصول له ، فذلك أشبه شيء برجاء عياش « العلا » حين يتوسل اليها بادعاء العرب وهو في حقيقة أمره قبطى صميم القبطية ، يتناسى أصله الذى جاء منه ، وكورته التي يرجع اليها بنسبه :

ورجوت نائلكم رجاءكم العلا ... بتذكر العلجان واليعضيد
ونسيت سوء فعالكم نسيانكم ... انسابكم في كورة البشرود(١)

ويالها من سخرية لاذعة ، لقد جعله ينسى نسبه ، وقد خلفه وراءه في « كورة البشرود » وأراد أن يصوره في صورة من ذهب به الحرص على الانتفاء من اصله مذاهب الغفلة ، إذ يظن أنه يتركه تلك الكورة . وبنسيانه ذلك النسب ، وقد خلع عنه قبطيته وتجرد من آثارها . وهيهات أن يبلغ بذلك النسيان شيئاً ، فلئن نسى نسبه فان نسبه لاينساه ، فذلك شيء لاسبيل إليه ، ولئن حاول أن يتجرد من آثار الجنس الذى ينتمى إليه فان آثار ذلك الأصل ما تزال قائمة به ، مصرفة حياته .

هيهات ! خف إلى الغايات لاحقها ... سبقاً ، واثقلك الخالوم والصير (٢)

---

(١) البشرود — كما يقول ياقوت — « كورة من كور بطن الريف في مصر ، من كور أسفل الأرض » (معجم البلدان ٢ : ١٩٠) .

(٢) الصير والخالوم كلمتان مصريتان قديمتان ، ولاتزالان مستعملتين في أفواه بعض العامة إلى اليوم .

وأخيراً بلغ أبو تمام من ذلك التهكم المرير والسخرية اللاذعة فى استغلاله ذلك المعنى وتوليده مبلغاً بعيداً ، فى قصيدته الميمية ، حيث يقول :

لما بدا لى من صميمك ما بدا	بل لم يصب لك — لاأصيب — صميم
جردت فى ذمك خيل قصائد	جالت بك الدنيا ، وأنت مقيم
الحقن بالحميز أصلك صاغراً	والشيح يضحك منك والقيصوم
طبقات شحمك ليس يخفى انها	لم يبنها آء ولا تنوم
ياشاربا لبن اللقاح تعربا	الصبر من يفنيه والحالوم
والمدعى صوران منزل جده	قل لى : لمن اهناس والفيوم ؟

وبمثل هذه الأبيات استطاع أبو تمام أن ينتصر لنفسه ، وقد وجد فى هذه الفتنة الشاملة التى كان المجتمع المصرى يضطرب بها فى ذلك الوقت مادة حاضرة مهيأة يصوغ منها هذه الصور ، كما أنها أتاحت له أن يجعل من أهجياته هذه شيئاً حياً ، لا يكتفى بان يحيط عياشاً بالريب فى مسألة خطيرة كهذه المسألة ، وانما يجعله إلى جانب ذلك موضع عبث وسخرية مريرة لاذعة ، تجد مكانها دائماً فى المجالس والمجتمعات . فهاهو ذا رجل من الرجال المرموقين ما يزال يجهد أشد الجهد ، ويصطنع كل وسيلة ، حتى يبدو عربياً ، ويعرفه الناس من أهل البادية . رجل سمين مكتنز الشحم طبقة فوق طبقة ، انى له ان يكون من هؤلاء الذين طعامهم الآء والتنوم ، مما لا يزال يلهج به ليعد من أهله ، كما يشرب ولبن اللقاح من أجل هذه الغاية ، وانما الصبر والحالوم طعامه ، نشأ عليهما فى اهناسيا والفيوم ، لاصوران التى يزعمها منزل اسرته .

وأبو تمام باثارته هذه الطائفة من المفارقات فيما يصور من حياة عياش ، وهذا التناقض بين حقيقته ودعواه ، وابراز ذلك فى مثل هذا الأسلوب الساخر ، جدير بأن يثير الضحاك ، وهو يزعم ، ساخراً ، انه بمثل هذا قد رده إلى أشجار الحميز التى يجهد فى الانتفاء منها ، وترك الشيح والقيصوم يقهقهان سخرية منه .

على أن اضطغان ابى تمام على عياش وحقده عليه كان أكبر من أن ينهه أو يستكين ، انما حفيظة شاب حاد العاطفة ، عصبي المزاج ، ممتلىء غروراً بنفسه ومغالاة بقدره ، وشاعر متوقد القلب مشبوب الخيال معتد بمكانه الشعرى ، أصيب من حيث كان يرجو ، فثارت به حقوده فلم يملك كبحها فاتخذ الهجاء يبثه آلامه وأحقاده . وكأن الأمر لم يلبث أن اتخذ فى نفسه صورة فنية . وهنا جعلت المثل الشعرية القديمة التى يقدمها اليه شيوخ الشعراء من أصحاب الهجاء الذين يروى أشعارهم ويتحفظها ويدرسها ، كجرير مثلا ، تدفعه فى تلك السبيل ، وتحفزه على الافتنان والتوليد .

ويظهر انه حين وقف من عياش ذلك الموقف ، ونصب نفسه لهجائه والتشهير به ، وانفتح له ذلك الميدان من ميادين الشعر العربى ، جعل يعارض نفسه بأولئك الشعراء الذين كانوا يثأرون لأنفسهم بقوافيهم ، والذين اتخذوا من الهجاء فناً عرفوا به ، فها هو ذا يسير فى سبيلهم ، ويحذو حذوهم ، ويأخذ مأخذهم . وان كان قد وجد معانى الهجاء منثالة عليه مما يمور به الجو حوله واستطاعت شاعريته أن تنهل منها على الصورة التى رأيناها . ولكنا لا نستطيع أن نغفل هذا العامل من عوامل توجيهه وإمداد شاعريته فى هذه المرحلة . ولعلنا نستطيع أن نلمح ذلك من خلال هذا البيت الذى يجيء فى احدى قصائد هذا الفن من فنون شعره فى هذه الفترة :

وبقيت ، لولا اننى فى طيء علم ، لقال الناس : انت جرير(١)

فلم يجيء «جرير» هنا اعتباطاً ، أو لأنه قعد فى طريق القافية كما يقولون ، بل لأنه كان من المثل الشعرية التى كان أبو تمام معنيا فى هذه الفترة خاصة بمدارستها وتحفظ آثارها .. وقد ظلت تراوده وتوجهه فى ذلك الهجاء الذى وقف نفسه عليه إذ ذاك أو كاد .

---

(١) الديوان ص ٢٧٩

ولقد ظل هذا الحقد الذي امتلأت به نفس أبي تمام على عياش مضطرباً فيها لا يكاد يجد سبيلا إلى الهدوء ، كما ظلت تلك الرغبة الفنية في رسم تلك الصور وصياغة ذلك الشعر مسيطرة عليه مستبدة به ، وكأن مارآه من قدرته على ذلك الفن ، وما خيل اليه من نجاحه فيه ، كان مماضراه عليه ، فمضى فيه حتى بعد أن قضى عياش نحبه ، فلم يحل موته بينه وبين الاستمرار في هجائه بل ظل مندفعاً في تلك السبيل، بل لقد اتخذ من موت عياش موضوعاً جديداً يستوحيه طائفة من المعاني والصور الجديدة ، يبني عليها هجاءه، ويزيده بها إقذاعاً وحدة .

وقد حفظ لنا الديوان مما جاء من هذا القبيل قصيدتين اشرنا من قبل اليهما بين مجموعة قصائد الهجاء ، وان كانت احدى هاتين القصيدتين مقدمة في الديوان الذي بين أيدينا على أنها مما قال أبو تمام في هجاء مقران المباركي وهي قوله :

لا سقيت أطلالك الداثرة ولا انقضت عثرتك العاثرة

ولكن نظرة فاحصة في غير كثير من الالحاح،ومقارنة هذه الابيات بما جاء من شعر أبي تمام في هجاء مقران،لا تكاد تدع لدينا شكاً في خطأ ذلك التقديم، وأن شيئاً من الخلط قد عرض له وداخله ، فوضع «مقران» موضع «عياش». أما تصحيح هذا الخطأ ، ورد القصيدة إلى من قيلت فيه ، فانما نرجع فيه إلى رواية ابن عبد ربه (١) ، فقد أورد ابياتاً منها وقدمها على انها في عياش، وكذلك يفعل البديعي (٢) .

وهذا المذهب الذي ذهبنا اليه يؤيده عندنا ما أشرنا اليه من المخالفة بين الروح التي كانت تملى على أبي تمام هجاءه عياشاً ، والروح التي كانت تملي عليه هجاءه مقراناً المباركي .

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٣٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ١٧٩ .

على أن الأمر فى هذا اللون من الهجاء، وهذا المسلك غير الكريم الذى سلكه أبو تمام فى تعقب عياش بالهجاء بعد موته، يرجع – فيما يخيل إلينا – إلى شيء آخر غير ما رأينا ، وهى تلك المثل الشعرية القديمة التى أخذ نفسه فى هذه الفترة – كما قلنا – بدراستها واحتذائها ، فهى مسؤولة أيضاً – إلى حد ما – عن ذلك ، فقد سلك جرير من قبل مثل ذلك المسلك، وجرير كان – كما قدمنا – من أول المثل الفنية الماثلة أمام أبي تمام، فقد مضت به خصومة الأخطل إلى حد أنه لم يعف عن هجائه بعد موته، إذ نرى فى ديوانه هذه القطعة يهجوه بها بعد أن قضى نحبه ، وهى التى يبدؤها بقوله :

زار القبور أبو مالك فكان كألأم زوارها (١)

فلا على أبى تمام أن يحذو حذو أستاذه ، ويسير فى السبيل التى سار فيها قبله .

وهكذا انتهى أمر أبي تمام مع عياش بن لهيعة ، وانتهت هذه المرحلة من تاريخ شاعريته .

١٠

كنا نتوقع خلال حملة الهجاء التى شنها أبو تمام على عياش بن لهيعة، متصلة محتدمة ، أن نسمع صوتاً آخر يتجاوب مع صوته ، ويتبادل الهجاء معه فنرى واحداً – على الأقل – من شعراء العصر المتصلين بعياش ، والحاقدين على أبي تمام ، يدفع عن عياش وينافح من دونه ، ويشتبك مع أبى تمام لينال منه ويرده على أعقابه . فتلك هى الصورة التى تفرضها طبيعة الأشياء فى مثل ما نحن فيه .

---

(١) ديوان جرير ، ص ٣٠٢ ، ط الصاوى ١٣٥٣ هـ

ولكن غموض هذه الفترة الذى يرجع إلى قلة العناية بتدوين أخبارها، وخاصة مظاهر الحياة الأدبية فيها ، ثم تعرض مادون من هذه الأخبار للضياع أو الاغفال، بسبب بعد مصر عن مركز الحياة الأدبية ، قد تركنا نعانى كثيراً من اضطراب الصور واقتضابها ، وبذلك لم نتمكن من معرفة الحقيقة الكاملة عن هذه الخصومة التى شنها أبو تمام على عياش ووجوهها الأدبية المختلفة . إذ كنا لا نكاد نشك فى أن هذه الخصومة الأدبية كانت ذات وجهين ، وان الطرف الآخر كان له ما يمثله فيها ، وان ضاعت أخباره ، وتقطعت الوسيلة اليها .

ولاريب أن أبا تمام لم يسلم من التعرض لهجاء بعض الشعراء المصريين له. ولسنا نقول ذلك استنتاجاً وتمشياً مع طبيعة الأشياء، ولكنه هو نفسه يشير فى بعض شعره إلى مناقضة هؤلاء الشعراء ومهاجاتهم له، وانتصاره عليهم، وذلك إذ يقول :

وعاو عوى ، والمجد بينى وبينه ... له حاجز دونى وركن مدافع
ترقت مناه طود عز لو ارتقت ... به الريح فترا لانثنت وهى ظالع

فأكبر الظن انه يعنى هنا شاعراً قصد اليه بالهجاء . ولكنه لا يلبث أن يصرح بذلك فى هذه القصيدة ، إذ يقول :

فكم شاعر قد رامنى فقذعته ... بشعرى فاسى وهو خزيان ضارع
كشفت قناع الشعر عن حر وجهه ... فطيرته عن فكره وهو واقع
بغر يراها من يراها بسمعه ... ويدنو اليها ذو الحجا وهو شاسع
يرد وداداً أن اعضاء جسمه ... إذا أنشدت شوقاً اليها المسامع (١)

وإذ كانت هذه الأبيات من قصيدة قالها فى مصر — كما سيجىء القول — فان فيها دليلا واضحاً على أن أبا تمام خاض طائفة من المعارك الأدبية

(١) ديوان أبى تمام ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

مع بعض الشعراء المصريين ، وإن كنا لا نستطيع أن نتبين أكثر من هذه الدلالة : فترى من هم هؤلاء الشعراء الذين كان يهاجيهم ، وفيم كانت هذه المهاجاة ، وعلى أى صورة انتهت .

وإلى جانب ذلك نجد الرواة يذكرون أن مهاجاة نشبت بين ابى تمام وبين الشاعر المصرى يوسف السراج ، ثم زادوا على ذلك أن أبا تمام هزم فى هذه المهاجاة ، وأنه من أجل ذلك يعد من الشعراء المغلبين .

على أنه لم يبق لنا من أخبار هذه المهاجاة الا هذا الخبر المقتضب ، كما لم يبق لنا من مادتها الا ما يمثل الطرف المغلب الذى لم يلبث أن أفحم وغلب على أمره ، كما يزعمون عن أمر أبى تمام فيها . أما يوسف السراج ، صاحب الغلبة فى هذه المعركة ، فقد ذهب ما يصوره ويمثل جانبه فيها ، فلم يبق لنا من شعره فيها — كما لم يبق لنا من أخباره وصور حياته عامة — شيء .

ولكننا لا نملك القول بأن هناك صلة بين هذه المهاجاة التى نصوا على نشوبها بين أبى تمام ويوسف السراج ، وبين تلك الأبيات التى أوردناها ، فلا نستطيع بذلك أن ندعى أن ذلك «الشاعر» الذى أشار اليه أبو تمام فيها هو يوسف السراج هذا ، فأكبر الظن أن أبا تمام تعرض فى مصر لاكثر من هجاء ، وواقف فيها أكثر من شاعر ، كما نرى فى قوله : «فكم شاعر قد رامنى فقذعته...» . وان كان الأمر فى مثل هذه الصلة يمكن أن يدخل فى باب الاحتمال . وكذلك لا نملك القول بأن هذه المهاجاة بين أبى تمام ويوسف السراج كانت بسبب من ذلك الهجاء الذى شنه أبو تمام على عياش ابن لهيعة ، وأنها كانت وجهاً من وجوه هذه الخصومة التى اندرس معظم آثارها ؛ وإن كان ذلك أيضاً من الفروض المحتملة ، ولكن لا دليل عليه ، ولا شبهة تنزع بنا إليه . وليس فى الشعر الذى بقى من آثار المعركة الأدبية بين أبى تمام ويوسف السراج — وهو كما قلنا من شعر أبى تمام وحده — أدنى اشارة يمكن أن نعتمد عليها فى هذا .

وقد بقي لنا من هذا الشعر قصيدتان : بائية وجيمية ، أما أولاهما فيبدؤها بقوله :

أيوسف ، جئت بالعجب العجيب ... تركت الناس فى أمر مريب (١)

وأما الأخرى فهذا مطلعها :

أمسك ! بل اسمك لو تم هجاجى ... فلتأمن هدوتى وأجاجى(٢)

وتكاد تكون هاتان القصيدتان المصدر الوحيد لنا فى تعرف يوسف السراج ، وتصور شيء من جوانب شخصيته،بل لعلنا نستطيع القول بأنها القصيدة الأولى وحدها التى يمكن أن نجد فيها ما قد يلقى بعض الضوء على هذه الشخصية . وفيها يقول أبو تمام ما يمكن أن نستنتج منه أن يوسف السراج كان شاعراً عالماً ، من هؤلاء الذين أخذوا أنفسهم بقراءة علوم الأوائل التى بقيت مصر تردد أصداءها حتى غلب عليه ذلك وظهر أثره فى شعره ، فجاء من أجل ذلك غامض المعنى مستهلك العبارة ، جافاً لا ماء فيه ، ولا رونق له . وذلك اذ يقول أبو تمام يصف شعره بهذا الأبيات التى مازال علماء الشعر يلوكونها ويمضغونها :

فلو نبش المقابر عن زهير ... لصرح بالعويل وبالنحيب

متى كانت معانيه عيالا ... على تفسير بقراط الطبيب؟

وكيف ؟ ولم يزل للشعر ماء ... يرف عليه ريحان القلوب

فهذه احدى صفتى شعر يوسف السراج فى اعتبار ابى تمام وتقديره. ومهما يكن من أمر الخصومة وما تحمل عليه من الرغبة فى التشويه ، فالأصل الذى استنتجناه باق صحيح .

---

(١) الديوان ، ص ٢٦٩ .

(٢) الديوان ، ص ٢٧٢ .

وأما الصفة الأخرى فهي مجانبته الألفاظ المألوفة وميله إلى الغريب يستعمله في شعره ، على ما جاء في كلام ابي تمام عنه في هذه القصيدة إذ يقول :

فـالك بالغريب يد ، ولكن تعاطيك الغريب من الغـريب

وإذن فقد كان يوسف السراج من هؤلاء الذين انحرفوا بالشعر عن سبيله المرسومة منذ عهد «زهير» كما يقول أبو تمام ، أو أنه كان بعبارة أخرى من أول الذين خرجوا على «عمود الشعر» المعروف ، وذهبوا به مذهباً جديداً في تكلف المعاني والصور والألفاظ ، واقتحام «معاني الأوائل عليه ، أو التأثر بها في تكوين صوره وصياغة عبارته ،» والميل إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة » على حد تعبير الآمدي في صفة شعر ابي تمام نفسه . وكذلك كان يفعل في ألفاظ شعره ، إذ يترك الكلمات المألوفة المتعارفة ، التماساً للغريب .

فهذه بعض الخصائص الفنية لشعر السراج كما يمكن أن نستنتجها مما يريد أبو تمام أن يقدمه الينا عنه في هذه القصيدة ، وتلك هي بعض ملامح شخصيته : شخصية رجل عالم شاعر ، يخضع الشعر للعلم ويطعمه به .

وأما القصيدة الثانية الجيمية فليس فيها الا صور من الهجاء الفاحش المقذع يقذفه أبو تمام غير متجمل ولا متورع . وكما رأينا المثل الشعري من جرير ماثلا في خاطر أبي تمام في هجائه عياش بن لهيعة بعد موته كذلك نرى هنا هذا المثل في ذلك الأسلوب الذي اصطنعه في هجاء يوسف السراج ، فقد تأثر — فيما يبدو — أستاذه في الافحاش فأفحش ، وجاءت قصيدته هذه مجموعة من المثالب المكشوفة العارية . ولعل هذه هي المحاولة الأولى من أبي تمام لهذا اللون من الشعر ، ثم نراه بعد كثيراً في شعره، في نحو مقران المباركي.

١١

ماذا كان من أمر أبي تمام بعد أن أعرض عياش عنه ؛ ومنعه ما تعود أن يجريه عليه ويرفده به ؟ أما انه ليس لنا في هذا الموضع إلا أن نرجع

إلى الديوان نتعرف ما عنده ، ونحاول أن نستشف ما عسى أن يكون من ذلك فيه ، على الرغم مما نحن على يقين منه من أن شعر أبي تمام قد ضاع منه قدر غير قليل . وخاصة مما قاله فى فترة مقامه بمصر ، وأن الديوان لا يمثل حياته الأدبية فيها تمثيلا شاملا دقيقاً .

والواقع أننا حين نرجع إلى الديوان نراه لا يصرح بشيء فى جواب هذه المسألة تصريحاً يطمأن اليه . ولكنا مع ذلك نستطيع بشيء من مد البصر واستبطان الكلام أن نلمح فيه بعض الاشارات الخاطفة التى قد تدل على أن أبا تمام اتجه ، حين فترت الصلة بينه وبين عياش ، إلى قوم غيره يمدحهم ويلتمس رفدهم ويستعيض بهم ، وذلك فى إحدى قصائده التى يعاتب بها عياشاً ويستعطفه ، إذ يقول :

.. ثم انصرفت إلى نفسى لأثأرها — إلى سواكم ، فلم تهشش إلى أحد
ومدح من ليس أهل المدح أحسبه — روحي تفصل من قلبي ومن جسدى
قوم إذا أعين الآمال جانبهم — رجعن مكتحلات عائر الرمد
وطلعة الشعر أقلى فى عيونهم — وفى قلوبهم من طلعة الأسد
ما أن ترى غير منشور على فند — فى الناطقين ومطوى على حسد (١)

فقد اتجه أبو تمام إذن إلى غير عياش ، وحاول أن يعقد صلته به ، ويتخذه ممدوحاً له — ومن يدرى ؟ فلعل ذلك كان من جملة الأسباب التى جعلت توغر صدر عياش عليه ، فهو فى استعطافه يحاول أن ينتفى منه — ولكنه أخفق فى هذه المحاولة ، فلم يجد لديه شيئاً مما كان يطمح اليه ؛ وانما وجد هؤلاء الجلساء الذين وصفهم فى البيت الأخير ، والذين شقى بهم أبو تمام شقاء غير قليل ، أو شقى بنفسه معهم ، فى كل ناحية ينتحيها وكل مقام يقوم فيه .

(١) الديوان ، ص ٢٧٥ .

لقد جعل أبو تمام يتخبط — فيا يبدو — فى التماس ممدوحين له ، يعيش فى ظلهم ، ويحتمى بكنفهم ، ويلتمس حياته عندهم ، ويحقق لديهم شاعريته ، ويستشرف فى مجالسهم المجد الأدبى الذى يتطلع اليه . ولكنه كان لا يلبث حتى تعترض سبيله تلك المثالية الغريرة أو ذلك الغرور الصبيانى ، فيفسد عليه أمره ، واذا به يتجرع الفشل وخيبة الأمل .

ولعل هذه الحالة لم تطل بأبى تمام كثيراً — وان كنا نحسب انه عانى فيها جهداً مريراً — فانه ليصبح ذات يوم من أيام سنة ٢١٤ ، فاذا على مصر وال جديد قدم اليها من خراسان ، ليضع لهذه الفتنة العارمة التى مازالت مضطرمة حداً تقف عنده وتنتهى به . وجعل الناس يتسامعون بباسه وقوة شكيمته ، كما كانوا يتسامعون بنبله وجوده وأريحيته ، وعظم بقدر ذلك فيه رجاؤهم أن تزول به عنهم تلك الشدة ، وتنقطع الفتنة التى عبثت دهراً بحياتهم . وكذلك استشرفت آمال صاحبنا أبى تمام له ، وتطالت نحوه . وقد رجا أن يكون فى مقدم هذا الأمير ما يضع حداً لهذه المحنة التى اتيحت له ، والفتنة التى يضطرب بها صدره ، ويفسد عليها أمره . ثم لا يلبث حتى يتقدم اليه ويعقد به صلته ، ويجعل نفسه فى حاشيته .

ذلك الوالى هو عمير بن الوليد (١) ، واتصال ابى تمام به أمر ثابت تقرره هاتان القصيدتان اللتان نراهما فى ديوانه ، يرثيه بهما ، رثاءً صادقاً نحس فيه شعور الحسرة والفجيعة وطغيان الأسى . ولكن اين مدائحه فيه ؟ أترى لم يتح لأبى تمام أن يتقدم اليه مادحاً ؟ أم كان ينتظر المناسبة تلوح له فيا قدم مصر من أجله ، يرفع إليه فيها مدحه ، وينوه بجميل أثره ، ولكن القدر انقض على هذه المناسبة ؟ أم أنه قد مدحه ، ولكن مدحه هذا قد ضاع فى الكثير الذى ضاع من شعر هذه الفترة ؟ كل هذه فروض محتملة ، وان يكن الأخير أقربها فيا نرى . أما مقطع الحق فى ذلك فلا سبيل اليه .

---

(١) يذكره القلقشندى باسم عمرو بن الوليد التميمى . ولعل فى الأمر تحريفاً . انظر : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٧ .

والواقع أن الأمر لم يطل بعمير بن الوليد فى مصر أكثر من ستين يوماً ذهب بعدها ضحية هذه الفتن العنيفة الجارفة التى جاء مصر لاخمادها والقضاء عليها ، فيما كان يرجو هو ويرجو الذين اختاروه وبعثوه لها . فأخذته هى وقضت عليه . وفى صفة ذلك يقول الكندى : «... واستعد عمير لحرب أهل الحوف ، وبعث بعبد الله بن حليس الهلالى إلى الحوف ليصلح أمر قيس ، فعقدوا له عليهم ، وأقام بأمر اليمانية عبد السلام بن أبى الماضى الجدامى ، ثم الجروى ، فسار إليهم عمير فى جيوشه ، وتبعه الجارودى عيسى بن يزيد ، والتقى الفريقان بمنية مال الله ، فانهزم أهل الحوف ، فتبعهم عمير ، فعطف عليه كمين لأهل الحوف ، فقتلوه بالبهودية...» (١) .

وهكذا انتهى وشيكاً ذلك الرجل ، وهكذا فجع القضاء أبا تمام فى آماله التى كانت قد بدأت تتنفس وتتفتح وتنتعش ، فلم تلبث حتى تقبضت وانضمت على نفسها ثانية ، حين عاجلها الموت فى ذلك الكمين الذى كان يتربص بعمير وكأنما كان يتربص بهذه الآمال أيضاً ؛ وأحس أبو تمام الفجيعة تواثب نفسه إلى أعماقها . وقد بقى لنا من آثار هذه الهزة النفسية التى عاناها بموت عمير هاتان القصيدتان اللتان أشرنا منذ قليل إليهما ، وإحداهما هى التى يبدؤها بقوله :

أعيدى النوح — معولة — أعيدى وزيدى من بكائك ، ثم زيدى (٢)

وأما الأخرى فهى :

كف الندى أضحت بغير بنان وقناته أمست بغير سنان (٣)

ويشير فى رثائه هذا إلى تلك الموقعة التى امتحن بها عمير بن الوليد ، كما امتحنت بها آمال أبى تمام ، ويذكر انقلاب الأمر فيها على النحو الذى

---

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٨٥ .

(٢) الديوان ، ص ٣١٢ .

(٣) الديوان ، ص ٣٣٦ .

بصوره الكندى فيما نقلنا عنه ، ولكنا نحس فى ذلك أنه انما يعبر عن انقلاب الأمر فى نفسه وشيكاً ، وذلك إذ يقول :

يا وقعة مفتوحة بكرامة لو لم تكن مختومة بهوان
بدأت فعاد الكهل غراً ناشئاً وثنت فشاب أصاغر الولدان

فانما هى نفس أبى تمام بين زهو الكرامة وضآلة الهوان ، وبين خفة الرجاء يفيض عليها صفات الصبا والغرارة ، وبين ثقل اليأس يبسط عليها سمات الشيوخ ، ويلزمها التوقر والتقبض ، ويشعرها بمشاعر الحياة الفانية المدبرة . ولسنا نريد أن نقف طويلا عند هذا الرثاء الذى جعل أبو تمام ينفس به عن فجيعته ، ويعبر فيه عن آماله المكبوته المقموعة ، فكل بيت من قصيدتيه هاتين عبارة عن أنة أو زفرة أو حسرة ، ملونة بهذه الألوان القاتمة الغالبة على نفسه .

على أنا نستطيع أن نتبين بين هذه الألوان القاتمة التى تبعث الأسى لوناً آخر بعيداً عن هذا القتوم ، يلمح بينها لمحا خفيفاً ، ويومض من خلالها ومضاً خاطفاً ، ومضة البرق بدا ثم اضمحل . فقد كان هنالك إلى جانب شعور الفجيعة المطبق على نفس أبى تمام شعور آخر يحاول أن يقتحم عليه ويداخله ويهنه منه ، وهو شعور الرجاء . ولو انه كان خافتاً غامضاً مضطرباً يتسلل فى حذر ، إلا أنه جعل يمسح مسحاً رفيقاً بيده الرقيقة على تلك الأحزان يحاول تلطيفها ، وأخذ بصيصه الضئيل يشع من خلال تلك الظلمات المتدجية يريد أن يكشف منها . وكان مبعث ذلك الرجاء هو سليل الراحل الشهيد ، محمد بن عمير بن الوليد ، وقد كان فى ابان ولاية ابيه يتولى بعض المناصب فى مصر ، إذ كان على شرطتها إذ ذاك .

فلم تكد نفوس أصحاب عمير تفيق من أثر البغتة التى أصابتها بها تلك الفاجعة ، حتى أخذت تنظر إلى ابنه محمد هذا ، وجعل نزوعها الطبيعى إلى التعزى يلتمس أسبابه فى ذلك الرجل ، كما أخذت الآمال التى بددتها

تلك الفاجعة تتجمع شيئاً فشيئاً حوله ، وتعصب به ، وإذا بالقوم يتجهون إليه ليكون في مكان أبيه والياً على مصر . ولعلنا نستطيع أن نتبين هذه الرغبة من وراء بعض أبيات الرثاء ، فأكبر الظن أن أبا تمام حين يوجه بعض القول إلى الخليفة في خلال رثائه ، متحدثاً عن عمير ومكانه في نفوس أهل مصر وبلائه في قتال أصحاب الفتنة ، وقضائه بذلك حق الدولة ، انما كان يرمي من وراء هذا إلى أن يوجه نظر الخليفة إلى ابنه محمد ، رعاية لحق ابيه، ومكافأة له على ما أبلى من بلاء لم يمهله ، فلم يلبث أن عاجله الموت، دون أن يستمتع بالولاية . أو لعله كان يردد ما كان أصحاب عمير يديرونه بينهم، ويودون لو يبلغ الخليفة ، وذلك إذ يقول :

ألا أبـلغ خـليفتنا مقـالى	وأبلغه الأمين بن الرشيد (١)
بأن أميرنـا لم يـأل عـدلا	ونصحا في الرعايا والجنود
أفـاض نوال راحتـه عليهم	وسامح بالطريف وبالتليد
وأصحر دونهم للموت ، حتى	ســقاه الموت من مقر هبيد
ومـا ظـفروا به حتى قراهم	قشـاعم أنسر وضـباع بيد

فهذه الأبيات التي يتجه بها أبو تمام إلى الخليفة ، وإلى أمير مصر، والتي يقصد فيها قصداً إلى التعبير عن مكانة عمير بين المصريين لكرمه وأريحيته وشدة بأسه ، تكاد تكون تعبيراً صريحاً عن تلك الرغبة .

وقد تم لأبي تمام وأصحاب عمير بن الوليد ما أرادوا ، وتحققت رغبتهم لدى الدولة ، فولت محمد بن عمير على مصر ، وانتعشت آمال أبي تمام لهذه الولاية ، وهي الآمال التي تنطق بها وتعبر عنها هذه الأبيات التي جعلها ختاماً لاحدى قصيدتيه في رثاء عمير ، وذلك إذ يقول :

---

(١) يقصد بالأمين بن الرشيد أبا اسحق محمد بن هارون (المعتصم) الذي كانت له إمارة مصر والشام في ذلك الوقت ، وكان ابيه أمر ولاة هذا الإقليم في توليتهم وعزلها . وكا نقب المعتصم هـ بلقب الأمين كذلك اطلقه أبو تمام على المأمون في قوله :

هذا أمين الله ، آخر مصدر شجى الظماء به وأول مورد (الديوان ص ٨٦)

فمحمد كهف الكهوف وعدة الملهوف من عاف رجاه وداني
خال ما لسوحل أصغره على شهلان لانهدت ذرى شهلان
وإذا تدنست الرجال ، فانه عف السريرة طاهر الاعلان
يحكي فعال أب كريم في ندى وشجاعة وبلاغة وبيان
فلأشغلن بمدح ذا وبندب ذا أبداً لساني ، ما ملكت لساني

وهكذا استشرف أبو تمام لهذا الوالي الجديد ، يتخذه ممدوحاً له ، وموضوعاً لشاعريته ، وسبباً من أسباب المجد الأدبي الذي ينشده ، والحياة الرخية الراضية التي يرنو اليها . ولكن...

١٢

ولكن العهد لم يطل بمحمد بن عمير في هذه الولاية ، فقد كانت أقصر من ولاية أبيه التي اقتضيها القضاء ، بل هي نصفها ، إذ لم تعد الشهر الواحد . وأصيبت آمال ابي تمام مرة ثانية ، ولم تكد تمس الروح . ولعل محمد بن عمير لم يجد وجهاً للاقامة في مصر بعد عزله عن ولايتها ، فعاد إلى موطنه في خراسان ، ومن ذلك — فيما نقدر — أننا لا نجد في ديوان أبي تمام مدحاً له غير هذه الأبيات التي جاءت في سياق رثائه لابيه ، وان أقسم فيها ان لا يزال مشغولا بمدحه .

وهكذا انقضت هذه الأشهر الثلاثة التي كانت نفس أبي تمام فيها مسرحاً للمشاعر المختلفة ، تتقلب عليها وتعبث بها ، على النحو الذي رأينا ، فهي دائمة الاضطراب بين اليأس والرجاء ، والانقباض والانبساط ، والأسى والسرور ، لا تكاد تلم بها حالة حتى تغلبها عليها نقيضتها ، ولا تكاد تحس بأنها أخذت تقر على أمر أو تستشعر الروح فيه والسكينة ، حتى تزعج عنه . فكأنما كانت — في حقيقة أمرها — صورة من هذه الحالة القلقة المضطربة التي كانت تسود مصر إذ ذاك .

ولاريب أن هذه الحالة التي نستطيع أن نتصورها تصوراً مقارباً فيما سرد الكندي من أحداثها وملابساتها ، لم يقف أثرها عند هذا الاضطراب الذي

يتخذ لوناً سياسياً وصورة من الخصومات والمنازعات بين الاحزاب المختلفة، ثم ما كان يترتب على ذلك من صعوبة الحياة واضطراب أسباب العيش، مما كان مثار شكوى عامة الناس ، كما لم يقف أثرها عند سوء الحالة المالية من حيث جمع الخراج وتأديته ، وهو ما كانت تشكوه الدولة؛ وانما كان لها أثرها فوق ذلك كله فى نفوس الناس واخلاقهم وأساليب معاملاتهم ، إذ أفسدتها أيما افساد ، فقد ضربت على كثير من خلال الخير و شمائل الرجولة وأسباب الثقة فأضعفت من شأنها ، كما أشاعت بين الناس روح الأثرة، تحكم تصرفاتهم وتوجه علاقاتهم . وإنه ليبدو لنا أن هذا الفساد الخلقى كان مسؤولا إلى حد بعيد عن تلك المحنة التى تعرض لها عمير بن الوليد وانتهت بموته ، وأصيب بها ابنه محمد من بعده، فانتهت بعزله ، وأصيب بها صاحبنا أبو تمام بطبيعة صلته بعمير وابنه ، وتعرضت بها نفسه وآماله لذلك المد والجزر يتعاقبان عليها تعاقباً لا أناة فيه ولا ترفق . وقد كان ذلك كله — فيما نرى — مظهراً من مظاهر ذلك الفساد الاجتماعى والخلقى الذى امتحنت مصر به فى تلك الفترة .

ولعلنا نستطيع أن نتبين هذا فى وضوح إذا نحن نظرنا فى ولاية عمير وابنه محمد نظرة شاملة قدر ما تتيح لنا المادة التاريخية التى بين أيدينا ، ثم مددنا النظر نتعرف ماوراء الأحداث من بواعث .

لقد كانت ولاية عمير بن الوليد على مصر عقب ولاية عيسى بن يزيد الجلودى الذى كان والياً عليها منذ سنة ٢١٣ ، ثم عزل عنها ، وجاء عمير خلفاً له ؛ لعله يحقق ما أخفق فيه سلفه من قمع الفتنة .

والجلودى هذا كان أحد قواد الدولة الذين تردد أسماؤهم كثيراً فى أخبار تلك الفتن التى نشبت فى كثير من أرجاء البلاد الاسلامية ، فى أوائل القرن الثالث للهجرة . وقد كان أول أمره — فيما نعرف — رجلا من رجال الخليفة الأمين ، ولكنه كان إذ ذاك شخصاً ضئيل الخطر مغمور القدر ،

لم يتح له بعد أن يظهر . حتى إذا انتهت فتنة الخلافة ، وانتصر جانب المأمون وأفضى الأمر اليه ، سارع بالانضمام اليه ، ثم لم يلبث أن أتيح له فى هذا الوضع الجديد الذى اتخذه فرصة المشاركة فى العمل لتوطيد دعائم هذه الدولة الجديدة ، بالمشاركة فى قمع فتنة من أخطر الفتن التى تعرضت لها الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وهى الثورة التى أوقدها الطالبيون ، وقادها أبو السرايا ابن منصور الشيبانى .

وقد ابلى الجلودى فى حرب ابى السرايا بلاءاً حسناً ، واستطاع أن يقضى على هذه الفتنة سنة ٢٠٠ (١) . واستطاع بذلك أن يظفر بتقدير الحسن بن سهل واعجابه بمواهبه الحربية . فما إن عاد المأمون من خراسان إلى العراق حتى كان الجلودى من الشخصيات التى نالت ثقته وظفرت بتقديره . وقد رأى — بالرغم من اتصاله بالأمين — انه يستطيع الاعتماد عليه فيما يضطرب به الجو حوله ، فكان يكل اليه قمع هذه الفتنة وتلك ، وكان مما أسنده اليه أمر محاربة الزط سنة ٢٠٥ (٢) ، وكان أمرهم مبعث قلق للدولة . كما جعله والياً على مصر ، سنة ٢١٣ ، رجاء أن يوفق فى القضاء على تلك الفتن الناشبة بها ، كما أشرنا إلى ذلك قبل .

ذلك هو عيسى بن يزيد الجلودى ، سلف عمير بن الوليد فى ولاية مصر : قائد عسكرى شديد البأس ارتفعت به مواهبه العسكرية فى هذه الفترة المضطربة بالفتن . وقد بزغ نجمه بعد أن تحول إلى معسكر المأمون ، وعرف بقدرته على اخماد الثورات وحسن تدبيره فى القضاء على الفتن ، ومن أجل ذلك اختير لولاية مصر . ولكن مصر كانت ميداناً جديداً بالقياس إليه ، وكانت عناصر الفتنة فيها مختلفة عما كان يعهده فى الشرق ، فلم يتح له فيها من النجاح ما كان مقدراً عند توليته . وقد عرفت الدولة ذلك فعزلته ، وولت عمير بن الوليد مكانه فاعتزل كارهاً بطبيعة الحال .

(١) انظر — مثلا — تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، ١٠ : ٢٣١ — ٢٣٥
(٢) انظر — مثلا — تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٢٥٧ .

وكان من الطبيعي أن يترك ذلك العزل في نفس الجاودى قدراً من المرارة ، ثم لم تلبث هذه المرارة أن تحولت إلى نوع من الضغينة يضطغنها على خلفه عمير بن الوليد ، ثم لم تلبث هذه الضغينة أن اتخذت سبيلها إلى الخارج . لقد كان الجنودى — كما رأينا في تاريخه — رجلا عملياً ، لا يقف شيء دون غايته ، والغاية عنده تبرر الواسطة ، وغايته هي غاية أمثاله في ذلك الوقت : الامارة أو الولاية . فلاجرم أخذت هذه الضغينة سبيلها إلى الكيد له ومحاولة الايقاع به ، واسترداد الولاية التي سلبه اياها . ومن أجل هذه الغاية كان — فيما نقدر — بقاؤه في مصر بعد عزله ، لم يغادرها إلى العراق كما هو المتوقع أن يكون ، كأنما كان يتوقع أن يعود واليا عليها بعد قليل. وكذلك ظل في مكانه يتربص بخلفه الدوائر ، ويمهد لنفسه السبيل إلى الولاية . وانه لجدير أن يجد في اضطراب الأمور في مصر ما يمكن له في يسر من أن يدبر مكيدته ، وينصب حبائله ، ليدرك من وراء ذلك غايته . وها هو ذا عمير بن الوليد ما يكاد يستقر في مصر ، ويتبين موضعه حتى يأخذ في الإعداد لما جاء له ، وفي مواجهة الفتنة ، ثم لا يلبث أن يمضي في جيوشه إلى أهل الحوف لمحاربتهم وكسر شوكتهم . وهنا نرى الجاودى يخرج وراءه ، ليكون في ظاهر الأمر مددا له . وإذا كان المؤرخون لم يذكروا فيم كان خروج الجنودى على هذه الصورة ، فانه على كل حال يثير ريبة الباحث المتتبع للأحداث المتطلع إلى ماوراءها . وان منطق هذه الأحداث ليكاد ينتهي إلى اتهام الجنودى بأن خروجه هذا كان — على الأقل — جزءاً من خطة مدبرة

ولعل أبا تمام كان يحس هذه الريبة ، وكان يعنيها حين يوجه القول في احدى قصيدتيه إلى بعض أصحاب عمير ، يرميهم بأنهم خذلوه وتخلوا عنه حين وقع في ذلك الكمين الذي دبر له ، بعد أن تم له النصر . وذلك إذ يقول :

أتركتموه للسيوف وللقنا ... بالقاع والصفعان يتعاحمان
أن تخذلوه فقد حماه مثقف ... لدن ومصقول الغرار يمانى

تلك — فيما نحسب — حقيقة الأمر في مقتل عمير بن الوليد ، وذلك عندنا مظهر من مظاهر ذلك الفساد الخلقي الذي اشرنا إليه .

ولما تقضى الأمر وقتل عمير بن الوليد على تلك الصورة ، انتعش أمل الجلودى فى استعادة ولاية مصر ،ورآها على مد يده ، فقد مهد له الموت سبيله اليها ، لولا أن هنالك شيئاً يعترض بينه وبينها، ولكنه شىء ليس له كبير خطر على كل حال . فما عسى أن يبلغ فى ذلك شيعة عمير ؟

وقد رأينا من قبل كيف كان أصحاب عمير وشيعته يودون لو أسندت الولاية بعده إلى ابنه ، محمد بن عمير . وكأنما كانوا يحسون ما يضطرب فى الجو فى هذه المسألة، فجهدوا – فيما يظهر – الا تتم للجلودى هذه الولاية التى كان يسعى اليها ويدبر لها؛ فإنها حقيقة إن تمت له أن ترزأهم . وربما كان أبو تمام يعنى شيئاً من ذلك، أو يعبر عما يتردد من هذا القبيل فى خاطره إذ يقول فى رثاء عمير :

رأيت مؤمليك عدت عليهم عواد أصعدتهم فى كؤود
وأضحت عند غيرك فى هبوط حظوظ كن عندك فى صعود

وكذلك سعى أصحاب عمير سعيهم – فيما نفترض – إلى أن تكون ولاية مصر لمحمد بن عمير ، حتى تمت له كما قلنا . وجدير بذلك أن يكون عاملا جديداً فى حنق الجلودى عليهم . ولكن هذه الولاية التى كدرت – بعض الشىء – صفوه ، لم تظل كما قدمنا أكثر من شهر ، كان الجلودى – فيما نحسب – يكد فى أثنائها ويكيد ويجمع اليه أمره، ويصطنع ما يعرف من الوسائل ، ليحسرهذه الولاية عن غريمه ويظفر بها لنفسه ، حتى تم له الأمر وانتهى التدبير إلى غايته المرجوة لديه ، فاذا بالبريد يحمل اليه كتاب توليته موجهاً اليه من دار الخلافة ، فيتلقاه ثم لا يلبث أن يظهره . وكان ذلك أسلوباً فى العزل متبعاً فى بعض الظروف الخاصة ، فلا يرى محمد الا أن يخلى مكانه ، ليقوم فيه الجلودى . وقد تم له الأمر على الوجه الذى كان يرجوه ويدبر له ، وانطوى أصحاب عمير على أنفسهم يكاتمون الحسرة والوجيعة

هذه هي صورة الأمر في هذه الفترة : عداوة ومكايدة بين الجلودي وشيعة عمير وابنه محمد ، فإذا ظفر الجلودي وأصبح له أمر مصر ، فقد انطوت نفوسهم على الغيظ والرغبة في التشفي ، فوق ما يضمرونه من بغض وحنق . ولا جرم كان أبو تمام من أشدهم حنقاً عليه ، واضطغاناً له ، وحرصاً على شفاء صدره منه حين تتاح له الفرصة ، فيساقط عليه شعره .

ولم تلبث الأيام أن أتاحت لأبي تمام هذه الفرصة ، وعرضت له عرض الجلودي ، يتناوله كما شاء ؛ ذلك أنه لم تمض على ولاية الجلودي هذه الثانية أيام حتى واجهته هذه الفتن التي كانت ما تزال سائدة في مصر ، وثار أهل الحوف . فتجهز لهم وسار إليهم ، فلقيهم بمنية مطر ، فكانت بينهم وقعة ، ثم انصرف أهل الحوف على حامية ، ومضى الجلودي حتى نزل النويرة ، فخندق على نفسه وجيشه خندقاً ، وأقام أياماً ، فأتاه أهل الحوف فصبحوه فهاله أمرهم ، فلما أمسى تحمل منهزماً إلى الفسطاط ، وأحرق ما ثقل عليه من رحله ، وخندق على الفسطاط ، وذلك يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب » (١) ، كما يقول الكندي في وصف هذه الموقعة .

رجع الجلودي إذن من حملته التي شنها على أهل الحوف مهزوماً فزعاً مفرق النفس ، وقد جعل الفزع يسوقه سوقاً عنيفاً . فهو مسرع إلى الفسطاط متخففاً من أثقاله ، متخلياً عن أصحابه ، يريد أن يعتصم به ويمتنع فيه من هؤلاء الذين اذاقوه الهزيمة ، وهو أشد اعتداداً بالنفس وثقة بالنصر ، وملأوا قلبه رعباً وفرقاً ، فهو يخشى أن يتعقبوه حتى داره ، ويوقعوا به .

ولا ريب أن هذه العودة في هذه الصورة التي تحمل مظاهر الانكسار الذريع ، وتحيط بها معاني الخيبة المنكرة ، قد أثارت عليه في الفسطاط السخرية تتناوشه من كل جانب ، وجعلته هدفاً للعبث في ألوانه المختلفة ، ومكنت لأبي تمام وأصحابه من خصوم الجلودي — وقد كانوا يتربصون به أن يحيق به مكره

---

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٨٧ .

ـ أن يظهروا الشماتة به ، ويفتنوا فى التشهير بأمره. وكذلك جاءت هذه القصيدة التى احتفظ بها ديوان ابى تمام فى هجاء الجاودى ، وهى قوله :

صحبى قفوا ! عليكم صحباً فاقصدوا بنا من ربعها نحباً

وتلك هى ملابسات هذه القصيدة التى تبدو معلقة فى الديوان ، يحيط بها الخلاء من كل جانب . وانما هذه ـ فيما نرى ـ قصة ابى تمام فيها . وكان لابد لنا من تلمس هذه القصة وتبين اجزائها وحلقاتها ، وتفهم ما يكمن وراءها لنستطيع أن نعرف الحقيقة فى هجاء ابى تمام لعيسى بن يزيد الجلودى ونضع بذلك هذه القصيدة فى موضعها ، ونصلها بملابساتها . ونتمثل الجو الذى أوحى لأبى تمام بموضوعها وصورها ومعانيها . وأبو تمام ليس من شعراء أهل الحوف فيكون هجاؤه للجلودى عصبية لهم ، وتعبيراً عنهم ، وانما هو شاعر طارىء على مصر ، ليس له كبير شأن بمثل هذه الخصومة . فلابد إذن من أن نتمثل هذه الملابسات على وجهها لنقدر هذه القصيدة ، ونتفهم المشاعر التى ساقتها وترقرق فى ثناياها .

والقصيدة فى جملتها تصوير لهذه الموقعة ، ولكنه تصوير مشبع بروح الشماتة ، متجه ـ بطبيعة الحال ـ إلى السخرية بالجلودى والتشهير به ، إلى جانب الاشادة بالثائرين من أهل الحوف ، ولعل فضيلتهم عنده لا تعدو أنهم هزموا الجلودى ، فأتاحوا له بذلك أن يجد فى نفسه روح الشماتة ، ومكنوا له من أن يثأر لنفسه بهجائه . فكان ذلك كافياً عنده ليثير اعجابه بهم ، فهو يقضى حق ذلك الاعجاب بان يشيد بهم ، وينوه بمشاهد بطولتهم فى تلك المعركة ، ثم يمضى إلى تصوير الجلودى وتمثيل ما أصابه ، حين هاله ما رأى من خيل هؤلاء الأبطال ، تملأ الجو عليه ، فملأ الرعب أحشاءه ، ثم لم يعصمه منهم الا الليل ، وقد لفه بظلامه ، فسرى يلف البيد لفاً ، وترك وراءه جنده جزرا للفناء .

قتلى ، وأسرى فى الحديـد معاً يترقـعون القـتل والصـلبا

وهكذا استطاع أبو تمام بهذه القصيدة أن يثأر لنفسه ولجماعة عمير بن الوليد من هذا الوالى الذى كان يحمل عندهم شيئاً غير قليل من تبعة ما انتهى اليه صاحبهم ، وما انتهت اليه آمالهم فيه ، والذى كان يثير فى نفوسهم مشاعر السخط والحقد والضغينة .

١٣

هكذا كانت حياة أبي تمام فى مصر ، قدر ما يمكن أن تؤدى الينا هذه البقية الباقية من شعره فيها. ومن هذه الصورة التى اتيح لنا أن نرسم على ذلك النحو خطوطها ، ونتمثل فيها طائفة من ملامح حياته ونواحي نشاطه ، عن تلك البقايا القليلة من شعره ، يتبين لنا أنه شقى حقاً بمقامه فى مصر ، قدر ما كان مقدمه اليها مقروناً بالأمل المبسوط والرجاء الناضر المتفتح . فلم تكن حياته فيها — كما رأينا — إلا سلسلة متصلة الحلقات من الطلب والمبالغة فيه والالحاح عليه ؛ ثم الخيبة المريرة والفشل المؤلم . فقد انتهت صلاته بعياش ابن لهيعة — وهو أول من تفتحت عليه آماله وترجحت به احلامه — تلك النهاية التى رأيناها ، فاذا ما اتيح له رجل كعمير بن الوليد أو ابنه محمد ، ممن كان يتوسم فيهم تحقيق شيء من مطامعه الأدبية ، وحاجاته المادية والفنية لم تمهله الأقدار ، فاذا بها تتصدى له ، وتسلبه هذه التعلة ، وتتركه محزوناً يملأ قلبه الشعور بالشقاء والتعاسة .

وهذا الشقاء الذى ألح عليه فى مصر ذلك الالحاح ؛ وأرهق مشاعره أشد الارهاق ، يفسر لنا تلك الطائفة الشاكية المتبرمة من القصائد التى يصف بها حياته فى مصر ، ويصدر فيها عن نفس محزونة ضائقة . وقد بقي لنا من هذه القصائد — قدر ما أتيح لنا أن نتتبعه فى شعره الذى بين أيدينا خمس ، أربع منها فى النسخة المعهودة التى بين أيدينا ، والخامسة انفردت بها النسخة التى نشر الجزء الأول منها ، وشرحه ، الدكتور ملحم ابراهيم الأسود ، ومطلعها :

ألطلال بنت العامري عنبج غناؤك محظور على الدنف الشجي(١)

وقد ذكر فيها مصر بما يدل على أنها من قصائده المصريات ، وذلك إذ يقول :

وطال قطوفي أرض مصر لحاجة يقال لها : اقبح بهاتي واسمج

وأما الأربع الأخرى فيها ثلاث تحمل بين أبياتها — مثل هذه القصيدة — ما يدل على أنها مما قاله في مصر ، وهي قوله :

أصب بحميا كأسها مقتل العذل تكن عوضاً إن عنفوك عن النبل(٢)

كما سنرى ذلك فيما نعرض بعد من ألوان مشاعره التي تعبر عنها هذه القصيدة .

والثانية هي قوله ، وقد جاءت في الديوان في باب الفخر :

متى ترعى لقلبك أو تنيب وخدناه الكآبة والنحيب(٣)

وقد قال فيها ، مما يحمل تلك الدلالة :

فأصبح حيث لا نقع لصاد ولا نشب يلوذ به حريب
بمصر ، وأي مسأربة بمصر وقد شعبت أكابرها شعوب

وأما الثالثة فهي قوله ، وقد جاءت في ذلك الباب أيضاً :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر وقد سهل التوديع ما أوعر الهجر(٤)

وقال فيها ، يذكر مصر وخطوب حياته فيها :

وصارعت عن مصر رجائي ، ولم يكن ليصرع عزمي غير ما صرعت مصر

---

(١) بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام ، ١ : ١٧٢ ، ط بيروت ١٩٢٨ م
(٢) ديوان أبي تمام ، ص ٣٢٨ .
(٣) ديوان أبي تمام ، ص ٣٩٨ .
(٤) ديوان أبي تمام ، ص ٤٠٠ .

فأما القصيدة الرابعة منها ، فإنما نعتبرها بهذا الاعتبار ، اعتماداً على قول البديعي في تقديمه لها : «وقال أبو تمام ، وهو بمصر ، يصف قومه ويفتخر بهم ، ويذم الدهر ويرثى الشعر»(١)، وإذ لم يكن لدينا ما يعترض هذه الدعوى في شأن هذه القصيدة ، وهي :

الا صنع البين الذى هو صانع فان تك مجزاعاً فما البين جازع

على أنه يحسن بنا ألا نغفل القول هنا انا في النص على هذه القصائد الخمس في هذا الصدد ، انما نقف عند حدود ما يدل عليه دليل صريح انه قاله في مصر . ولعل في الديوان غير هذه القصائد مما يجرى مجراها غير أنا لم نجد هذا الدليل . وهي على كل حال كافية في تصوير هذه الناحية من مشاعر أبي تمام في هذه الفترة .

وهذه المجموعة من القصائد تعتبر طائفة من الشعر الصادق الذى تظهر فيه عواطف أبي تمام ظهوراً قوياً ، والذى يعجب قارئه اعجاباً غير قليل بصدقه ، وبتساوق الألفاظ والمعانى والصور فيه تساوقاً محكماً . ونستطيع أن نتبين في هذا الشعر ثلاثة ألوان من المعانى ، وهي : الذكرى والشكوى والفخر. وهي ألوان – على اختلاف ما بينها – منسجم بعضها مع بعض في التعبير عن نوازعه في مثل هذه الحالة التى كان يعانيها ، وأبواب من القول يفضى بعضها إلى بعض في التفريج عن تلك الأزمات النفسية التى كان يكابدها

لقد جاء أبو تمام إلى مصر والأمل يملأ قلبه أن يجد في اكنافها رغد الحياة ورفاهية العيش والمجد الأدبى ، ولكن هذه الآمال لم تكد تتفتح وتستقبل شيئاً من النسمات الحلوة ، حتى جعلت تتقاص وتتقبض وينطوى بعضها على بعض ، وهاهو ذا ينتهى به المطاف إلى ذلك الشقاء يتجرعه تجرعاً ، وقد جعل احساسه به يرهف ويتضاعف كلما تقدمت به الأيام ، كما أخذت

---

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، ص ١٩٢ ، وانظر الديوان ، ص ٢٠٢ .

تختلط فى نفسه مشاعر الخيبة والضيم والقهر بشعور الشقاء المادى الذى أطبق عليه ضيقاً وشظفاً وسوء حال .

وكلما أعجزت الحيلة أبا تمام لقاء ذلك الشقاء الذى يبدو أنه سد عليه كل مسلك ، أخذت مشاعره تتخذ لها مسارب تخلص فيها من مواجهة هذا الواقع البغيض المؤلم ، فهى تعود به مرة إلى موطنه الأول ، تطوف به على معاهد حياته ومسارح صباه فيه ، وتعرض عليه من ذلك صوراً تشعره ببرد الطمأنينة ، وتبعث فى نفسه شيئاً من المتعة ، ثم تزيره أهله الذين فارقهم وكاد النسيان يضرب بينه وبينهم ، حتى رده إليهم شقاؤه ، يبكى بين أيديهم ، ويعاتبهم حيناً ويرجع باللائمة على نفسه حيناً آخر ، وكأنما هو يستشعر بذلك نوعاً من الهدوء والسلوى ؛ ثم تمضى به مرة أخرى إلى تلك العوالم التاريخية التى كونها لنفسه عن قومه وأجداده من اليمانية ، فهو يديرها فى خياله ، ويمرها أمام نفسه ، ويخلطها بمشاعره ، حتى كأنما هو يعيش فيها . وقد ترك حاضره هذا الذى ضرب عليه الهوان أو كاد ، وفرض عليه صنوفاً من الضعة ، إلى تلك العوالم التاريخية التى تفيض بالمآثر والمفاخر ، وتزخر بآيات العزة والمجد والكرامة ، تبعث فى نفسه النشوة ، وتطرد عنه ما يجعل يتدسس فى نفسه من أحاسيس الضعة والهوان .

وهكذا نرى أن الذكرى والفخر بابان من الأبواب التى تلجأ إليها النفس الانسانية للتعزى وتجنب الأمر الواقع . وكذلك الأمر فى الشكوى ، إذ ليست فى حقيقتها الا لوناً من ألوان التنفيس عن النفس ، ووسيلة من وسائل تفريج همها ، إذ تأخذ الآلام صورة كلامية ، فيخف عن النفس عبؤها . وبذلك نرى أن الأمر فى هذه الألوان الثلاثة قريب بعضه من بعض ، كما قررنا ، متصل أوثق الصلة بهذه الحالة التى كان أبو تمام يعانيها فى مصر .

وإذا كانت طبيعة أبى تمام الشاعرية من الأعوان عليه فى هذه المحنة ، بما شحذت من حسه وأرهفت من مشاعره ، مما جعل يضاعف ــ بطبيعة الحال ــ من آلامه ويبالغ فى التهويل عليه ، فان شاعريته أخذت تفتن

فى هذه المسارب التى ذكرناها ، وتذهب فيها المذاهب المختلفة ، مما بالغ ولاريب من أثرها فى الترويح عنه .

لم تعد ذكرياته عن موطنه الأول ومسارح صباه مجرد ذكريات ، وانما هى قطع من الفن يتغنى بها ، ويشعر من خلالها بالرضا والروح ، إلى جانب ما فى هذه الذكرى نفسها من متعة نفسية ، وتخلص من المحنة التى يضطرب فى عقابيلها .

ها هو ذا يذكر دمشق والبقاعين والجولان ، هذه الاسماء التى تثير فيه بنفسها أشد الحب وأقوى الحنين ، فى مثل هذه الأبيات :

سقى الرائح الغادى المهجر بلدة سقتنى انفاس الصبابة والخبل

فجاد دمشقاً كلها ، جود أهله بأنفسهم عند الكريهة والبذل
فلم يبق فى أرض البقاعين بقعة وجاد ثرى الجولان بالمسبل المطل
بنفسى أرض الشام ، لا أيمن الحمى ، ولا أيسر الدهنا ، ولا أوسط الرمل
ولم أر مثلى مستهاماً بمثلكم ولا مثل قلبى فيه ما فيه لا يغلى
عدتنى عنكم مكرهاً غربة النوى لنا وطر فى أن تمر ولا تحلى

وها هو ذا يذكر ، مرة أخرى ، بعض أهله الأقربين ، ولعله يعنى هنا أمه ، فيلذ له أن يراها تحن اليه ، وتتمنى عودته ، وأن يرى نفسه أمامها ضعيفاً سقيماً مهموماً مكروباً ، ليجلب إلى خياله مشهد العطف ، وليحضر فى نفسه صورة من صور الحب والحنان ، يتسلى بها ، ويلهو بمرآها ، ويقضى بها حاجة قلبه وقد جف كل شيء حوله ، فيقول فى نغمة حزينة أسيفة ملؤها اللوعة والحسرة :

وكم عدوية من صبى عمرو لها حسب إذا انتسبت حسيب
لها من طيء أم حصان نجيبة معشر وأب نجيب
تمنى أن يعود لها حبيب منى شططاً ، وأين لها حبيب ؟

ولو بصرت به لرأت جريضاً | عباء الدهر ، حليته الشحوب
كنصل السيف عرى من كساه | وفلت من مضاربه الخطوب

وبالله ، أى التياع تفيض به هذه الأبيات ، وأى صورة من صور النفس المحزونة قد غلبتها اللوعة واستخفتها الحسرة !

ثم ها هو ذا يذكر أيامه الأخيرة فى الشام ، حين كانت مصر تراوده وتتخايل له ، فجعل هو يراود نفسه فيها ، ويشاور أهله فى امضاء هذا السفر اليها ، ثم يذكر طريقه نحوها ، ثم ينثنى على نفسه وينظر فى عواقب أمره ، آسياً متوجعاً متحسراً ، فيقول مثلا :

عصيت شبا حزمى لطاعة جيرة | دعتنى إلى أن أفتح القفل بالقفل
وأبسط من وجهى الذى لو بذلته | الى الأرض من نعلى لما نقبت نعلى

. . . .

ولو أننى أعطيت بأسى نصيبه | اذن لأخذت الحزم من مأخذ سهل
وكان ورائى من صريمة طىء | ومعن ووهب عن أمامى مايسلى
فلم يك ماجرعت نفسى من الأسى | ولم يك ما جرعت أهلى من الثكل

ويقول مثلا فى موضع آخر :

جمعت شعاع الرأى ثم وسمته | بحزم له فى كل مظلمة فجر
وصارعت عن مصر رجائى ولم يكن | ليصرع عزمى غير ماصرعت مصر
وطحطحت سداً سد يأجوج دونه | من الهم لم يفرغ على زبره قطر
بذعلبة أوفى بوافر نحضها | فتى وافر الاخلاق ليس له وفر
فكم مهمه قفر تعسفت متنه | على متنها والبر من آلها بحر

هذه أبيات لا نكاد نجد القدرة على التعليق عليها بكلمة ، حتى لا نفسد الجو الذى خلقته فى أنفسنا بصورة طبيعية لا تكلف فيها . وهذا شعر ممتلىء حيوية ، صادر من أعماق الشاعر . وهو يصور لنا مبلغ ما كان يخالج نفسه فى هذه الفترة من حنين وتحسر : حنين إلى وطنه وتحسر على مفارقته .

وقد أثارتهما فيه هذه الحياة البائسة التعسة التي منى بها ، والتي استطاع أن يصورها — كما هي في نفسه — تصويراً رائعاً في هذه القصائد . ولا نملك هنا إلا أن نقدم في بيان ذلك أمثلة فحسب ، نستطيع أن ننظر من خلالها إلى هذه النفس الموجعة التي قست عليها الحياة ، وأرهقها شعور الخيبة ، فهي ساخطة صارخة حيناً ، وهي متصبرة رابطة ، مستسلمة للقضاء ، مؤمنة بتصاريف القدر ، حيناً ثانياً ، وهي ناظرة في نواميس الحياة متخلصة منها الحكمة مصطنعة الهدوء والروية ، تحاول أن تجد في ذلك معتصما يعصمها من شعور التعاسة والشقاء الذي يرهقها ، حيناً ثالثاً .

فها هو ذا يقول ، في القصيدة اللامية ، مصوراً أمره تصويراً شاكياً :

توانى وشيك النجح عنه ، ووكلت	به عزمات أوقفته على رجل
وعنعه من أن يبت زماعه	على عجل أن القضاء على رسل
قضى الدهر مني نحبه يوم قتله	هواى بارقال الغريرية النتل
لقد طلعت في وجه مصر بوجهه	بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة	مخيمة بين المطية والرحل
وسورة علم لم تسدد فأصبحت	وما يتزاى أنها سورة الجهل
نأيت ، فلا مالاحويت ، ولم أقم	فأمتع اذ فجعت بالمال والأهل
غلت على عرضى بما فيه صونه	رجاء اجتناء الجود من شجر البخل

وكذلك نقف الآن عند هذه الأبيات ، لا لنقول كلمة تعليق ، فقد يبدو أن ذلك لا يعدو أن يكون تفاهة لا قيمة لها ازاء هذه الروعة . ولكنا نقف لنتملى ذلك الجو الشعرى ، وتلك المشاعر التي استطاع أبو تمام أن يغمر بها قلوبنا وحواسنا ، ويفيضها علينا افاضة يشركنا بها معه ، بل يمزج بها بين مشاعرنا ومشاعره ، وبين اشخاصنا وشخصه .

ثم ها هو ذا يقول مرة أخرى ، متصبراً متجلداً ، يحاول أن يربط على قلبه ويمسك نفسه المتفزعة ، إذ يذكر القضاء ويصطنع الحكمة :

ومن قامر الأيام عن ثمراتها فأحج به أن تنجلى ولها القمر
فإن كان ذنبي أن أحسن مطلبي أساء ففى سوء القضاء لى العذر
قضاء الذى مازال فى يده الغنى ثنى غرب آمالى وفى يده الفقر
رضيت، وهل أرضى إذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضا من له الأمر
فاشجيت أيامى بصبر حلون لى عواقبه ، والصبر مثل اسمه صبر

كما يقول مثل ذلك أيضاً ، فى نغمة تغلب عليها الأناة ومراجعة النفس عن جزعها وسوء احتمالها :

وطال قطونى أرض مصر لحاجة يقابل لها : أقبح بهاتى وأسمج
أقلب فى أقطارها الطرف كى أرى سولست براء ذاك عصمة ملتجى
فقنعنى بأسى . وأعلم أننى مقود بحبل للمقادير مدمج
ونحن أناس نذخر الصبر للأسى ونحتاج لليوم العبوس المهيج

وبعد ، فها هو ذا أبو تمام فى تلك الأزمات النفسية التى أطبقت عليه وأرهقته فى مصر . وقد عرفنا مأتاها والظروف التى مكنت لها . كما رأينا طائفة من المسالك الفنية التى سلكها فى التعبير عنها . ومحاولة التنفيس عن نفسه فيها .

على أن أكثر ذلك نجده ملتبساً بالفخر متصلا به . وذلك — كما قلنا — نوع من المهرب تلجأ اليه النفس حين تكدى ويغلبها على أمرها الفشل والخيبة ولا نكاد نجد قصيدة من هذه القصائد التى ألمعنا إليها إلا وقد لجأ فيها إلى ذلك الأسلوب ، فأخذ يتعزى عن حظه التعيس وبأساء الحياة المحيطة به بذكر مفاخر قومه والاشادة بهم . وإذا كان هذا الأسلوب واكثار ابى تمام من اصطناعه فى ذلك الصدد يرجع إلى ماذكرنا ، فانه يرجع من ناحية أخرى إلى ما تعرفنا اليه فى شخصية أبى تمام من اعتداد بنفسه وامتلاء بذاته . فلا جرم أكثر من اصطناع الفخر ، إذ كان يستجيب إلى غروره من ناحية ، ويجد فيه من ناحية أخرى حاجته إلى التعزى ومجانبة الواقع المؤلم الذى يحيط به .

وهكذا كان أبو تمام يتلقى أيامه في مصر ويتحداها ، إلى أن أتيح له أن يغادرها . ولكنه لم يغادرها حتى كانت هذه الآلام قد انضجت شاعريته، مما كان من العوامل التي أتاحت له أن يتبوأ ذلك المكان الرفيع في تاريخ الشعر العربي .

١٤

لا ريب أن أبا تمام جعل يفكر في الرحلة عن مصر والعودة إلى الشام ، منذ أخذت الأمور تتأزم في نفسه على النحو الذي رأينا . وإنما كان — فيما نقدر — يتحين الفرصة المناسبة والظروف المعينة . ولعله كان يعني ذلك المعنى ، وهو يقول هذا البيت :

وعنعه من أن يبت زماعه على عجل أن القضاء على رسل

فقد كان عنده أن الأقدار هي التي تمسكه في مصر ، وتمنعه من أن ينطلق إلى وطنه الذي كان دائم التخايل له . ولعله كان يعلل نفسه في خلال ذلك بصلاح الحال وانفراج الأمور . ولا نكاد نشك في أن أبا تمام كان يحمل في نفسه لمصر طائفة من الذكريات الجميلة المحببة ، وأنها كانت تومض أحياناً في خلال تلك الأزمات ، وحين كان يرى السفر عن مصر ضرورة لازمة .

على أنه قبل أن يغادر أبو تمام مصر تهيأ لما حدث من الأحداث النادرة جعل نفسه تشرئب اليه وتتطلع نحوه . فقد جعل الناس في مصر يتسامعون بأن الخليفة المأمون مقبل عليها ، وأنه قد أخذ سبيله اليها عقب أيام عيد الأضحى (سنة ٢١٦) ، لينظر بنفسه في أمر تلك الفتن المتصلة المتدجية التي تمزقها وتفسد أمرها .

وقد أحدث ذلك النبأ آثاره المختلفة في نفوس الناس . ولم يمض غير قليل حتى وصل الخليفة إلى مصر ، ودخلها في شهر المحرم (سنة ٢١٧) . ولا ريب ان هذا الحدث الخطير كان له أثره البالغ في نفس أبي تمام ، وأنه

أحس فى مقدم الخليفة فرصة لآماله المنقبضة تتفتح عليها وتتجدد بها — بل لعله رأى فى ذلك نوعاً من مجاملة الأقدار له. فجعلت شاعريته تتشوف لذلك أعلى تشوف . ثم لم يلبث أن نظم قصيدة رجا أن يتقدم بها إلى الخليفة ، وإن نفسه لتتطلع إلى الغد المرجو ، وإلى المجد الأدبى المحقق الذى تتيحه له هذه الفرصة السانحة .

ومؤرخو أبى تمام يقولون إنه حاول قبل اتصاله بالمعتصم أن يتصل بالمأمون ، ولكن محاولته لم تنته إلى غايتها ، إذ لم يفلح فيها . ومعنى هذا أنه لم يتح له أن يجلس إليه أو يقوم بين يديه، شأن الشعراء فى اتصالهم بممدوحيهم . ولم يذكر هؤلاء المؤرخون أين كانت هذه المحاولة التى يعنونها فى هذا الخبر ، أفى مصر كانت أم فى العراق . وإذا كنا نعلم مبلغ عنايتهم بالفترة المصرية فى حياة أبى تمام ، فأكبر الظن أن مصر لم تخطر لهم وهم يوردون هذا الخبر . على أنه لا يبعد عندنا أن أبا تمام ، وإن مدح المأمون فى مصر ، لم يتح له هذا المدح أن يبلغ به ما كان يرجوه ، وأنه كان لظروف هذه الفترة أثرها فى الحيلولة بينه وبين مجلسه .

وديوان أبى تمام يحفظ لنا بقصيدتين نص فى التقديم لهما على أنه قالهما فى مدح المأمون (١) أما أولاهما فهى التى مطلعها :

كشف الغطاء فأوقدى أو أخمدى   لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى (٢)

وأما الأخرى فهى قوله :

---

(١) وهناك قصيدة أخرى يرى بعض شراح أبى تمام أنها فى المأمون ، بالرغم من أنها مقدمة فى الديوان على أنها فى المعتصم ، وأن الخليفة الممدوح بها قد وصف بأنه ثامن الخلفاء لآبائهم وهى :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر   وغدا الثرى فى حليه يتكسر
(الديوان ص ١١٧)

وليس هناك أى دليل يستند إليه ذلك الزعم أنها فى المأمون إلا ما جاء فى ذلك أنتقل مسنداً إلى غير معروف

(٢) الديوان ص ٨٤ .

دمــن ألم بهــا فقــال سلام   كم حل عقدة صبره الإلمام (١)

وقد أشرنا من قبل إلى ما يغلب على ظننا من أن القصيدة الأولى هى من جملة آثاره التى انتجها فى مصر ، لهذه المناسبة . وأما القصيدة الأخرى فليست مصرية قطعاً . فقد قالها بعد مغادرته مصر . وعندنا أنه قالها وأراد أن يتقدم بها للمأمون ، عند عودته من بلاد الروم . ونحن نعلم أن المأمون غزا بلاد الروم قبل أن يجيء إلى مصر ، ثم غزاها مرة أخرى بعد مغادرته اياها . فقد قالها عند هذه العودة الثانية من غزوه، وملأها بالوصف له والحديث عنه والاشادة به .

والذى يحملنا على الذهاب إلى أن القصيدتين قيلتا فى وقتين متباعدين نسبياً ، أو مختلفين على الأقل ، هو الأسلوب العام أولا . فهناك تفاوت ظاهر بعيد بينهما من حيث الروح الفنية والصيغة الشعرية يجعلنا أكثر ميلا إلى وضعهما فى وقتين متباعدين . ولكنا لن نقف عند هذه الظاهرة طويلا، فمرجع الأمر فيها إلى تذوق القارىء .

ولكنا نرى فى القصيدتين ظاهرة أخرى تفرق بينهما ، وهى خلو القصيدة الأولى من الكلام عن غزو المأمون بلاد الروم خلوا تاماً ، فى حين يغمر القصيدة الثانية الحديث عن ذلك الغزو ، ووصف جيش المأمون والاشادة به ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه الظاهرة نتبين مأتاها ونتعرف تأويلها. ولا يمكن القول بأن مرجع الأمر فى هذا الاختلاف الشديد والتباين البعيد للصدفة ، أو رغبة الشاعر فى أن يفتن ويتخذ فى كل قصيدة منحى مختلفاً وفناً على حدة . فمثل هذا الكلام لا قيمة له من ناحية الفهم الدقيق للحالات الشعرية . وعندنا أن تأويل ذلك التخالف الشديد بين القصيدتين لا يمكن

(١) الديوان ص ٢١٦

فهمه على وجهه الا أن يكون هنالك اختلاف تام بين ظروف كل منهما، لا فى حالة الشاعر الذاتية ، بل فى الحالات الخارجية أيضاً . وليس فى اختلاف الزمان فحسب ، بل ان اختلاف المكان الذى صدرت عنه هذه القصيدة وتلك ، واختلاف الجو السائد هنا وهنالك ، هو ما يجب أن يوضع فى المكان الأول فى تأويل اختلاف القصيدتين على ذلك النحو . والأمر بعد ذلك واضح مساير للفرض الذى افترضناه متسق معه .

ذلك أن أبا تمام كان فى قصيدته الأولى فى مصر . ومصر بعيدة عن بلاد الروم ، من ناحية . لا تقع فى طريقها، ولاتتصل بها اتصال الشام والجزيرة وما اليهما . ثم هى ، من ناحية أخرى ، مشغولة أشد المشغلة بنفسها ، وبهذه الفتن المتصلة التى تغمرها . ومن ذلك لم يكن غزو الدولة لبلاد الروم يظفر بكبير اهتمامها ، أو يحتل حديثه مكاناً بارزاً فيها . فكان من الطبيعى على ذلك أن يكون أبو تمام خالى الذهن تقريباً من هذه الناحية ، أو هى — على الأقل — لم تبلغ فى تصوره المبلغ الذى يثير شاعريته ، فجاءت قصيدته هذه خالية تماما منها ، فى الوقت الذى عنى فيه بأن يضمنها الاشارة إلى هذه الأحداث التى كانت مصر مضطربة بها، وإلى بلاء الخليفة وفضله فيها ، إذ «انتاش مصر من الثنيا والتى يتجاوز وتعطف وتغمد» .

وأما القصيدة الثانية فقد صدرت غير هذا المصدر، وتأثرت بملابسات مختلفة ، فقد كان الشاعر فى بلاد الشام، أوفى شمالها ، حين قال هذه القصيدة. وهى قريبة من بلاد الروم ، بل هى متصلة بها متاخمة لها، يمر بها الغزاة — أو قريبا منها — فى ذهابهم إلى الغزو وأوبتهم منه ، وتتجمع فيها جموع الجند فى ثغورها وعواصمها . فلا جرم كانت أصداء الغزو قوية فيها ، كثيرة التردد بين جنباتها . فكان من الطبيعى أن تتجاوب نفس أبى تمام بهذه الأصداء، وأن تغمر خياله صور الغزو والغزاة ، فتجىء قصيدته التى يقولها فى مدح المأمون ، وهو عائد من هذا الغزو ، متأثرة بذلك كله ، ممثلة له .

وبذلك كان هذا الاختلاف بين القصيدتين . وهو اختلاف كان لابد منه.

وظاهرة ثالثة تفضي بنا إلى مثل هذا التأويل في تفسير هذا الاختلاف، وهي النغمة الشيعية التي تشيع في القصيدة الأولى، إذ يتغنى بشيعيته ويعتدها من مفاخره، ويتخذها وسيلة له يتقرب بها إلى الخليفة، إذ يقول :

وسبيلي فيها اليك طريفة — شام يدين بحب آل محمد
نيطت قلائد ظرفه بمحبر — متمشدق متكوف متغدد (١)
حتى لقد ظن الغواة وباطل — انى تجسم فى روح السيد

كأن الخليفة من صميم الشيعة، فهو يتخذ من شيعيته وسيلة يتوسل بها إليه. أو كأن الأمر عنده لا يزال كما كان عليه، حين كانت الدولة ملونة باللون الشيعي، متجهة إلى تحقيق الأهداف الشيعية. حين جعل الخليفة ولي عهده علي بن موسى الرضا، رأس الامامية في عصره، وكأن شيئاً من ذلك لم يتغير. فما عسى أن يكون تأويل هذا الأمر؟

لاريب أن أباتمام كان يدين بالتشيع منذ أول عهده بمصر. وبين أيدينا الدليل على هذه الدعوى في قصيدته :

أظبية حيث استنت الكتب العفر — رويدك لا يغتالك اللوم والزجر (٢)

وقد قالها في أوائل عهده في مصر، وهو في سن السابعة عشرة، كما سبقت الاشارة إلى ذلك. وهي لا تدع لدينا شكاً في أن أبا تمام كان متشيعاً مؤمناً بشيعيته أشد الايمان، متحمساً لها أشد التحمس، ممتلىء النفس بعقائدها ومأثوراتها، على النحو الذي نراه فيما يردده في هذه القصيدة من الآراء والمشاهد والأخبار التي يروونها عن علي :

---

(١) يقول التبريزي في شرحه على أبي تمام : «وصف نفسه بالمتكوف حيث إلى المأمون بأنه شيعي، لأن المأمون أظهر التشيع في أول أمره. وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعة».

(٢) الديوان ص ١٢٠.

بأحد وبدر ، حين ماج برجله وفرسانه أحد وماج بهم بدر
ويوم حنين والنضير وخـــيبر وبالخندق الثاوى بعقوته عمرو
سما للمنايا الحمر حتى تكشفت وأسيافه حمر وأرمـاحه حمر
ويوم الغدير استوضح الحق أهله بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر

إلى غير ذلك من الصور الشائعة المستفيضة فى أحاديث الشيعة ، يؤديها فى عبارة محكمة رصينة لا يتلجلج فيها ولا يتكلف ولا يتوقف ولا يسف ، حتى لتحسب أسلوبه أكبر من سنه فيها . ولعل ذلك يدلنا دلالة قوية على أنه كان قد اتصل منذ دخل مصر ببيئات الشيعة ومجالسهم اتصالا وثيقاً ، استطاع أن يلم بهذه المعرفة الشيعية الواسعة ، ويغمر قلبه بذلك الايمان القوى بالتشيع وتلك الحماسة الشديدة له . وقد كان التشيع شائعاً فى مصر ، غالباً على علمائها وكثير من رجال الأدب فيها .

ولكن شيعية أبى تمام ، مهما بلغ من ايمانه بها وتحمسه لها ، لا تفسر لنا تفسيراً سائغاً ذلك المسلك الغريب فى مدح الخليفة ، إذ يواجهه بشيعيته معتزاً بها ، ويتخذ منها شفيعاً يتقدم به اليه ، فقد كانت له عن ذلك مناديح كثيرة ، الا أن يكون الرجل غافلا حقاً عما جد فى سياسة الدولة منذ عاد المأمون إلى بغداد ، وأخذ يتخلص شيئاً فشيئاً من آثار العهد الخراسانى . وبهذه الغفلة توجه إلى المأمون لابسا لبوس الشيعة حاملا شعارها ، معتقداً انه قد اتخذ لديه خير الوسائل وأوثق الأسباب .

ولكن كيف يغفل أبو تمام هذه الغفلة ؟

إنما يصح ذلك عندنا على اعتبار أن أبا تمام كان فى مصر وقت انشاء هذه القصيدة ، فتلك هذه الغفلة مفهومة فيها فى تلك الفترة ، إذا قدرنا الاعتبارات التى كانت تكتنفها . فهى — أول شىء — بعيدة عن العراق مركز الدولة وعن الاتصال المباشر به ، ثم هى كانت فى شغل شاغل بكل ذلك الذى كانت تضطرب به ، مما عرفناه من قبل طرفاً منه ، ومما هو جدير أن يصرفها عن

تتبع تلك التطورات والتغيرات التي تتعرض لها سياسة الدولة . وأخرى ترجع إلى غلبة المذهب الشيعي عليها . وقد كانت أحست الغبطة حتى نمى اليها أن الزمان قد انتصف للشيعة ، وان حقهم فى الإمامة قد عاد اليهم — وما كانوا يشكون فى عودته — بذلك الاتجاه الشيعي الخالص الذى اتجهت اليه الدولة. وقد نقل هذا الخبر إلى ضمائر أهل مصر ، ورأوا فيه تحقيقاً لما كانوا يترقبونه واستقر فى نفوسهم ، واستطاعوا بذلك أن يوفقوا بين عقيدتهم والولاء للدولة القائمة . فقد كان من الصعب بعد ذلك أن تتحول نظرتهم هذه للدولة ، إلا أن يحدث حدث خطير يهز النفوس هزا عنيفاً ويستطيع أن يمحو ما وقر فيها من ذلك . هذه الاعتبارات مجتمعة تجعل مثل تلك الغفلة عن تتبع سياسة الدولة أمراً قريب الفهم يسير التأويل .

وهكذا ظل الأمر فى مصر ، وفى البيئات الشيعية التي كان يعيش فيها أبو تمام خاصة ، مقصوراً على ذلك التصور لسياسة الدولة ، وظلت آفاقها مقفلة على ذلك الادراك ، فلم يكن عجيباً إذن أن يتقدم أبو تمام إلى الخليفة متوسلا بشيعيته وكوفيته ، وأن يفخر أمامه بذلك ، كما كان يقول قبل ذلك فى أوائل عهده بمصر ، فى قصيدته التي عرضنا لها منذ قليل :

وكوفي ديني ، ولكن منصبي   شآم ونجرى آية ذكر النجر

ثم لا يرى بأساً فى أن يذكر «الرضا» فى شعره ، سواء كان المقصود به على بن موسى الرضا أو «الرضا من آل محمد» الذى اعتمدت عليه الدعوة ضد الأمويين ، فيقول :

الله يشهد أن هديك للرضـــا   فينا ويلعن كل من لم يشهد

ولا يعلم أن مثل ذلك أصبح موسوماً بسمة الثورة .

والواقع ان مقام أبي تمام فى مصر ، وفى الأوساط الشيعية خاصة ، لم يكن ليتيح له أن يتسع أفقه من الناحية السياسية ، وانما تم له ذلك بعد أن غادر مصر ، واتصل بحقائق الأمور عن كثب ، وجعلت التيارات السياسية

تمر أمام عينيه فى ذلك المزدحم السياسى المفتوح ، فاختفت هذه الشعرية الغريرة ، ولم يعد لها أثر فى قصيدته الأخرى، ولا فى سائر قصائده .

وهكذا نرى أن هذه الظاهرة فى قصيدة أبى تمام الأولى تضيف عاملا جديداً إلى العوامل التى تؤيد الفرض الذى افترضناه أولا ، وهو مصريتها .

وبعد ، فاذا كان ضيق الأفق السياسى الذى كان أبو تمام يعيش فيه فى مصر قد جعله يغفل هذه الغفلة، فيخطئه التوفيق فيها من ذلك الوجه ، فان الأمر لم يكن مقصوراً على ذلك ، وانما اخطأه التوفيق فيها من ناحية صياغتها الفنية أيضاً ، بالرغم مما يبدو عليها ، فى أكثر أجزائها ، من شدة احتفاله لها وعنايته بها . وربما كان ذلك من أول أسباب سقوطها، واخفاقه فيما جعل يستشرف اليه ويتطلع طامعه .

ومهما يكن من أمر ، فان نية الرحيل التى كانت ماتزال تراود أبا تمام ، لم تلبث، بعد أن رحل المأمون عن مصر ، ان برزت فى إصرار فلم يعد بد من أن يعد للرحيل أهبته، ويغادر مصر إلى الشام، موطنه الأول.

١٥

ولسنا ندرى شيئاً عن ملابسات ترك أبى تمام مصر إلى الشام، إلا ما رأيناه من ضيقه بها وخيبة آماله فيها . على أن هناك شيئاً جديراً بأن يلفت نظرنا ويجعلنا نمد ذلك النظر قليلا ، وهو أننا حين نلقى أبا تمام فى الشام عقب تركه مصر نراه قد عقد صلته بأبى المغيث موسى بن ابراهيم الرافقى (١) . وكان إذ ذاك متقلداً بعض أعمال الشام ، كما يقول المرزبانى . ولكن أبا المغيث هذا كان فى مصر قبل ذلك . كان فيها فى الوقت الذى كان أبو تمام يفكر

---

(١) كان فى حاشية عبد الله بن طاهر ، فى خروجه من الجزيرة إلى مصر ، رجل اسمه اسحاق ابن ابراهيم الرافقى (انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٤) . أفيكون هذا الرجل أخاً موسى بن ابراهيم أبى المغيث هذا ؟ إذا صح ذلك كان فيه — فيما نحسب — ما يعين على تصور علاقة أبى تمام به تصوراً أدق وأكمل .

فى تركها ، ويود لو اتيح له الرحيل عنها . وكان يتولى بعض المناصب فيها إذ كان على شرطتها فى أيام ولاية عيسى بن منصور الرافقى ، سنة ٢١٦ . وعيسى بن منصور هذا هو ابن عمه ، كما يقول الكندى . ولكنا لا نلبث حتى نرى مكانه يعظم شيئاً ما فى أبان زيارة المأمون وبسبب منها ، إذ يسخط على ابن عمه عيسى بن منصور ، ويأمر بحل لوائه ، ثم يجعل أبا المغيث خلفاً له ويضم أصحاب عيسى إليه ، ويعقد له على جيش يبعث به إلى الصعيد . ثم لا نعلم ما انتهى اليه أمره بعد ذلك ، إذ تنقطع عنا أخباره ، حتى نراه متوليا بعض أعمال الشام ، ونرى أبا تمام يقصده فى دمشق بالمديح .

فهل لنا أن نفترض هنا أن هذه الصلة التى نراها بين أبى تمام وأبى المغيث فى الشام ، انما نشأت بمصر فى ذلك الوقت ، وأن رحلته إلى الشام كانت ملتبسة ، على نحو ما ، برحلة أبى المغيث اليها ليكون على بعض أعمالها ؟ ذلك فيما نحسب فرض قريب ، وان كنا لا نرى أثراً لهذه الصلة فى شعره الذى نعرف انه قاله فى مصر . ولكنا نعلم علم اليقين ، إلى جانب هذا ، أن ذلك الشعر لم يصل الينا كاملا ، حتى يمكن أن يعتمد عليه فى تهجين ذلك الفرض .

المؤرخ وليــام الصورى

للدكتور عمر كمال توفيق

كان لوليام رئيس أساقفة كنيسة صور ، أهميته كرجل من كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية فى الشرق ، كما كانت له مكانته المرموقة بين رجال الدولة المسئولين فى مملكة بيت المقدس الصليبية . الا أن شهرته فى العصور التالية لعهده قد قامت على أساس انجازاته كمؤرخ ، هذا بالرغم من ضياع بعض مؤلفاته فى التاريخ . ومهما يكن من أمر فإن تاريخه الكبير الذى وصل إلى أيدينا والذى اشتهر باسم :

"Historia rerum in partibus transmarinis gestarum"

أى «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ماوراء البحر» يحتل مكانة عظيمة الأهمية بين مصادر تاريخ الحروب الصليبية . وقد جرى العرف على اعتبار كتاب وليام المذكور الأصل الذى تفرع منه أدب الحروب الصليبية ، مع اعتبار ان الجذور وجدت فيما سبقه من المؤلفات ، وان الفروع كانت الكتب التى وضعها المؤرخون اللاحقون مع عدم ذكر أسمائهم واعتبروها ملاحق أو مذيلات على تاريخ وليام (١) .

والواقع ان محاولة دراسة حياة وليام وتكوين صورة كاملة لها ليس أمراً سهلا . وقد تطلب هذا العمل جهود عديد من العلماء ، بدأت من القرن السادس عشر واستمرت حتى يومنا هذا . (٢) وترجع هذه الصعوبة

---

(١) أنظر J. L. La Monte "Some Problems in Crusading Historiography Speculum, xv (1940), 60.

(٢) أنظر : قائمة الدراسات المختلفة لحياة وليام الصورى فى William of Tyre, History of Deeds Done Beyond The Sea (Trans. E. A. Babcock & A.C. Krey, New-york, 1943), vol. I, p.p. 5-6.

للنقص فى المعلومات التاريخية التى جاءت عن حياته ، الأمر الذى اضطر الباحثين للاعتماد إلى حد كبير على الشذرات والاشارات المحدودة التى جاءت فى التاريخ الذى وضعه .

ولد وليام فى مملكة بيت المقدس الصليبية حوالى سنة ١١٣٠ م . والظاهر أن نشأته كانت فى مدينة بيت المقدس نفسها . ومن المحتمل أن أبويه كانا قد نزحا من احدى بلاد غرب أوربا ، ولو أننا لا نستطيع أن نجزم برأى نهائى فى ذلك (١) . فإن وليام الذى وضح فى تاريخه أنساب الآخرين وأصولهم لم يدل بشيء عن عائلته وأصلها . ولكن تدل الشواهد على أن وليام أمضى السنوات الأولى من حياته فى فلسطين ، والمرجح أنه استقر به المقام فى بيت المقدس . فإن ما رواه عن صباه عرضاً ، إنما يتركز بأكمله فى هذه المدينة ، التى يظهر من تاريخه معرفته الوثيقة بشوارعها ومبانيها المختلفة . وقد أتاحت له معيشته فى هذه الانحاء الفرصة لكى يتقن عدداً من اللغات . فألم بالفرنسية وهى لغة البلاط الصليبى ، والعربية التى كانت تستعمل بكثرة فى محيط التبادل التجارى إلى جانب اللغة الفرنسية . ويظهر كذلك أن وليام كانت له دراية باللغة اليونانية التى انتشر استعمالها فى الشرق بحكم صلة الجوار المباشر مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت لها اتصالات متنوعة مع الصليبيين وشعوب الشرق الأدنى الاسلامى . وفضلا عن ذلك فيبدو أن وليام كان على الأقل على بعض العلم بلغات أخرى مثل العبرية والفارسية . وكانت اللاتينية بطبيعة الحال هى لغة الكنيسة والمدارس فى المملكة اللاتينية . وان إتقان وليام الواضح لهذه اللغة مما يشهد بأنه تلقى تعليما ممتازاً .

وقرر وليام ، على ما يبدو ، منذ مرحلة مبكرة فى حياته العمل فى السلك الكنسى . ويتضح من تاريخه أن الشخصية الرئيسية التى أثرت فيه فى صباه كان بطرس البرشلونى الذى كان يشغل منصب رئيس الرهبان الملحقين

---

(١) بخصوص مناقشة الآراء المختلفة فى أصل أسرة وليام انظر المرجع السابق ج ١ ص ٨

بكنيسة الضريح المقدس من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٨ م ، أى الزمن الذى يرتبط بالسنوات الخمس والعشرين الأولى من حياة وليام . وكان المعهد الدينى الذى رأسه بطرس مختصاً باعداد القساوسة وتعليمهم . وأظهر وليام حينئذ من المثابرة والشغف بتحصيل العلم ما قر به من أساتذته وخاصة بطرس السالف الذكر .

ولابد أن وليام وجد فى بيت المقدس فرصة طيبة لتلقى تعليمه الدينى . فقد تجمع هناك عدد من العلماء الذين كانوا فى غالبيتهم من الزائرين الذين توافدوا من غرب أوربا لقضاء فريضة الحج والعودة بعدها . كما كان منهم المتقدمون فى العمر الذين جاءوا إلى هذه البلاد عاقدين العزم على قضاء ما تبقى من حياتهم فى الأراضى المقدسة تيمناً بها . وقد ضمت الاديرة عدداً من الأفذاذ المشتغلين بالعلم مثل جيوفرى رئيس معبد السيد المسيح الذى اكتسب شهرة لتعمقه فى دراسة اللغة اليونانية . وهكذا أتيحت الفرصة لوليام الصورى لكى يستفيد من هؤلاء العلماء سواء أكان ذلك بالاختلاط بهم فى الأديرة أو المنظمات الكنسية أو أثناء التردد على الأضرحة المختلفة وزيارتها . ولا بد أن بطرس البرشلونى قد تولى الاشراف على تعليم تلميذه وليام وتوجيهه .

ومن المعروف أن وليام بعد أن قطع مرحلة طيبة من التعليم والاعداد اللازم ، أصبح من رجال الكهنوت التابعين لرئيس اساقفة كنيسة صور . ويتضح ذلك من احدى الوثائق المؤرخة فى سنة ١١٦١ م ، ولو أن المصادر لم تبين على وجه الدقة متى تم ذلك . هذا وقبل أن تبدأ سنة ١١٦٣ م ، قرر وليام عبور البحر الأبيض المتوسط والذهاب إلى غرب أوربا ليواصل دراسته هناك ، الأمر الذى اشار اليه إشارة عابرة فى تاريخه (١) . وكان حينئذ فى بداية العقد الرابع من عمره . والمرجح انه أثناء اقامته فى الغرب اهتم بشكل خاص بدراسة القانون ، الذى أصبح أمراً لازماً لمن يهيأ لشغل منصب دينى

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠١

كبير ، وذلك لازدياد أعباء رجال الدين وتشعب مسئولياتهم(١) . ومن المؤكد أن وليام كان لا يزال يتابع دراسته فى الغرب عندما أعتلى الملك عمورى عرش بيت المقدس . وكانت عودة وليام إلى البقاع المقدسة فى خريف سنة ١١٦٣ م على وجه التقريب .

ولا يعرف الكثير عن تفاصيل حياة وليام فى السنوات الأربع التى تلت عودته إلى المملكة الصليبية . ولكن من المعروف أن أستاذه بطرس الذى أصبح رئيساً لاساقفة كنيسة صور قد مات ، وتلاه فى منصبه رجل يعرف باسم فريد ريك ، لم يكن على شاكلته ، ولم تكن علاقة وليام به طيبة. ويظهر أن عمل وليام اقتصر فى ذاك الوقت على أداء الواجبات العادية التى يقوم بها رجل الكنيسة . وربما اختص بالجانب القانونى من أعمالها ، هذا فى الوقت الذى أخذ يتطلع فيه ليصبح رئيساً لاساقفة أحدى الكنائس الهامة أو بطريرك المملكة الصليبية .

ومنذ سنة ١١٧٦ م ، بدأ وليام مرحلة جديدة من حياته أخذت أسهمه فيها فى الارتفاع ، وكان ذلك على أثر بداية أرتباطه بخدمة عمورى . فإن هذا الملك كان شغوفاً بقراءة التاريخ مهتماً بمتابعته . وقد أراد أن يسجل عهده وأحداثه خاصة وأنه اختمرت فى ذهنه فكرة فتح البلاد المصرية ، الأمر الذى يعد بالنسبة للصليبيين أكبر مشروع لهم بعد الاستيلاء على بيت المقدس وإقامة المملكة الصليبية فى الشام . وهكذا فقد اراد عمورى أن يسجل له التاريخ ما يحققه من أمجاد . وعلى ذلك قرر أن يختار رجلا كفؤا يكلفة بكتابة تاريخه ، وقد وقع اختياره على وليام ، وكان موفقاً فى هذا الاختيار. حقيقة أن وليام لم يتلق فيما سبق التدريب اللازم للمؤرخ ، الا أنه كان يبز كثيرين من أقرانه من رجال الكنيسة فى القدر الذى ناله من التعلم . كما عرف عنه أسلوبه الأدبى الرفيع والالمام بعده لغات . والظاهر أن وليام كان متردداً فى أول الأمر فى الاضطلاع بهذه المهمة الجديدة خشية أن يحيد عن هدفه

---

(1) A. C. Krey, "The Making of An Historian In The Middle Ages" Speculum, xv 1 (1941), 149-66.

الأصلى وهو الترقى فى سلك الكهنوت . ومهما يكن من أمر فقد قبل هذا العمل ، وعينه عمورى رئيساً لشماسة كنيسة صور ، كما خصص له راتباً أكبر من الراتب المعتاد الذى يتقاضاه من يشغل هذا المنصب .

وهكذا بدأ وليام وهو فى مرحلة منتصف العمر عمله كمؤرخ . وقد اقبل على ذلك بكل حماسة ونشاط وتقدير للمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه. وقد واصل نشاطه فى كتابة التاريخ بشكل شبه مستمر منذ سنة ١١٦٧ وهى السنة التى بدأ فيها حتى سنة ١١٨٤ م وهى التى توقف فيها عن الكتابة قبيل موته . الا أن عمل وليام ، فى هذه المرحلة من حياته لم يقتصر على كتابة التاريخ فقد عهد اليه المسئولون بالمملكة الصليبية بمهام أخرى كذلك . الا أن هذه المهام ، وان كانت قد اضافت إلى ما تحمله من اعباء ، فانها جعلته على اتصال وثيق بأحداث المملكة الصليبية وأخبارها . فعلى أثر الاتصال بين وليام وعمورى ، ازداد تقدير الأخير لمؤرخه ، حتى انه لما بدأ فى التفاوض مع الامبراطور البيزنطى بغرض القيام بحمله مشتركة لغزو مصر ، أرسل عمورى وليام إلى القسطنطينية لاتمام عقد الاتفاقية الصليبية البيزنطية . وقد أتاحت هذه المهمة لوليام فرصة التعرف عن كثب على عاصمة الامبراطورية البيزنطية . ونجح فى مهمته هذه . كما أن وليام اضطرته بعض المسائل الكنسية للسفر إلى روما عقب ذلك . وافادته اقامته هناك فى معرفة البلاط البابوى وسياسته . وللنجاح الذى احرزه وليام فى أكثر من عمل ، ازدادت ثقة عمورى به حتى لقد كلفه سنة ١١٧٠ بتعليم ابنه وولى عهده بولدوين الذى كان فى التاسعة من عمره . وأصبحت رعاية هذا الأمير الصغير إحدى مسئوليات وليام ، الذى ازدادت له بذلك فرص الاتصال بالملك وحاشيته واستقاء المعلومات عن أحداث الدولة التى كان يؤرخها . وفى نفس الوقت نشأ بين وليام والأمير بولدوين تعاطف وتقدير متبادل ظهرت نتائجه بعد اعتلاء الأخير للعرش.

وفى سنة ١١٧٤ م ، مات الملك عمورى ، وله من العمر ثمان واربعون سنه ، وفقد وليام بذلك صديقاً عزيزاً عليه . كما أن خلفه وهو بولدوين

الرابع ، تلميذ وليام ، لم يكن قد بلغ بعد سن الرشد ، إذ كان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره . ولم يكن بولدوين قد أتم تعليمه كما كان ضعيفاً جسمانياً لاصابته بالجذام . ونتيجة لذلك فقد استأثر بالسلطة والاشراف على شئون المملكة أحد النبلاء الصليبيين وهو ميلون دى بلانسى ، الذى عده وليام أسوأ مستشارى الملك الراحل . الا أن هذا الأمير قد اغتاله بعض اعدائه في خريف نفس السنة . (١) ووقع الاختيار بعد ذلك على ريموند الثالث أمير طرابلس ليكون وصياً على الملك . وقد عين هذا الأمير مؤرخنا وليام الصورى مستشاراً للمملكة . (٢) وتبع ذلك تنصيبه رئيساً لأساقفة كنيسة صور في ٦ يونيو ١١٧٥ م . وهكذا أصبح لوليام مركزاً هاماً في شئون كل من الدولة والكنيسة في المملكة الصليبية . وفضلا عن ذلك فعندما بلغ بولدوين الرابع السن القانونى لمارسة سلطته سنة ١١٧٦ ، انتهت وصاية ريموند ، وصار وليام المستشار الأول للملك .

وأصبح من المتوقع إذذاك أن وليام سيخلف أماليك الذى اشتد به المرض ، في المنصب الدينى الأكبر في المملكة ألا وهو منصب بطريرك بيت المقدس . وكان هذا هو الأمل الأكبر لوليام الذى بدأ حياته على أساس الخدمة والترقى في سلك الكهنوت . وكان من البوادر التى أظهرت ذلك تعيين وليام على رأس الوفد الدينى الذى أرسل إلى روما سنة ١١٧٨م بناء على دعوة البابا (٣) . وقد وفق وليام في مهمته ولفت نظر البابا بكفاءته ونشاطه حتى لقد كلفه بمهمة خاصة في القسطنطينية ، والمرجح أنها تعلقت بموضوع محاولة التوحيد بين كنيستى روما والقسطنطينية ، الأمر الذى لابد وقد شجعته ميول الامبراطور مانويل اللاتينية .

---

(١) William of Tyre, op. cit, II, 401

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٠٢ — ص ٤٠٤

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٢٦

الا أن وليام على أثر عودته إلى المملكة الصليبية (حوالى سنة ١١٨٠) قد أصيب بخيبة أمل فيما يتعلق بالحصول على منصب البطريرك ، كما أن نفوذه السابق أخذ في الضعف والاضمحلال . إذ أن تدهور صحة الملك بولدوين أدى إلى إثارة موضوع تعيين وصي على العرش . وقد اختلف نبلاء المملكة في ذلك وقامت جماعتان متنافستان ، الأولى وتتكون من الأمراء القدامى وعلى رأسهم ريموند أمير طرابلس ، والأخرى وهى جماعة البلاط وأهم شخصياتها الأميرة سيبيلا أخت بولدوين ووريثة العرش وزوجها جى لوسنيان المغامر الفرنسى والملكة الأم أجنس . وكانت تلك الجماعة الأخيرة تعتمد على مجموعة من النبلاء الغربيين حديثى العهد بالأراضي المقدسة ، وتمكنت هذه الجماعة من التغلب والاستئثار بالسلطة . وحيث أن وليام كان معروفاً باتصاله بريموند ومعارضته لجى لوسنيان ، فلم يجد معاملة حسنة من جانب المسئولين الجدد . وهكذا فعندما مات البطريرك أماليريك في ٦ اكتوبر سنة ١١٨٠ م ، تخطت جماعة البلاط وليام بالرغم من كفاءته المعروفة ، وعينت هرقليوس رئيس أساقفة قيسارية في المنصب الشاغر (١) . وهكذا أغلق دون وليام باب الترقى في السلك الكنسى في المملكة . وفضلا عن هذا فبالرغم من أنه من الناحية الرسمية كان لا يزال مستشار المملكة فإنه عومل باهمال وأصبح لا يعرض عليه من الأمور الا القليل النادر وفي المناسبات الضرورية . وهكذا فبعد أن كان في سنة ١١٧٨ أكثر موظفى المملكة نفوذاً فإنه بعد عودته إلى بلاده كاد أن يصبح مسلوب السلطة والنفوذ .

ولم يكن وليام راضياً عن أحداث المرحلة الأخيرة من حياته . ففى الوقت الذى هدد فيه الصراع الداخلى بين جماعتى البلاط والنبلاء القدامى بتصدع وحدة المملكة الصليبية ، كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى يقوم بتجميع قوى المسلمين ويعد العدة للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين . ونحن لا نعرف على وجه التحديد تاريخ وفاة وليام . ويرى المؤرخ كرى أنها كانت

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٥١

قبل شهر مايو سنة ١١٨٥ م ، بناء على أن فى هذا التاريخ عين نائب وليام ليخلفه كمستشار مملكة بيت المقدس (١) . أما رانسمان فيقول أن وليام بعد فشله فى الحصول على منصب البطريرك اعتزل إلى روما سنة ١١٨٣ ومات هناك قبل سنة ١١٨٧ م (٢) . وعلى أية حال فقد كانت وفاة وليام فى العقد التاسع من القرن الثانى عشر الميلادى وكان ذلك قبيل حدوث موقعة حطين واسترجاع المسلمين لمدينة بيت المقدس .

ومهما يكن من أمر ، فان وليام بحكم المناصب التى شغلها والاعباء التى اضطلع بها قد اتيحت له فرصة طيبة لمعرفة بواطن الأمور فى المملكة الصليبية ودراسة أحوالها ومشاكلها . وقد مكنه ذلك كله من الاجادة فى كتابته التاريخية . والواقع أن كتابه الذى وصل إلى أيدينا والذى اشتهر باسم «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر» جاء كثمرة نهائية لانتاجه التاريخى . وقد قام وليام أصلا بوضع ثلاثة كتب فى التاريخ ، وهى حسب الترتيب الزمنى فى تأليفها :

1) "Gesta Amalrici regis" أعمال الملك عمورى

2) "Gesta Hiersolymitanorum regum" أعمال مملكة بيت المقدس

3) "Gesta orientalium principum" أعمال الأمراء الشرقيين

وبشأن الكتاب الأول وهو «أعمال الملك عمورى» الذى شرع فى تأليفه بناء على رغبة الملك عمورى ، فلا ندرى عما اتخذه وليام من خطوات فى أول أمره ليلم بكيفية كتابة التاريخ . ولكن من المعروف أنه أخذ يستجوب قادة الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة الأولى التى قام بها عمورى على مصر ويستفسرهم عما شاهدوه من أحداث . كما أن وليام اعتنى بدراسة ما جمعه

---

(١) William of Tyre, vol. I, p. 52

(٢) S. Runciman, A History of The Crusades (Cambridge, 1952) vol. II p. 476

وعصره جداً . وإن وزنه للأمور إذ ذاك يذكرنا بعمل القاضي الدقيق ، ويغلب على الظن انه كان يكتب نتائج بحثه بعد ذلك مباشرة . ومما يلاحظ فى هذا المجال اهتمام وليام بإدراج عدد من المسائل المتعلقة بحملات عمورى على مصر ، ومن أهمها خصائص البلاد المصرية وخصال أهلها . وقد أعطى صورة تفصيلية للحياة فى بلاط الفاطميين فى القاهرة بالشكل الذى وجدها عليه الصليبيون . هذا ولم يفت وليام أن يوضح أهمية مركز مدينة الاسكندرية ونشاطها التجارى (١) .

والظاهر أن اثناء محاولة وليام لوضع بداية تاريخ «أعمال الملك عمورى» اتضحت له وللملك الحاجة إلى كتاب فى التاريخ يوضح أحداث المرحلة السابقة لتاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، منذ أن توقف المؤرخ فولشير الشارترى حوالى سنة ١١٢٧ م . بل ان المؤلفات التاريخية السابقة أصبحت لا تكفى لاشباع رغبة الصليبيين فى التعرف على أحوال بلادهم حينئذ . ويبدو أن عمورى الشغوف بقراءة التاريخ ، ووليام المضطلع بالكتابة عن عصر عمورى ، قد رأيا أنه من الضرورى وضع كتاب آخر فى تاريخ المملكة فى عهدها السابق بدءا من أخريات القرن الحادى عشر . وشرع وليام فى تصنيف هذا الكتاب الذى عرفه فى ثنايا كتاباته بإسم تاريخ « أعمال مملكة بيت المقدس » . ولابد أن مؤرخنا قد واجه فى ذلك ما يواجهه المؤرخون الذين يحاولون الكتابة عن عهود سابقة . فقد اضطر للاعتماد فى تصنيف الجزء الأول من الكتاب على مادونه المؤرخون السابقون . إلا أنه خالف غالبية مؤرخي العصور الوسطى فى طريقة الاعتماد على المصادر السابقة . فهو لم يكتف بالاعتماد على مصدر واحد، بل كان يرجع عادة فى معالجة الحدث الواحد إلى عدة مصادر ، ان توافرت، ويقارنها ثم يبدى رأيه الخاص إذا إقتضى الأمر ذلك. والمعروف أنه كانت تحت تصرفه المصادر الخاصة بتاريخ الحقبة السابقة مثل «أعمال الفرنجة» ومؤلفات رعوند الأجيلى وولتر

---

(١) بشأن وصف وليام البلاد المصرية وأهلها انظر :

William Of Tyre, op. cit vol. II, pp. 315-17, 319-20, 329-331, 335-337

المستشار وفولشير الشارترى . هذا وكان وليام حريصاً بقدر إمكانه فى عدم تقبل الروايات ذات الطابع الاسطورى أو التى تغلب عليها صبغة المبالغة .

ولقد أحرز وليام تقدماً فى كتابة التاريخين السابقى الذكر ، بالرغم من تحمله مسئولية تربية إبن الملك . هذا وقد عهد اليه عمورى بعبء جديد فى تدوين التاريخ . فإن هذا الملك أراد معرفة المزيد عن تاريخ المسلمين فى عصورهم السابقة . ولابد أن عظمة الحضارة التى شاهدها فى مصر عند قيامه بحملاته عليها ، قد حركت فى نفسه الرغبة للتعرف على المزيد . ولذا فقد حث وليام على أن يكتب تاريخاً عن حكام الشرق وانجازاتهم منذ عصر النبى محمد حتى عهد وليام . ولكى يسهل عليه القيام بهذه المهمة أمده بعدد من الكتب العربية ؛ والمرجح أن هذه الكتب كانت أصلا من مكتبة الأمير العربى أسامة بن منقذ التى صادرها الملك بولدوين الثالث عندما غرقت المركب التى كانت تحملها على مقربة من مدينة عكا (١) . وقد نص وليام بالذات على استعانته بكتاب المؤرخ العربى سعيد بن البطريق . وفضلا عن ذلك فلابد أن وليام وجد فى مدينة صور فرصة للحصول على المزيد من أخبار المسلمين وتاريخهم . فقد وجد فى هذه المدينة فى عصر وليام مساجد هامة يؤمها المسلمون وعلماؤهم . وأشار الرحالة إبن جبير الذى زار صور سنة ١١٨٤ م وامضى بها بعض الوقت ، إلى ما لاحظه بها من العلاقات والتعايش السلمى بين المسلمين والصليبيين (٢) . وكان هذا التاريخ الذى وضعه وليام عن المسلمين هو الذى عرف بإسم «أعمال الأمراء الشرقيين» . الا أن هذا الكتاب قد فقد ولم يصل إلى أيدينا .

---

(١) تحدث أسامة من استيلاء الصليبيين على مكتبته القيمة التى كانت ، طبقا لتقديره ، تتكون من اربعة الاف مجلد من الكتب الفاخرة ، وقد اعتبر فقدها خسارة كبرى فقد كتب فى ذلك « فان ذهابها حزازة فى قلبى ما عشت » .

انظر : أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، (ت . فيليب حتى . الولايات المتحدة ، ١٩٣٠) ص ٣٤ — ص ٣٥ .

(٢) رحلة ابن جبير (ت . حسين نصار . القاهرة ، ١٩٥٥) ص ٢٩٤ — ص ٢٩٦ .

ومهما يكن من أمر ، ففي سنة ١١٨٢ م ، ووليام في السنوات الأخيرة من عمره ، كان كتابه «أعمال مملكة بيت المقدس» قد أوشك على الانتهاء ليكون بداية لكتاب «أعمال الملك عمورى» . وقد قرر وليام حينئذ ادماج الكتابين ليكونا كتاباً واحداً جامعاً في تاريخ مملكة بيت المقدس ، وشرع في تنفيذ ذلك. وكان هذا الكتاب الجديد هو الذى عرفه المؤرخون فيما بعد باسم «تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر» . وقد تبين وليام وهو في مرحلة تصنيف هذا الكتاب الأخير ، الذى أراد أن يجعله مرجعاً للمسيحيين عامة للتعرف على تاريخ المملكة الصليبية ، ضرورة إضافة بعض المعلومات إليه . ولذا تخير له بعض الأجزاء من كتاب «أعمال الأمراء الشرقيين» . كما ادرج شيئاً عن تاريخ بيت المقدس منذ سقوطها في أيدى الفرس سنة ٦١٤م حتى التبشير بالحملة الصليبية الأولى لاسترجاعها في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . هذا وقد زود وليام هذا الكتاب الجديد بعدة فقرات عن المعارف الجغرافية والأثرية . ولابد أنه عند قراءة بعض الموضوعات التي دونها من قبل قد أعاد كتابتها على ضوء معلوماته وخبرته النامية . وفضلا عن ذلك كله ، فإنه دبج مقدمة قيمة لهذا الكتاب سنة ١١٨٤ م . والمرجح أن هذه المقدمة كانت آخر ما أضافه وليام إلى كتابه الذى سجل أهم أحداث عصره حتى السنة المذكورة .

ونحن إذا أردنا الحكم على عمل وليام كمؤرخ ، فمن أول مايستلفت النظر في هذا الصدد هو هذا التقدم الملحوظ الذى أحرزه هذا الرجل في نهج الكتابة التاريخية مع ممارسة هذا العمل . فمع مرور الوقت إزدادت قدرته على نقد المصادر وتمحيصها ، كما أصبح أكثر اهتماماً بالجوهر دون التفاصيل . هذا وإذا كان وليام في أول الأمر لما أمسك بقلمه ليكتب التاريخ ، يعمل على تلبية رغبة مليكه عمورى الذى كان يرغب في تمجيد حكمه ، فإنه بعد موت هذا الملك قد تغيرت مكانة وليام في المملكة الصليبية وتغيرت بالتالى طريقة معالجته للتاريخ . فبعد أن أصبح مستشاراً للملك الجديد ، ازداد شعور وليام بالمسئولية واتضح ذلك في كتاباته . وأصبح يقصد من ورائها نوعاً من

التوجيه والارشاد فى شئون الدولة . ثم أن بعد أن تغلبت جماعة البلاط واستأثرت بالسلطة ، وضعف على أثر ذلك نفوذ وليام ، عدل مؤرخنا فى أسلوبه فى الكتابة . إذ أصبح يكتب للمسيحيين الكاثوليك عامة ، بغرض العمل على خدمة مصالح المملكة التى ينتمى اليها الا وهى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتأمين بقائهما . وقد وضع فى كتابه كل ما اكتسبه من دراية وخبرة للافادة .

وكان وليام يميل للنزاهة والانصاف فى كتابته وأحكامه . وبصفة عامة نستطيع أن نقول انه لم يخضع للتعصب العنصرى أو الدينى أو الطبقى على النحو الذى حدث لغالبية الكتاب الاوربيين المعاصرين . وقد قام فى عدة مواضع بامتداح أفراد من اللاتين والبيزنطيين بل كذلك المسلمين ومثال ذلك وصفه للملك العادل نور الدين محمد بأنه رجل حكيم فطن (١) . فكان وليام على استعداد للاعتراف بمميزات المسلمين وما قام به بعضهم من أعمال مجيدة . كما أظهر وليام اهتمامه ببيان مظاهر الحياة اليومية والصناعات والعمارة والحياة الاجتماعية ، هذا إلى جانب المسائل العسكرية والكنسية والدبلوماسية وسائر شئون الدولة .

ولقد تبوأ وليام بفضل كتاباته مكانة مرموقة بين المشتغلين بالأدب اللاتينى فى العصور الوسطى . وتميز أسلوبه بالتزام الدقة فى مراعاة قواعد النحو ، كما كان يتمتع بثروة لغوية كبيرة . ويدل تاريخ وليام على إلمامه بالأدب الكلاسيكى وتذوقه له . ويتضح هذا بشكل خاص فى الاجزاء التى وضعها فى سنواته الأخيرة . وقد اقتبس وليام فى عدة مواضع من مؤلفات فيرجيل وأوفيد وشيشرون وغيرهم .

والمسائل الرئيسية التى نأخذها على تاريخ وليام خطوه فى تحديد سنى الأحداث . حقيقة أن معظم الحوليات التى وضعت فى العصور الوسطى لم تسلم من هذا الخطأ ، الا أنه كان على نطاق كبير نسبياً فى تاريخ وليام . حقيقة

(١) William of Tyre, op. cit. vol. II, p. 146

انه كان دقيقاً فى الترتيب الزمنى للأحداث المتعلقة بموضوع واحد . الا أن مشكلته قامت عندما كان يكتب عن موضوعات مختلفة لا ارتباط بينها إلا التقارب الزمنى . ولابد أن بعض هذا الخطأ الذى وقع فيه وليام يرجع لعدم تلقيه فى الأصل التدريب المنظم للكتابة فى التاريخ . ومن أسباب ذلك أن وليام لم يعتد كما يبدو ، تحويل التقاويم المسيحية والهجرية التى جاءت فى المصادر المختلفة التى رجع اليها ، إلى نظام موحد. والظاهر انه لم يتبين ضرورة التوفيق بين التقاويم المختلفة إلا فى مرحلة متأخرة من حياته وذلك عندما أخذ يصنف تاريخه الكبير جامعاً بين كتابيه الأول والثانى وأجزاء من كتابه الثالث . وقد حاول بعض المؤرخين المتحمسين لوليام تبرئته من مسئولية هذا الخطأ ، مثل المؤرخ ستيفنسن الذى قال ان الحساب الزمنى الذى جاء فى تاريخ وليام إنما كان من وضع كاتب آخر فى فترة تالية (١) . ولكن بالاطلاع على ما جاء فى مقدمة هذا الكتاب التى وضعها وليام ، تتبين بشكل واضح مسئولية هذا المؤرخ عن خطئه المذكور .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب وليام الذى اشتهر باسم «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر» يشغل مركزاً رئيسياً بين المصادر اللاتينية التى وصلتنا عن تاريخ الحركة الصليبية . فهو المصدر الرئيسى عن العصر الممتد من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١١٨٤ م . كما أنه بطريقته الخاصة فى معالجة تاريخ المرحلة السابقة على سنة ١١٢٧ قد أصبح ملحقاً هاماً للمصادر السابقة عليه . ولمقدمة هذا الكتاب التى وضعها وليام فى أخريات أيامه ، أهمية خاصة فى تقدير عمله كمؤرخ . فقد ضمن فى هذه المقدمة خلاصة تجربته فى كتابة التاريخ ووضح وليام فيها الصعاب التى تواجه المؤرخ وجسامة المسئولية الملقاة على عاتقه . ونص على ضرورة مراعاة الدقة والأمانة المطلقة فى أداء هذا العمل . وبالرغم من أسلوبه الأدبى الرفيع بالنسبة لكتاب عصره ، فقد شعر وليام بحماسة شديدة وخشى ألا يكون أسلوبه متناسباً مع أهمية الموضوعات

(1) W. B. Stevenson, The Crusaders In The East, Cambridge, 1907; pp. 361-71.

التى تصدى للكتابة عنها . كما بين فى هذه المقدمة البواعث التى دفعته على تصنيف هذا الكتاب ، من حبه لوطنه وحرصه على تسجيل أخباره وتجاربه لينتفع بها الخلف ، لرغبته فى تلبية طلب الملك عمورى . هذا وقد أشار وليام إلى مشكلة عدم توفر المصادر . ووضح كذلك النهج التاريخى الذى اتبعه فى وضع هذا الكتاب ، من حيث تقسيمه إلى أبواب ، والموضوعات التى تناولها . كما بين صعوبة مهمة المؤرخ حين لا يكون متفرغاً لعمله . وفيما يلى نقدم ترجمة كاملة لنص المقدمة المذكورة .

***

من وليام الذى أصبح بنعمة الرب ، خادم كنيسة صور المقدسة ، وهو غير مستأهل لذلك، إلى الموقرين إخوته فى المسيح الذين قد يصلهم هذا الكتاب خلاصاً أبدياً فى الرب !

إن أى رجل حكيم لا يستطيع أن يشك فى أن الكتابة عن أعمال الملوك أمر شاق حافل بالمسئولية والاخطار . وإذا ما تغاضينا عما يتطلبه مثل هذا الواجب من العمل والمثابرة الدائبة واليقظة المستمرة فهناك لا محالة هوتان تفغران فيهما أمام كاتب التاريخ ، ولا يمكنه أن يتفادى هذه أو تلك إلا بكل صعوبة . ففى الوقت الذى يحاول فيه أن يهرب من كاريبديس ، فانه يقع فى مخالب سيلا ، التى تحيط بها كلا بها وتدرك تماماً كيف توقع بالمرء (١). فهو أما يثير غضب الكثيرين عليه ، بمتابعته طبيعة الانجازات البحتة ، أو أملا منه فى التخفيف من حدة السخط ، يلتزم الصمت حيال تتابع الأحداث ، ومن الواضح انه فى هذه الحالة الأخيرة لا يكون قد سلم من الوقوع فى الخطأ إذ أن من المسلم به تماماً أن التغاضى عن ذكر الحقيقة الواقعة للأحداث واختفاء الأمور عمداً ، أمر ينافى واجب المؤرخ . وإن فشل المرء فى واجبه خطأ بدون شك ، وذلك إذا ما حددنا الواجب بأمانة بأنه : تكييف مسلك

---

(١) كاريبديس Charybdis دوامة مائية خطيرة فى مضيق مسينا الذى يقع بين إيطاليا وصقلية. وتقف سيلا Scylla على صخرة خطيرة أمامها . وسيلا هذه كما تروى الاساطير القديمة ، كانت حيوانا انثى له اثنتا عشرة ذراعاً وست رقاب ، وقد أعتبر القدامى كلا من كاريبديس وسيلا خطرا مهلكا .

كل فرد بما يتلاءم مع تقاليد بلاده ونظمها » . ولكن من ناحية أخرى ، فإن اقتفاء أثر الوقائع ، وعدم التغيير فيها أو عدم الحيد عن طريق الحقيقة هو مسلك يؤدى دائماً إلى اثارة الغضب . فإن الحكمة القديمة تقول : «المجاراة تكسب الأصدقاء ، والصدق يستجلب الكراهية » وعلى ذلك كله ، فإن المؤرخين إما أن يقصروا فى واجب مهنتهم بإظهار المجاراة غير اللائقة بهم ، أو أنهم ببحثهم الجاد عن حقيقة الأمر يضطرون لتحمل الكراهية ، التى هى وليدة للذكر الحقيقة . وهكذا فمن الشائع جداً أن هذين الطريقين قد درجا على مقابلة الواحد منهما للآخر ، والتعادل فيما يتسببان فيه من المشاكل نتيجة لمتطلباتهما الضرورية .

وقد جاء فى كلمات شيشروننا : «قول الحق أمر مكدر لما ينجم عنه حقيقة من الكراهية التى تسم الصداقة . ولكن المجاراة أخطر فى جلب النوائب ، لأننا بالترفق فى معاملة الصديق ، نسمح له بالاندفاع نحو التهلكة (١) وهذه عاطفة تتغلب على المرء الذى يجافى مقتضيات الواجب ، فيخفى الحقائق من أجل أن يكون مجاملا .

أما أولئك الذين ينسجون الأكاذيب عمداً فى سجل تاريخهم وذلك رغبة منهم فى التملق ، فإن مسلكهم يعتبر أمراً بغيضاً ، ويجب الا يتسموا إلى طائفة المؤرخين . فإنه إذا كان من الخطأ والتقصير فى واجب الكاتب أن يخفى حقائق الانجازات الواقعة ، فمن المؤكد أنه لأقبح إثماً إذا لبس الزيف بالحق وألقى إلى الخالفين الذين يأتمنونه ما هو غير صحيح فى أساسه على أنه أمر حقيقى .

وفضلا عن هذه الصعاب ، فإن كاتب التاريخ تواجهه صعوبة أخرى مماثلة أو أشد مشقة ، وعليه أن يحاول تجنبها قدر الامكان . ونقصد بذلك أن أهمية الأحداث التاريخية قد تتعرض للتشويه بسبب سوء العرض والافتقار

---

(١) أنظر : Cicero, De Amic xxiv, 89

وربما يجدر بنا ملاحظة أن رجوع وليام الى كتابات شيشرون فى هذا الموضع وغيره من المواضع ، مما يدل على إلمامه بالأدب الكلاسيكى .

إلى البيان . وإن أسلوب المؤرخ يجب أن يكون على نفس المستوى العالى للأعمال التى يتصدى لها . هذا ويجب ألا تنزل لغة الكاتب وبحثه عن أهمية موضوعه . ولذلك فإن مما نخشاه كثيراً ، أن يضعف سوء المعالجة أهمية الموضوع ، وقد تبدو الأعمال الهامة ذات القيمة الجوهرية غير ذات شأن وتافهة بسبب الخطأ فى عرضها . وكما لاحظ الخطيب المرموق فى الحوار التسكولى الأول : «ان تدوين الأفكار الانسانية دون القدرة على تنسيقها وعرضها بشكل واضح ، واجتذاب القارىء بأية طريقة مشوقة ، لهو عمل رجل جاهل يسىء إلى الأدب ، ولا يحسن استغلال وقت فراغه».

ويبدو أننا وقعنا فى كتابنا هذا فى مخاطر وحيرة ذات جوانب متعددة لأننا أدرجنا فى هذه الدراسة التى نقوم بها الآن ، على ما يقتضيه تتبع الوقائع وتسلسلها ، كثيراً من التفاصيل عن صفات الملوك وسيرهم واتجاهاتهم الشخصية ، بغض النظر عما إذا كانت هذه الحقائق حيدة أو موضعاً للتجريح. ولقد يجد الحانقون لهؤلاء الملوك ، أثناء تصفحهم لهذا الكتاب ، صعوبة فى تقبل ما ورد به ، ويغضبون على المؤرخ فى موضع لايلام عليه وسوف يعتبرونه كاذباً أو غيوراً . ولقد حاولنا تجنب التهمتين كلتيهما تجنب الطاعون ما دام الرب موجوداً .

وفيما عدا ذلك ، فلا ريب اننا جازفنا بالقيام بعمل يفوق استعدادنا بمراحل . وكان مستوى أسلوبنا لا يتناسب بأى حال مع أهمية الموضوع . الا اننا قد أنجزنا فى ذلك شيئاً ما . ونحن فى ذلك كالرسامين المبتدئين الذين لم يقفوا على أسرار الفن بعد ، والذين لا يسمح لهم غالباً إلا بمجرد وضع الخطوط الأولى للصورة واستعمال الألوان الأولية . ثم تضيف بعد ذلك يد رسام أكثر خبرة ، لمسات الجمال الأخيرة ، عن طريق استعمال ألوان أكثر رقياً . وهكذا ، فقد سلكنا بدقة طريق الحق ولم نحد عنه مطلقاً . ولقد

(1) Cicero, Tusculan Disputation, I, iii, 6,

اقمنا بجهد غير قليل ، الأسس قد يشيد عليها رجل آخر أكثر منا علماً ، بناء أدق إتقاناً بفضل براعته فى عمله .

وحيال هذا العديد من التعقيدات والأخطار الخافية التى تحيط بهذه المهمة ، كان من الأسلم جداً لو التزمت الصمت . وكان الأحرى أن أمسك لسانى وأجبر قلمى على السكوت . ولكن دفعنى إلى ذلك حبى الجارف لوطنى . فإن المرء ذا النزعات الوطنية يضحى بحياته فى سبيل وطنه حين يدعو داعى الزمن إلى ذلك . وأكرر أن الوطن استحق على ذلك . وبفضل ماله من سلطان ، فقد قضى أن تلك الأمور التى حققها فى نحو قرن من الزمان ، يجب ألا تدفن بهدوء أو يسمح لها بأن تدخل فى طى نسيان لا يليق بها ، بل وعلى العكس ، فقد أمرنى — الوطن — بالمحافظة عليها عن طريق المثابرة فى استعمال قلمى ، وذلك من أجل نفع الخلف . وبناء على ذلك ، فقد امتثلنا لمشيئته ، ووضعنا أيدينا فى عمل لا يليق بنا أن نرفضه . ونحن لا نأبه كثيراً عما يكون عليه نقد الخلف لنا ، أو ما يصدرونه من حكم على أسلوبنا الضعيف فى الكتابة أثناء معالجة هذا الموضوع الجيد . ولقد لبينا النداء حقاً ، ونرجوا أن تكون ثمرة عملنا نافعة بقدر ما صاحبه من حماسة ، كما نرجوا أن تكون جديرة بالثناء بقدر ما كرس لها من جهد . فقد اجتذبنا حب أرض وطننا فأقبلنا على هذا العمل ، على ما فى قدرتنا من نقص ، وما يتطلبه العمل من جهد ، وبدون الاعتماد على مساعدة أى مؤرخ نابه .

وفضلا عن هذه الحوافز ، فلقد أمرنى بذلك الملك عمورى الأول ، ذو الذكرى الحميدة وصاحب السجل المرموق فى خدمة الرب ، رحم الله روحه المقدسة . وإن هذا الأمر ، مع الأسباب الهامة الأخرى ، دفعنى على وضع هذا الكتاب . كما اننا قد ألفنا كتاباً آخر فى التاريخ ، بناء على رغبة الملك الذى أمدنا بالوثائق العربية اللازمة (١) . وكان مصدرنا الرئيسى فى هذا المصنف كتاب بطريرك الاسكندرية المبجل سعيد بن البطريق . وكتابنا

(١) يشير وليام هنا الى تاريخ « اعمال الامراء الشرقيين » .

هذا ، يبدأ من عهد النبي الكذاب محمد ويمتد خلال خمسمائة وسبعين سنة حتى عامنا الحاضر وهو ١١٨٤ بعد ميلاد المسيح .

وعلى أية حال ، فلم يتوافر لدينا أى مصدر أغريقى أو عربى للاعتماد عليه فى مصنفنا الحالى (١) . وباستثناء بعض الوقائع التى عايناها بأنفسنا فقد إعتمدنا على الأحاديث المنقولة . وتبعنا الترتيب الزمنى للأحداث . ويبدأ كتابنا برحيل هؤلاء الرجال والقادة الشجعان المقربين للرب ، تلبية لندائه ، وخروجهم من ممالك الغرب ، وانتزاعهم بأيديهم القوية أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام . ويبدءا من هذه النقطة تتبعنا التاريخ بكل أمانة لمدة أكثر من أربعة وثمانين عاماً ، حتى عهد بولدوين الرابع ، الذى يحتل المكان السابع فى قائمة الملوك ، إذا ما أدخلنا فى الاعتبار اللورد جودفرى ، الذى بدأ الحكم هناك بلقب دوق . ولكى تيسر على من يريد أن يحصل على معلومات أكثر شمولا عن حالة البلاد الشرقية ، فقد بينا فى مطلع كتابنا فى إيجاز ، أوضاعها وهى تحت نير العبودية وما تحمله من آلام مبرحة . ووصفنا كذلك أحوال المؤمنين - المسيحيين — الذين أقاموا فى هذا الحين بين الكفرة فى هذه البلاد ، ثم ما حدث عقب ذلك . فبعد تلك المرحلة الطويلة من العبودية أيقظت هذه الأوضاع أمراء ممالك الغرب ليضطلعوا بمهمة الحج بغرض تحرير اخوتهم (٢) .

وإذا كان للقارىء أن يقدر ما ألقى على عاتقنا من أعباء ، لتبين له أننا ننوء بالمسئوليات العديدة . فأولا علينا مسئولية كبيرة ممثلة فى مهام كنيسة صور الشهيرة القائمة تحت رعاية الرب ، والتى وقع الاختيار علينا لرئاستها ، بنعمة الرب ، لا بفضل جدارتنا . وعلينا ثانياً عبء خدمة مولانا الملك الذى نشغل فى قصره المقدس منصب المستشار . وهناك كذلك مشاكل أخرى عاجلة تظهر من وقت إلى آخر وتتطلب منا الاهتمام . وإذا ما كانت هذه الحقائق

---

(١) يقصد المؤرخ وليام بهذا الصنف تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر .

(٢) هذه حالة من الحالات العديدة التى أشار فيها المؤرخون الغربيون المعاصرون الى الحملات الصليبية باسم الحج .

موضوع اعتبار ، فيجدر بالقارىء ، بل ويحق له ، أن يكون أكثر ميلا للتسامح معنا إذا ما وجد فى هذا الكتاب ما يؤاخذنا عليه . فإن المرء عندما يكون منشغلا بمسائل كثيرة متباينة ، يتعذر على ذهنه أن يواجه كلا منها ويمعن الفكر فيها بنفس القوة والاهتمام . ومن المحال أن يكرس المرء جهداً كبيراً لكل موضوع حين يكون الاهتمام مشتتاً على هذا النحو . هذا غير الحال التى يكون فيها النشاط الفكرى مخصصاً كلية لأمر واحد . وفى مثل هذه الظروف ، لا يكون كثيراً على المرء أن يكون حقيقاً بالصفح .

ولقد قسمنا المصنف إلى ثلاثة وعشرين كتاباً ، وكلا من هذه الكتب إلى عدد معين من الفصول حتى يسهل على القارىء الحصول على ما يبحث عنه فى أجزائه المختلفة . وفى عزمنا ، إذا قدر الرب لنا البقاء ، أن نضيف من وقت لآخر ، إلى ما كتب من قبل ، الأحداث المعاصرة التى قد تبرز أهميتها تطورات المستقبل . وسوف نزيد كذلك فى عدد الكتب بحكم ما قد يقتضيه حجم مادة الموضوع .

ونعتقد ، ونحن غير مخطئين فى اعتقادنا ، أن هذا الكتاب ، يشهد على عدم خبرتنا . فإننا عند تدوينه ، رغبة فى اطاعة ما تمليه العاطفة ، أظهرنا من النقائص ما كان من المحتمل أن يبقى خافياً ، لو أننا التزمنا الصمت . ومهما يكن من أمر ، فإننا نؤثر أن نبدوا مفتقرين إلى ما يطلب الاطراء بدل أن نقصر فى خدمة العلم . وأن كثيرين ممن يأتون إلى العرس ، دون أن يتحلوا بالصفة الأولى ، يعتبرون أهلا للجلوس إلى مائدة الملك . ولكن أولئك الذين يحضرون بين الضيوف دون أن تتوافر لهم الصفة الأخرى ، فإن عليهم أن يسمعوا الكلمات الآتية : «كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس» (١) ولعل الرب القادر وحده على أن يمنح ذلك برحمته الكريمة ، يحول دون وقوعنا فى هذا المصير .

---

(١) اقتبس وليام هذه العبارة من الانجيل فى موضوع امتثال قرائن الايمان الحقيقى . انظر ، متى ٢٢ ، ١٢

ومهما يكن من أمر ، فنحن ندرك جيداً أن الخطأ قرين دائم لملازمة الاطناب ، وأن لسان العبد المسكين الذى يكتبه فى الذنب . وعلى ذلك ، فإننا بروح المحبة الأخوية ، ندعو قارىء كتابنا ونستحثه باسم المسيح ، أنه إذا وجد نقطة جديرة بالنقد ، ألا يتردد فى نقدها ولكن برحمة حقيقية . فهو بتصحيح خطيئتنا سوف ينال لنفسه ثواب حياة خالدة (١) .

ولعل — القارىء — يذكرنا فى صلواته ، وبذلك يحقق لنا شفاعة عند المسيح ، حتى أننا كلما وقعنا فى خطأ فى هذا الكتاب لم يوردنا ذلك مورد الهلاك . ولعل مخلص العالم — المسيح — بفضل إحسانه الوفير ، ورحمته التى لا تغفل ، يغفر لنا بكرمه . فإننا كخادم بائس وغير ذى نفع فى بيته نشعر بالحاح ضميرنا فى لومنا ، ونحن محتقرون فى الخوف من حساب الرب .

---

(١) اعتراف وليام هنا بالجهل وتورطه فى الخطأ اثناء كتابته ، مايشهد بخصائصه كما لم ؟ وهذا أمر غير شائع لدى الكتاب الاوروبيين فى العصور الوسطى . بل ان المؤرخ جريجورى التورى قد استنزل اللعنة على كل من يغير او يسطرا واحدا فى تاريخه .

حول أهداف الجغرافية التاريخية واتجاهاتها الحديثة

للدكتور عبد الفتاح محمد وهيبة

قبل أن ينتهي العقد الخامس من هذا القرن أعلن ر . هارتشورن R. Hartshorne . فيلسوف الجغرافيا المعاصر — بعد شك وتردد - أن الجغرافية التاريخية قسم هام من أقسام الجغرافيا وأن جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع إلى جغرافية الماضي . وقد وضع هذا الاعتراف نهاية لشك المتشككين وكان تحية لما بذله الجغرافيون التاريخيون (خاصة في أوربا) من جهد وما قدموه من أعمال .

الحق أنه إذا كان اهتمام الجغرافيين ينصب على دراسة الأماكن — ما بها من تشابه وتباين وما يربط بين أجزائها من علائق — فانه لابد وأن يتساءلوا عن كيف أصبحت هذه الأماكن على ما هي عليه الآن ، وكيف كانت هيأتها في الماضي . ولسوف تكون الإجابة إذا ما أحسن تقديمها مدخلا إلى جغرافية الحاضر وعرضاً لجغرافية الماضي (أو الجغرافية التاريخية) . بيد أن أن لجغرافية الماضي هذه هدفاً ليس أقل قيمة وأهمية . ذلك هو تفسير مواقع الأشياء من سطح الأرض . لا جدال في أنه قد لا تتطلب طبيعة الظاهرة أو المعلم (توطن صناعة ، توزيع محاصيل ، اتجاهات خطوط النقل والتجارة) ونوع الموضوع أكثر من الرجوع إلى مجموعة الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحاضرة . ولكن كثيراً من المعالم الجغرافية تقتضي منا الرجوع إلى الماضي لنرى كيف نشأت وتطورت حتى أخذت شكلها وتوزيعها الحاليين . ومن أسف أن الجغرافية التاريخية لا تلقى من كثير من طلبة الجامعات والدراسات العليا تقديراً كبيراً . وربما كان مرجع ذلك إلى تلك التعميمات والاستنتاجات السطحية التي أعطت لعناصر البيئة الطبيعية وزناً عظيما لا تستحقه عند تفسير الظاهرات

الجغرافية المختلفة . ولا تعنى الجغرافيين التاريخيين أنفسهم من اللوم فقد أخفقوا على ما يبدو فى جعل ما هو موجود فى الكتابات التاريخية فى متناول الجغرافى الحديث .

الأهداف

مازال الجغرافيون على خلاف حول ماهية الجغرافية التاريخية وتختلف تفسيراتهم لها بقدر ما تتباين طبيعة بحوثهم وتبعاً لفهمهم لمعنى الجغرافية . ولكن يمكننا أن نجمل تعاريف هذا الفرع فى ستة أو سبعة ، ثلاثة منها قديمة سلفية لم يبق لها غير قيمتها التاريخية .

فهمت الجغرافية التاريخية يوماً على أنها مرادف لتاريخ الجغرافيا كعلم ولكن هذا المفهوم أصبح فى الوقت الحاضر غير مقبول على الرغم من دعوة سور C. Sauer (١٩٤١) إلى اعتبار البحث فى تاريخ الجغرافيا هدفاً من أهداف جغرافية الماضى . (١) ولا يقلل ذلك من قيمة تاريخ الجغرافيا فهو دعامة أساسية من دعائم الفكر الجغرافى . وليس هناك — كما يؤكد هـ . كلارك H. Clark تاريخ يهم الجغرافى التاريخى أو أى جغرافى آخر أكثر من تاريخ الجغرافية نفسها (٢) . ولقد حاول ج رايت . J. Wright فى مقالاته وكتبه التى نشرت فى الفترة بين ١٩٢٥ — ١٩٥٢ أن يجذب اهتمام الجغرافيين إلى تفهم تاريخ العلم والاستزادة منه . ولكن دعوته لم تجد قبولا كافياً (٣) .

وفى القرن التاسع عشر كانت الجغرافية التاريخية تعرف بأنها « العلم الذى يدرس تاريخ الكشوف الجغرافية والخرائط » (بيكر Baker ١٩٣٦ ،

---

(1) Sauer, C. "Fore word to Historical Geography" Ann. Assn. Amer. Geog. 31 (1941) p. 5.

(2) Clark, H. Historical Geography" American Geog. Ed. P. James & F. Jones. Syracuse, PP 70 — 105.

(3) Wright, J. "The History of Geography; A Point of view" Ann. Assn. Amer Geog. 15 (1925) pp. 192 — 201.

جلبرت Gilbert ۱۹۳۲) (1) فسميت دراسة جونستون K. Johnston لتطور المعرفة بسطح الأرض (۱۸۷۲) مثلا «دراسة أولية فى الجغرافية التاريخية A Sketch of Historical Geog. 1872 » . ولا يزال هذا المعنى قائماً فى الأدب الجغرافى على القارة الأوروبية حتى اليوم . وكان طبيعياً أن يكون ذلك هو هدف الجغرافية التاريخية ما بقيت الجغرافيا علماً يهتم فى الأساس الأول بوصف وتسمية المظاهر الجغرافية بالاضافة إلى اهتمامه بالمسح الكرتوجرافى والكشف الجغرافى . يشبه ذلك أيضاً مفهوم آخر يرى أن هدف الجغرافية التاريخية هو تتبع التغيرات فى الحدود السياسية وما يتصل بذلك من أسماء للمعارك والغزوات التى أدت إلى كسب إقليم أو فقدانه .

هذا المعنى كان فى الحقيقة انعكاساً لتطور فى علم التاريخ انصب على دراسة حقائق التاريخ السياسى والقومى . ويبدو هذا النوع من الجغرافية التاريخية واضحاً مثلا فى كتاب فريمان Historical Geog. of (E. Freeman) Europe, 1881 وفى كتاب ميرو A. Mirot (۱۹۲۹) تحت عنوان Geographie Historique de la France كذلك تمثل هذا المعنى فى كتابات المدرسة الألمانية ونخص بالذكر مؤلف كرتشمر K. Kretschmer عن وسط أوروبا (۱۹۰٤) . غير أنه من الانصاف أن نشير إلى أن مفهوم كل من فريمان وكرتشمر للجغرافية التاريخية كان أوسع وأعمق مما جاء فى مؤلفيهما السابقين ، فكرتشمر بالذات كان يرى أن من أهداف هذه الجغرافيا إعادة بناء الجغرافيات البشرية والإقليمية الماضية .

أما عن الأهداف الأخرى المتباينة لجغرافية الماضى فلا يمكن رفضها بسهولة كما رفضنا السابقة ويمكن إجمالها فيما يلى :

---

(1) Baker, J. ,,The Last Hundred Years of Historal Geography'' History, N.S. 129 (1936) pp. 193 -- 207.

Gilbert, E. ,,What is Historical Geography ?
Scott. Geog. Mag., 48, 1932, p p. 129-136

١ — دراسة المظهر الخارجي المتغير للبيئة .

The Changing Landscape.

٢ — اعادة بناء جغرافيات الماضي .

Reconstruction of Past Geographies.

٣ — دراسة التغير الجغرافي خلال الزمن .

Geographical Change Through Time.

٤ — توضيح أثر الجغرافية في التاريخ .

The Geographical Factor in History.

وقبل أن ندخل في مناقشة هذه الأهداف أو التعاريف ينبغي أن نضع في اعتبارنا ما يلي من ملاحظات :

(أولا) أنه يقلل من قيمة كل هذه التعاريف أو المفاهيم صعوبة إطلاق صيغة واحدة على عدة وجهات نظر (لكل وجاهتها) وحمل كل تعريف لبعض معنى الآخر . وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نصنف كثيراً من الدراسات في ضوء مفهوم واحد فانه لمن المفيد تحديد المفاهيم بالشكل السابق لأن ذلك يبعدنا عن خطر الوقوع في خلاف مصطنع نشأ بين وجهات نظر ليس لها أساس من الواقع .

(ثانياً) من الواضح أن كل مفهوم من المفاهيم السابقة هو في حد ذاته انعكاس لتعريفنا للجغرافيا بعامة . فكل تعريف يبدو وكأنه يرتبط بالجغرافية ككل ارتباطاً منطقياً لا يخلو من انسجام ولكنه في نفس الوقت نادراً ما يسير في خط واحد مع تطور المعرفة الانسانية بكل تشعباته وعذوبته . فالقيام بأبحاث لا تقع في صلب الجغرافيا ولكن على هوامشها قد تؤتي ثمارها ولكنها في الأغلب لن تكون جغرافية وانما هي تابعة للعلم أو العلوم التي استمدت هذه الأبحاث منها مادتها . لنقل أن اهتمام المؤرخين أو الجغرافيين بموضوع من الموضوعات قد يتوقف على محض الصدفة أو قد يرجع إلى نوع الفهم السائد لطبيعة كل من الجغرافية والتاريخ بل ربما يشترك الجغرافي مع المؤرخ في موضوع ما لأنه وليد الجغرافيا والتاريخ معاً .

١ - المظهر الخارجي المتغير (١) : The Changing "Landscape"

لا جدال فى أن فهم الجغرافيا على أنها دراسة للمظهر الخارجى للبيئة – وبالتالى اعتبار الجغرافية التاريخية دراسة للمظاهر الخارجية المتغيرة خلال الزمن – قد أسفر عن أعمال مثمرة وأفكار جديدة طيبة على الرغم من النقائص المنهجية. وليس هنا مجال التنقيب عن نشأة هذا المفهوم فى مباحث وفلسفات الـ Landschaft الألمانية أو الـ Paysage الفرنسية . ولا نحن بصدد عرض للمناقشات الحادة حول مسائل الملاحظة وما يعنيه اللجوء إلى مدخل سهل يقضى على الثنائية فى الجغرافية . فالجغرافية التاريخية كدراسة لتغير المظهر الخارجى للبيئة هى كما أوضحنا امتداد منطقى لهذا المفهوم عرف وطبق قبل سنة ١٩١٤ فى كتاب ج. برون J. Brunhes (٢) ثم تطور فى فترة مابين الحربين العالميتين ويظهر ذلك فى الجزء الأول من كتاب هانوتو C. Hanotaux «تاريخ الأمة المصرية» ١٩٣١ ، الذى يمثل مدخلا عاماً للجغرافيا التاريخية لمصر (٣) . وبمرور السنين كسب هذا المفهوم مؤيدين جدداً قاموا بتنقيحه وتوضيحه . ولقد أعطى دارب H. Darby لهذا المعنى عمقاً وأصالة ووضع له منهجاً واضحاً ويتمثل ذلك فى مباحثه المحلية الخاصة بأثر قطع الغابات وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضى البور وقيام المدن والصناعة فى تطور المظهر الخارجى (٤) .

---

(١) من أمثلة تلك الأبحاث مايجريه الجغرافيون والمؤرخون حول موضوعات مثل النظم الحقلية وتاريخ المظاهر الخارجية للريف .. الخ .

(٢) Brunhes, J. La Geographie Humaine, Paris 1910

(٣) Hanotaux; G. Histoire de la Nation Egyptienne, T. I Paris 1931.

(٤) يبدو من استعراض أبحاث دارب ومؤلفاته أنه لم يلتزم خلال حياته العلمية بمفهوم واحد ولا منهج معين فقد فهم الجغرافية التاريخية يوما على أنها إعادة بناء جغرافيات الماضى وفى نفس الوقت قام بأبحاث محلية تكشف عن اهتمامه بتصوير التطورات التى حدثت لبعض عناصر المظهر الخارجى – راجع له :

An Historical Geography of England before 1800, 1936
The Medieval Fenland, 1940.
The Changing English Landscape" Geog. J. 117 (1951).

ولعل أهم ما يتميز به هذا المذهب هو وضوح الحقائق الجغرافية مما يحسم الخلاف والخلط بينها وبين التاريخ الاقتصادى وهو أمر كان فى الماضى مثاراً للشكوى . ويتميز أيضاً بالضغط على أهمية معالم المظهر الخارجى بل هى عنده الحقائق الأساسية بالنسبة للجغرافيا . بيد أن ثمن هذا الوضوح واكتمال الوحدة الجغرافية فى المظهر الخارجى كان إلى حد ما على حساب الإنسان كمحور أساسى فى الدراسة الجغرافية . فقد انضع شأنه ليصبح مجرد عامل غير مرئى يؤدى وجوده إلى ظهور معالم جديدة فى المظهر الحضارى للبيئة. مثله فى ذلك مثل العوامل الطبيعية التى تؤدى إلى زحف التربة أوتكون الكثبان الرملية . دور الإنسان بالتأكيد أخطر من ذلك فهو ليس عاملا جيمور فولوجيا خلاقاً فقط بل هو فى حد ذاته عنصر هام من عناصر البيئة ان لم يكن أهمها جميعاً .

وإذا ما تركنا موقف هذا المذهب من الإنسان جانباً ، فاننا سنلحظ أن هناك نوعاً من التشابه فى الغرض والهدف بل فى الأسلوب بينه وبين الجيمر فولوجيا الأصولية (التطورية) Genetic Geomorphology فكلاهما يبحث فى تطور معالم البيئة وكلاهما يهدف كما يقول داربى (١٩٥٣) إلى وضع قواعد للجغرافيا – مجرد قواعد متينه ترتكز عليها فى النهاية معارف أفضل (١). هذا التشابه ربما يدعو الباحثين إلى إمعان النظر فى مشاكل التدليل والمنهج . فالجيمورفولوجيا الأصولية تسعى فى البدء لفهم معالم المظهر الخارجى Landscape عن طريق ترتيبها بالنسبة لأسلوب وتوقيت ظهورها ونمائها . فعليها رسم صورة دقيقة للأحوال الماضية التى ساعدت على ظهور أشكال السطح وذلك فى ضوء ما عرف الآن عن العمليات التى تساعد على ظهور هذا الأشكال .

أما نوع الرواسب وتركيب الصخور بالنسبة للجمورفولوجيا الأصولية مثلها فى ذلك مثل الوثائق بالنسبة للجغرافية التاريخية – فعناصر تلقى ضوءاً

---

(1) Darby, H. "On the Relations of Geography & History, Trans; Inst Brit Geog., Pub. No. 19, 1 — 13.

من الخارج على أشكال السطح . ومن الواضح أن الجغرافية التاريخية بمفهومها الذى ناقشه يمكن أن تحرز تقدماً وتعيد تصوير المظاهر الخارجية للبيئات الماضية من دراسة وتحليل طريقة ظهور المعلم واتخاذه مكانه من سطح الأرض وشكله الخارجي ثم تاريخه — أسلوب الجيومورفولوجيا التطورية عينة (١) . وليس من شك فى أن التركيز على دراسة هذه المعالم وتفسيرها قد أسهم فى اثراء الفكر الجغرافى وفتح مجالات جديدة للتطبيق المنهجى خاصة فيما يتصل بأشكال المدن وانماط السكن الريفى وأشكاله. بقيت نقطتان فى هذا الموضوع. الأولى : أنه أحياناً ما يبدو أن اهتماماً أكثر مما يتوقع يوجه إلى عناصر المظهر الخارجي تكون فى حد ذاتها أما قليلة الشأن أو أن أهميتها أهمية ثانوية بالنسبة للجغرافيا . فأشكال سطوح المساكن وأنواع المساكن هى على سبيل المثال قليلة الشأن فى ذاتها ومع ذلك يوجه اليها ضوء قوى . والعناصر الجمالية فى البيئة الريفية أو المدنية (تنسيق الحضرة تنظيم الشوارع بشكل اشعاعى «خطة الباروك» والأشكال المعمارية والزخرفية فى المدن) هى من ناحية ثانية ذات أهمية ثانوية بالنسبة لنا نحن الجغرافيين فضلا عن أن استقصاء أصولها قد ينتهى بنا إلى متاهات التاريخ الاجتماعى وتاريخ الفنون . والثانية هى أنه عند محاولة تصوير مرحلة من مراحل تطور المظهر الخارجي لا يكفى سرد الحقائق التاريخية والأثرية وترتيبها وفق مقياس زمنى . وإنما يجب أن نستلهم من الواقع المعاصر الشيء الكثير عما كانت عليه الأحوال فى ذلك الزمان وذلك بالتحليل والمقارنة . بهذه الطريقة — وهى صعبة مضنية — نستطيع أن نبنى جسراً قوياً بين الماضى والحاضر ولا نخشى الزلل .

٢ — إعادة بناء جغرافيات الماضى

The Reconstruction or Past Geographies.

لعل أكثر مفاهيم الجغرافيا التاريخية شيوعاً هو الذى يفيد بأنها العلم

---

(١) لم يكتف أتباع هذا المنهج بذلك بل استعاروا — وربما أرضاء لغرورهم — المصطلحات الجيومورفولوجية. فاستعاروا كلمات مثل التركيب structure والدورة stage والعملية process والمرحلة cycle .

الذى يسعى لاعادة بناء جغرافيات الماضى . ولا نقصد بجغرافيات الماضى الدراسات الإقليمية فقط بل كل فروع الجغرافية الحديثة من طبيعية وبشرية يتضح ذلك مثلا من قراءة كتاب :

"The Historical Geography of England before 1800"

الذى نشر سنة ١٩٣٦ تحت اشراف داربى (١) H. Darby وكتاب د . براون Mirror for Americans, 1943. الذى يرسم فيه صورة دقيقة لجغرافية الساحل الشرقى عام ١٨١١ لشاهد عيان وهمى عاش فى تلك السنة واعتمد على المصادر المعاصرة . ويمكن أن نضم إلى هذين العملين كتاباً ثالثاً سماه صاحبه Geohistory ذلك هو كتاب ف . براندل F. Brandel الذى يعالج جغرافية عالم البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن ١٦ . هذه بعض الأمثلة الرائدة لمؤلفات نهجت الجغرافية التاريخية هذا الفهم . والحق أن هذا التعريف قديم عرفته المدرسة الألمانية بشكل أو بآخر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر (ڤيمر ١٨٨٥ J. Wimmer) ثم تبناه ماكندر (١٨٦١ – ١٩٤٧) H. Makinder مؤسس المدرسة الجغرافية الحديثة فى بريطانيا . ومن كلماته المأثورة فى هذا الشأن « الجغرافية التاريخية هى دراسة الحاضر التاريخى Historical Present . على الجغرافى أن يحاول أن يضع نفسه فى الحاضر الذى كان . ليكن لدى ألف أو ألفى عام . عليه أن يحاول اعادة بناء ذلك الحاضر » . وقد تمسك جلبرت Gilbert بآراء أستاذه ماكندر فكتب يقول سنة ١٩٣٢ « ان مهمة الجغرافية التاريخية هى اعطاء صورة للجغرافية الاقليمية الماضية » (٢) . وفى الولايات المتحدة كان د . وتلزى (١٩٢٩) D. Whittlesey ور . هارتسهورن ١٩٥٩ R. Hartshorne من المقتنعين بسلامة هذا التعريف . وينصح وتلزى «بأنه من الضرورى أن تسبق أو تلحق دراسة فترات الطمأنينة والسلام فترات التغيرات الواسعة كما لا يجب أن نهتم بديناميكية التطور وإنما بوصف وشرح

---

(١) يرى داربى ان أبواب هذا الكتاب يمكن أن تكتب الآن بطريقة أفضل لو أتبعت الطريقة الموضوعية ولو تم الاستفادة من كل الوثائق والخرائط القديمة ونتائج العلوم القريبة .

(٢) Gilbert, E. op. cit., pp. 129 — 136

العلائق الجغرافية المتبادلة لفترة عديدة من فترات التاريخ ؛ (١) . أما ر . هارتسهن فورتمد كان متشككاً فى شبابه (١٩٣٩) فى قدرة الجغرافيا على تصوير ماضى من ظاهرات بل كان يشك فى قيمة جغرافية الماضى بالنسبة لجغرافية الحاضر. ولكنه راجع نفسه بعد ٢٠ عاماً (١٩٥٩) فأكد قدرة الجغرافى على تصوير جغرافية الماضي وأعطى لها وزناً بين بقية أقسام الجغرافيا (٢) .

ولكن لماذا لقى هذا التعريف شيوعاً وتأييداً من كثير من الجغرافيين ؟ يفسر ذلك بما اكتشفه الجغرافيون من قيمة عند اعادة بناء جغرافيات الماضى ، فبرسم قطاعات جغرافية متتالية لمنطقة ما خلال الزمن يخلق ما يمكن أن يسمى جغرافيا مقارنة يتضح فيها كيف استغل الإنسان عناصر ثابتة (نسبياً) كالموقع والتربة والمناخ وهو ما زال فى مستويات تكنيكية متفاوتة وفى ظل أوضاع اجتماعية وسكانية متغيرة. وهكذا تظهر العلاقة بين الإنسان والبيئة باجلى معانيها. قيمة أخرى ، هى أن إعادة بناء جغرافيات الماضى ضرورى إذا ما أريد فهم العلاقة بين الماضي والحاضر فهما تاماً . ذلك أن بعض عناصر المنظر الجغرافى التى تظهر كاستجابات لظروف مؤقتة تكون عادة إما ثابتة الشكل أو ذات آثار بعيدة فى التاريخ. وفهم الحاضر يتطلب منا دراية بجغرافية الفترة التى ظهرت فيها هذه العناصر ونمت . لعل الوضوح هو أهم خصائص هذا التعريف ولكن معرفة أسباب وضوحه وتميزه يتطلب منا وقفة قصيرة . الوضوح والتميز يتوقفان على اعتبارات تتصل بطبيعة التفسير وطريقة الشرح فى مجال كل من الجغرافيا والتاريخ . اعتبارات لم تكن كلها فى يوم من الأيام واضحة تماماً. بشيء من الاختصار هناك اتفاق عام على أن الجغرافيا تهتم فى الأساس الأول بالعلاقات المتبادلة بين الظاهرات التى تدرسها . قال بذلك أو ما يشبهه

---

(١) يلاق رأى وتتزى هذا اعتراف مؤداه أن البحث الجغرافى لايمنعه أن تكون العلاقات الثابتة أو فترات عدم التغير منطلقاً له على يجب أن نحيط الدراسة بالثابت والمتغير من الأسباب .

(٢) راجع Hartshorne, R. 1939, The Nature of Geography, Lancaster, pp. 115 — 84, Perspective on the Nature of Geography, Chicago. pp. 101 107.

الكتاب الألمان فى القرن التاسع عشر (فيمر ١٨٨٥) والكتاب الفرنسيون كدعانجون Demangeon وللانو Le Lannou وماكس سور Max. Sorre والبريطان (ماكندر Makinder) وأخيراً هارتسهورن Hartshorne فى الولايات المتحدة .

وإذا كان من خلاف بين كل هؤلاء فهو حول ما إذا كان على الجغرافيا أن تهتم بالدراسات الأصولية (التطورية) أو العمليات التى أدت إلى التغير . فقيمر وماكندر وهارتسهورن (١٩٣٩) يرون أن كثيراً من الدراسات الأصولية التطورية تدخل فى باب التاريخ ويجب أن تحذف من الجغرافيا ما أمكن ذلك . انطلاقاً من هذا المعنى فان الجغرافية التاريخية تظهر بوضوح كسلسلة من الصور الزمنية رسمت بطريقة تجعلها مختلفة تماماً عن صور أخرى تاريخية لنفس المكان فى نفس العصر . بيد أن فى هذا الرأى مغالاة حادث به عن المنطق . إذ كيف يكون من اختصاص الجغرافى أن يدرس فى الوقت الحاضر كيف تعمل صناعة ما أو كيف تنمى مدينة ثم لا يكون من اختصاصه أن ينظر فى كيف ظهرت هذه الصناعة أو تلك المدينة فى بقعة معينة من الأرض . اعتراض منطقى آخر . إن الاختلاف أو التعارض بين الدراسات التجريبية من ناحية والتطورية من ناحية ثانية هو اختلاف مظهرى أكثر منه حقيقى . فالدراسات التطورية تعنى فى الواقع بمعالجة أحد مركبين اثنين متباينين . فهى أما تحاول أن تصور ما كانت عليه العلاقات المتبادلة فى فترات من الزمن (١) أو تحاول أن تدرس تطور الأوضاع Situations باستمرار خلال الزمن . وهذا يستدعى إحاطة تامة بتتابع حلقات التاريخ مما يمكن بالتنبؤ بما سيكون عليه الوضع فى المستقبل لو استخدمنا الطريقة المنطقية Dialectical method .

---

(١) تدرس مثلا كيف توامت أنماط مواقع الصناعة مع الظاهرات الطبيعية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى فترة من فترات التاريخ .

الجغرافية الأصولية اذن تسعى لتوضيح بل وتحريك الصور الزمنية وذلك بتحديد التغيرات المتدخلة خلال الفترات التاريخية وضوابط هذه التغيرات اجتماعية كانت أم اقتصادية . كيف إذن نسمح بأن يهمل الجانب التطوري من الجغرافيا التاريخية وهذه قيمته وهذا هدفه . يبدو أن هذه النتيجة أصبحت موضع اعتبار جمهرة الجغارفة بما فيهم هارتسهورن نفسه (١٩٥٩) .

٣ — التغير الجغرافى خلال الزمن

Geographical Change Through Time

لا جدال فى أنه فى كثير من الحالات يقف الجغرافى التاريخى موقفاً ربما لا يختلف كثيراً عن موقف المؤرخ وذلك عندما يركز اهتمامه على دراسة التغيرات التى حدثت لعنصر أو لعقد من العناصر المتقاربة بهدف تقويم الدور الذى لعبه العنصر (أو مجموعة العناصر) على أساس أن موضوع الجغرافى هو المكان والمؤرخ المجتمع . ويلقى كلارك A. Clark (١٩٦٠) الضوء على هذه النقطة حين يدعو إلى الاهتمام بوصف العمليات التى أدت إلى تغير عناصر معينة فى البيئة خلال الزمن يعتقد Processes أنها هى التى أعطت لها ملامحها المميزة .

الحق أن الحديث عن تعريف الجغرافية التاريخية بأنها دراسة للتغير الجغرافى خلال الزمن حديث طويل يمكن أن يرجع اليه القارىء فى بحث لكلارك نشرته جمعية الجغرافين الأمريكيين ضمن مجموعة أبحاث تحت اسم : American Ceography - Inventory & Prospect, 1954 (١). ولكن مهمنا أن نشير إلى أن ما دعى اليه كلارك هو ما سبق أن سار عليه بعض الجغرافيين التاريخيين فى دراساتهم الخاصة بالسكن وتغير مواقع الصناعات ونمو المدن إلى غير ذلك من الموضوعات . ومهما يكن من أمر هذا التعريف فانه يميزه قلة العثرات المنهجية ومرونته وعدم صرامته . ولكن يعيبه أنه يقدم

(1) Clark, A, „Historical Geography" chap; 3 -- American Geography – (Ed) James, p. & c. Jones, Syracuse, 1954.

حلولا جزئية ويوسع مجال المواءمة دون طائل . فليس يكفى أن نضغط على دراسة التغير ذاته إذ على الرغم مما تكشف عنه دراسة الظروف المتغيرة من وضوح فى الرؤية بالنسبة لقيمة ووظيفة الموقع أو مصدر الثروة (١) فانه يجب أن يسبق الحديث عن هذه التغيرات عرض للظروف المؤثرة (٢) وإبراز كيف أن الأشياء التى تهم الجغرافيين فى الأمكنة والأزمنة مترابطة .

٤ ــ أثر الجغرافيا فى التاريخ

The Geographical Factor in History

فى السبعينات من القرن التاسع عشر كتب ڤيمر Wimmer يقول أن أهم أغراض الجغرافيا التاريخية غرضان :

١ ــ أثر العامل الجغرافى فى توجيه التاريخ .

٢ ــ جغرافية الفترات التاريخية السابقة .

والغرض الأول هو الذى نحن بصدد دراسته وتحليله الآن . أغلب الكتابات التى تعالج أثر الجغرافيا فى التاريخ ، وهى كثيرة تستخدم صفة «جغرافى» استخداماً غامضاً غير ملم يجعل الدراسة لا تختلف كثيراً عن تلك التى ترمى إلى إعادة بناء جغرافية الماضى كمقدمة لفهم أحداث التاريخ . ومن الذين نجحوا فى توضيح أثر الجغرافيا فى التاريخ وتلزى D. Whittlesey فى 'Sequent Occupance, 1929' وكذلك إيست 'Historical G. East Geography of Europe.' 1935 فقد فهما أثر الجغرافيا فى التاريخ حق الفهم وأعطياه حقه من الأهمية . ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فكثيراً ما يفسر العامل الجغرافى على أنه عامل طبيعى . هنا تتحول دراسة أثر الجغرافيا فى التاريخ إلى دراسة حتمية مقنعة تتبع السبب بالنتيجة وتعنى بتوضيح أثر

---

(١) مثال ذلك الاستخدامات المتتابعة لوسائل النقل البحرية والنهرية والبرية فى تاريخ الولايات المتحدة الامريكية .

(٢) كان يسبق دراسة تتبع وسائل النقل المختلفة فى الولايات المتحدة عرض لتجارة أمريكا الشمالية فى القرن السابع عشر .

العامل الجغرافى فى نشاط الإنسان فى الماضى وأثره فى التاريخ وفى تتابع الأحداث التاريخية .

ولقد سار لفيف من الجغرافيين والمؤرخين على هذا النهج ولكن من ناحيتين مختلفتين . ففى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان لنمو الدراسات المتصلة بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى أبلغ الأثر فى دفع المؤرخين إلى الاهتمام بالحياة اليومية للمجتمعات الغابرة . ومن ثم كان انشغالهم بتلك الأنشطة والمعالم التى يهتم بها الجغرافيون كالزراعة والصناعة والتجارة والسكن وطرق المواصلات . بل إن اهتمامهم اتسع ليتنظم بعض حقائق الجغرافيا الطبيعية التى ترتبط ببعض الرباط بتلك الأنشطة والمعالم . ومن الأمثلة على ذلك ما جاء فى كتاب سمث C. Smith 'Historical Geog. of the Holy Land, 1894' فقد حاول المؤلف ن يكشف عما تقدمه الجغرافيا من تفسيرات لبعض ما جاء فى التوراة بل وأثر البيئة على الفكر الدينى . كذلك أوضح جورج H. B. George فى بحثه فى العلاقات بين التاريخ والجغرافيا (١٩٠١) Relations between History and Geography أن الجغرافيا تقدم معلومات قيمة لحل المشاكل التاريخية . ومن الواضح انه طالما ظلت الجغرافيا تفهم على أنها أساساً علم العلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة فإن لفيفاً من الجغرافيين كان فى استطاعته أن يكتشف بسهولة استجابات من الإنسان للبيئة الطبيعية فى سجلات التاريخ بل وفى كتابات الحاضر . وكان ذلك بمثابة خطوة نحو وضع ما زعم أنه قوانين جغرافية . ينطبق ذلك على الخصوص على كتابات مس سمبل (١) E. Semple . فالحتمية الجغرافية فيها صارمة والمقتطفات التاريخية بها كثيرة . ومن ناحية أخرى فان دعاة الإمكانية اعتمدوا على التاريخ كمصدر يمكن الرجوع اليه لجمع المعلومات اللازمة وذلك بالنظر فى طرائق استخدام المجتمعات البشرية لبيئاتها عبر الزمن واحتمالات استثمار هذه البيئات .

---

(١) Semple, E. American History and its Geographic conditions Boston, 1933
The Geog. of the Mediterranean Region : its Relation to ancient history 1931

(٢) عبد الفتاح وهيبه – الجغرافيا البشرية – تطورها ومنهجها بيروت ١٩٦٦ ص ١٩

ولم يكن ذلك غير مقدمة للدراسة نفس المكان فى فترات مختلفة من التاريخ وقد انصب الاهتمام فى هذه الدراسة على مدى استخدام الموقع والثروات تحت ظروف اجتماعية واقتصادية وتكنيه متباينة أشد التباين . شبيه بذلك تلك المباحث القيمة التى قام بها لفيف من جغرافيي المدرسة الاقليمية الفرنسية . ولكن ما أن تبلغ دراسة أثر الجغرافيا فى التاريخ هذا المستوى من التفسير والشرح (خاصة بالنسبة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) حتى يتلاشى الفرق بينها وبين تلك التى تنظر إلى الجغرافية التاريخية على أنها «إعادة بناء جغرافيات الماضى» .

ومهما يكن من أمر فقد تعرض مفهوم الجغرافية التاريخية بالمعنى السابق لاعتراضين ساقهما ر . هارتسهورن عام ١٩٣٩ . الأول وهو منطقى ، أن شرح أثر العامل الجغرافى فى توجيه التاريخ هو عمل المؤرخ قبل الجغرافى ذلك لأن المؤرخ ربما يكون أكثر استعداداً وأفضل تأهيلا لتحديد قيمة العامل الجغرافى بالنسبة لبقية العوامل (١) . الاعتراض الثانى وهو مسلم إلى حد كبير ، إن جغرافية الماضى بهذا المعنى تسعى لتفسير التاريخ وليس الجغرافيا . وأخيراً ربما نتفق أيضاً مع سور C. Sauer (١٩٤١) على أن هذا النوع من الجغرافيا التاريخية لن يكون أكثر من دمغ عمل المؤرخ بطابع جغرافى حتمى هو فى غنى عنه (٢) .

والآن ما هى النتائج التى يمكن أن نستخلصها من تحليلنا السابق لمختلف مفاهيم الجغرافية التاريخية ؟ . لعل أهم هذه النتائج هو أنه لا يوجد فى الأفق وربما لن يوجد حل «مذهبى» لمشاكل الجغرافيين التاريخيين . كما أنه لا توجد صيغة تحسم بين ما ينتمى إلى الجغرافيا وما ينتمى إلى التاريخ . لتكن المشاكل غير هينة والحدود بين التاريخ والجغرافيا مانعة ولكن الذى له وزن وأهمية هو مدى إسهام الجغرافيين أنفسهم فى إثراء المعرفة الإنسانية شريطة أن يكون

---

(١) هذا الرأى هو وليد اقتناع هارتسهورن بأن غرض الجغرافى هو دراسة العلاقات المعقدة المركبة وليس بذل الجهد فى البحث عن الأسباب . راجع

(٢) Sauer. C. ,,Foreword to Historical Geography, Ann. Assn. Amer — Geog., 31; 1941, pp. 1 — 20

اهتمامهم منصباً على الأماكن وما كانت عليه وليس على الناس وما كان بينهم من علاقات . ثانياً – كل تعريف من التعاريف السابقة ساد فى فترة ما وكان فى الحقيقة انعكاساً لنظرة الأغلبية فيما تختص بطبيعة الجغرافية بل وماهية الشرح والتعليل . ثالثاً – كل تعريف أسهم فى تطور الجغرافية أو التاريخ أو هما معاً .

هذه مرحلة . مرحلة أخرى فى حياة الجغرافية التاريخية بدأت مؤخراً بظهور اتجاه إلى عدم التقيد بمفاهيم محددة فيما يتصل بطبيعتها ومحتواها أملا فى فتح الطريق أمام دراسات غير متزمتة ولا ملتزمة بمنهج معين فى التنظيم والعرض (١) . وإن دل هذا الاتجاه على شيء فعلى مبلغ ما تحسه الجغرافية التاريخية من رغبة فى التخلص من مناهج صارت بائدة . ويقترح داربى (١٩٦٢) صاحب مذهب اللاملتزمية طريقتين لمعالجة مختلف الموضوعات لكل مميزاتها واستخداماتها – الأولى وهى الطريقة الرأسية The Verical Treatment (أو الموضوعية Topical) وتعنى بتتبع مدى التغير الذى لحق العناصر الجغرافية (سكن ، زراعة ، طرق .. الخ) على مر الزمن . هذه الطريقة وإن كانت لا تظهر وحدة البيئة بجلاء الا أنها تعرض عناصرها وكذلك النشاط البشرى بغير تكرار وبكثير من العمق (٢) . أما الطريقة الأخرى للمعالجة فهى الطريقة الأفقية The Horizontal Treatment وهذه تقسم الزمن إلى عصور وتعالج جغرافية كل فترة على حدة (٣) . هذه الطريقة وإن كانت تحاول أن تصور الجغرافية كوحدة إلا أنها تعجز عن تفسير كل عناصر البيئة كما أنها لا تسلم من التكرار . ومهما يكن من شيء فإن طبيعة الموضوع هى فى رأى داربى التى تحدد أى الطريقتين أفضل وأمثل (٢) .

(١) Darby, H. „The Problem of Geographical Description" trans. Inst; Brit. Geog. Pub, Nk. 30, 1 — 13

(٢) راجع المقدمة فى كتابى دراسات فى جغرافية مصر التاريخية الاسكندرية ١٩٦٢ .

(٣) Darby, H. (1953) op., cit., p. 11

الاتجاهات الحديثة

إن من ينظر فى أدبيات الجغرافية التاريخية خلال العقود الأخيرة سيجد فيها كل تلك الأفكار السابقة ماثلة . فالكشف عن العلاقة بين الانسان والبيئة كان منذ القرن التاسع عشر ولازال مطلباً أثيراً لدى الجغرافيين وشجع بالتأكيد على الاهتمام بدراسة الشعوب البدائية ومواطنها حيث يظهر مدى التكيف مع الطبيعة أوضح منه بين مجتمعات غرب أوربا الصناعية . كذلك كان البحث فى جغرافية «ما قبل التاريخ» مجالا لاظهار أثر الموقع والتضاريس والتربة والتصريف النهرى وموارد المياه على أعمال الإنسان . لكن حدث فى السنين الأخيرة تحول عن جغرافية ما قبل التاريخ التى عرفها رعيل من الجغرافيين البريطان مثل فلير Fleure وداريل فورد Daryll Ford وولدرج Wooldridge ربما لأن مؤرخى ما قبل التاريخ تعلموا دروساً فى الجغرافية الحديثة .

وكما سبق أن أشرنا ظل مفهوم الجغرافية التاريخية كدراسة لجغرافية الماضى هو الشائع لمدة طويلة وسوف يظل كذلك لمدة أطول. ذلك لأن نتائج الجغرافية التاريخية وفق هذا المعنى تسد فجوة بين معطيات كل من التاريخ المحلى المحدود والتاريخ الاقتصادى العام . فضلا عن أن الدراسة ذاتها تركز على الاختلافات الاقليمية وتهتم عادة بتوضيح قيمة التباين الأرضى الذى يغفله التاريخ الاقتصادى . وفى إطار هذا المفهوم ظهرت دراسات قيمة نذكر منها ما سبق أن أشرنا اليه وهو الكتاب الذى يعالج جغرافية انجلترا قبل ١٨٠٠ م وقام بالاشراف على اعداده داربى فى شبابه . وبالرغم من الجهود التى بذلها الجغرافيون التاريخيون البريطان لرسم صور زمنية دقيقة لجزيرتهم معتمدين على ما حفظه التاريخ من سجلات احصائية وخرائط وكتابات خلفها الرحالة وأوصاف طبوغرافية تركها العلماء وموظفو الدولة ، فلا زال هناك متسع لكثير من الدراسات المفيدة خاصة فيما يتصل بالسكان واستثمار الأرض . ولاشك أن هذه المباحث ستؤتى ثمارها لو أفادت من السجلات الاحصائية (بعد تحقيقها) أكمل فائدة . فمن

الإحصائيات والأرقام القديمة تستمد الخرائط وما تكشف عنه من توزيعات وظاهرات قيمتها وعلى هدى هذه الخرائط يمكن البحث في وضع تقسيم إقليمي يحل محل التقسيم الاداري الحالي يتفق مع الأوضاع القديمة ويكون إطاراً لتوقيع مختلف التوزيعات الماضية .

أما الدراسات التي تهتم بالبحث في تطور ملامح المظهر الخارجي وتلك التي تعالج التغير الجغرافي خلال الزمن فقد فتحت الباب أمام دراسات «موضوعية» تتعلق بتطور الزراعة والسكن والتجارة والصناعة . ويرجع الفضل في تقدم الأبحاث التي تعالج التغيرات في عناصر البيئة خلال الزمن إلى الرغبة في تتبع أصول الأشياء بعمق وفهم جديدين وإلى الاعتماد على أدلة أخرى غير الوثائق مثل حبوب اللقاح وبقايا النباتات والإرسابات الحديثة . ومن بين الدراسات التي استفادت من الأدلة العلمية ما أجرى في الأرض الواطئة حول تاريخ استصلاح الأرض بل وتطور استثمارها وما أجرى في ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا حول قطع الغابات وتجفيف المستنقعات . فقد اقتضى البحث الاعتماد على الإرسابات الحديثة ودراسة حبوب اللقاح وبقايا النباتات . وباستثناء بعض الأبحاث (خاصة المناخية) فان إبراز دور الإنسان في تغيير سطح الأرض (عن طريق تجفيف المستنقعات وري الأرض وقطع الغابات والزراعة) كان هدفاً أساسياً بل محورا لكثير من المقالات والأبحاث نذكر منها كمثال مجموعة الأبحاث تحت عنوان :

Man's Role in Changing the Face of the Earth-Ed-Thomas, 1955.

ولقد خطت جغرافية السكن الريفي والنظم الزراعية والحقلية خطوة واسعة بفضل الاهتمام الذي ركز على فهم وتحليل عناصر المظهر الخارجي.ونذكر أن ظهور الأعمال الرائدة في موضوعات السكن والنظم الحقلية في غرب أوربا كان في الفترة بين أواخر القرن ١٩ وأواخر العشرينات من القرن الحالي . وبعد فترة من العقم كتب لها أن تنهض وتؤتي ثماراً من جديد وذلك منذ بداية الحرب العالمية الثانية . ففي فرنسا والأراضي الواطئة وألمانيا والسويد وانجلترا أحرز تقدم كبير ليس فقط في سبيل فهم أفضل للبيئات الريفية المعاصرة

ومشاكلها وإنما نحو معرفة أعمق بالظروف التاريخية التي نمت في ظلها النظم الحقلية والأنماط السكنية . بل إنه يمكن القول أن هذه الموضوعات هي اليوم من أكثر الموضوعات الجغرافية نمواً وتقدماً يعتمد على نتائجها مؤرخو التاريخ الزراعي الأوربي (١) . وتنطبق هذه الملاحظات إلى حد كبير على الدراسات المدنية . فقد شهد الجزء الأخير من القرن التاسع عشر موجة من الاهتمام بدراسة موضوعات مثل أصول المدن وماهية مؤسساتها . وكما فتر الاهتمام بالدراسات السكنية الريفية قبل ١٩٣٩ فقد حدث مثل ذلك بالنسبة للدراسات المدنية ثم أعقب فترة الفتور هذه مرحلة من النشاط المتزايد وشارك الجغرافيين فيها من وجهات نظر متباينة – المؤرخون والأثريون والمهندسون والمعماريون ومخططو المدن . ويمكن القول أن كثيراً من الصفات التي رغبت وشجعت الجغرافيين على دراسة السكن الريفي هي التي أغرت بعض المؤرخين على دراسة تاريخ المدن خاصة فيما يتصل بالنمو والوظائف الاقتصادية وتغير وظائف الأحياء .

ماذا عن مستقبل الجغرافية التاريخية ؟

لعل تطبيق الطرق الإحصائية كان من أهم أسباب التقدم الحديث في أسلوب البحث الجغرافي والتاريخ (خاصة الاقتصادي) . فعن طريق تحليل الأرقام الخاصة بتوزيع الثروات والسكان ومناحي التقدم والرقي اكتسبت الجغرافيا قدراً كبيراً من العمق والواقعية ومن ثم فان استخدام الاحصاءات على مجال أوسع في موضوعات الجغرافية التاريخية سيفيد في وضع قاعدة سليمة للمقارنة بين التوزيعات المختلفة في البيئة – أية بيئة – خلال التاريخ وفي التحقق من صدق المعلومات التي تحت أيدينا . وبتقدم الدراسات الخاصة بتحليل حبوب اللقاح وتركيب المواد العضوية وتاريخها (باستخدام الكربون ذي الوزن الذري ١٤) سوف تخطو الدراسات التاريخية المتصلة بالحياة النباتية والارسابات المختلفة مثل قطع الغابات وانجراف التربة خطوات واسعة كان لا يمكن أن تتم إذا اقتصرت

---

(١) تقوم على نشر صفحات من هذا التاريخ اليوم مجلات حديثة نسبيا مثل .

AgriculturalHistory Rev. — Etudes rurales

الشواهد كما كان العهد حتى وقت قريب – على وثائق غير كاملة وما تكشف عنه أسماء الأماكن . وفى دراسة السكن الريفي تظهر الحاجة أيضاً إلى مزيد من التعاون المنظم لكمال الاستفادة من الأدلة التى تستقى من أكثر من علم. ويبدو أن جغرافية المدن أحرزت فى السنوات الأخيرة تقدماً أكبر مما أحرزته جغرافية السكن الريفى ليس هنا مجال استقصائه . ولكن ما من شك فى أن طريقة معالجة موضوع الموقع وتحليل توقيع المدن على الأرض ربما أوحت للجغرافى التاريخى بأفكار تنفع فى دراسة جغرافيات الماضى .

ومن الواضح أن هذه الاتجاهات الجديدة سوف تخرج بالجغرافية التاريخية عن مفاهيمها التى تعرضنا لقضاياها العامة فى الصفحات السابقة . والأمل كبير فى أن تنفتح آفاق واسعة أمام الدراسات الموضوعية (الرأسية) خاصة فيما يتعلق بفهم واستيعاب العمليات التى يتم عن طريقها التغير الجغرافى خلال الزمن . وسيكون التطور السريع فى استخدام طرق الاحصاء فى جغرافية المدن (وعلى الخصوص فيما يتعلق بنظرية الموقع المركزى ومجال نشاط المدينة وتوزيع الظاهرات المدنية المختلفة) بمثابة دافع قوى لمزيد من التطور فى الجغرافية الجغرافية التاريخية للمدن والأمل كبير فى أن يسهم الجغرافى التاريخى فى درس مشاكل التخلف وأسباب التقدم والتنبؤ بما سيكون عليه الغد . وإذا ما تحقق ذلك فسيكون عند الجغرافى التاريخى ما يقدمه لحسن فهم التاريخ وعنده ما يعتز به لحسن فهم جغرافية الحاضر . ثم هو بعد ذلك كله لن يكون فى عرف داربى قد أحرز نجاحاً يذكر لأن النجاح فى كتابة الجغرافية التاريخية غير وارد "There is no such thing as success" وانما الوارد والمأمول هو درجات من عدم النجاح "degrees of unsuccess" .

وفى الختام قد نسأل ما هو مركز الجغرافية التاريخية بين مواد أقسام الجغرافيا فى الجمهورية العربية المتحدة ؟ كانت الجغرافية التاريخية أو بمعنى أدق «جغرافية ما قبل التاريخ» من الموضوعات الأساسية فى برامج هذه

(١) Darby, H. ,,An Historical Geography of England; Twenty Years After''. R. Geog. J. vol. CXXVI, Part 2 June 1960 pp. 147 — 159.

المراجع

Baker, J., "The Last Hundred Years of Historical Geography" History, New series, 1936, 21, 193 — 207.

Bowen, E, Wales, A Study in Geography and History, Cardiff, 1941.

Brown, R, Mirror fo Americans : Likeness of the Eastern seaboard, 1810, N. 1943.

——————' Historical Georaphy of the United states, N. Y; 1948.

Clark, A. H. Historical Geography, American Geography, Ed, P. James & F. Jones, syracuse, 1954, pp 70 — 105

Cornish, V. The Great capitals, An historical Geog., London 1923

Darby, H. C. (ed) An Historical Geog. of England before A.D. 1800 Cambridge, 1936.

——————' The Medieval Fenland, Cambidge, 1940.

——————' The Draining of the Fens, Cambridge, 1940

——————, The Changing English Landscape", Geog. J, (1951) 117, (1951), pp 377 — 398.

——————, On the Relations of Geog. and History" Trans. Inst. Brit, Geo pub. No. 19 (1953) 1 - 13.

——————, Historical Geog. twenty years after, Geog. J., 126 — (1960) pp 147 — 159.

——————, The Problem of Geographical Description, Trans; Inst. Brit, Geog. pub — No. 30 (1962), PP 1 — 13.

Dickinson, R. & Howarth, O. The Making of Geography, Oxford, 1933.

East, W. Historical Geography of Europe, london, 1950

Forde, C. D. Habitat, Economy and Society, London 1952

Freeman, E. Historical Geography of Europe, N.Y, 1881.

Freeman, R. W. a. Hundred Years of Geography, London, 1961

Gilbert, E, What is Historical Geography. scott. Geog. Mag. 48, 1932.

Hamdan, G Evolution of Irrigation Agriculture in Egypt" Hist. of Land use in Arid Regions. Unesco, 1951.

Hanotaux, G. Historie de la Nation Egyptienne, T.I, Paris 1931.

Hartshorne, R. The Nature of Geography, Lancaster, Pa., 1939
Perspective on the Nature of Geography, Chicago, 1959.

Houston, J. A Social Geography of Europe, London; 1953.

Huzayyin, S. A. The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.

————————, Arabia and the Far East, Cairo, 1942.

Le Lannou, M. La Geographie Humaine, Paris; 1941.

Makinder, H. Britain and the British Seas, N.Y. 1902.

Mirot, A. Manuel dela Geographie Historique de la France, 2 vols; Paris, 1929.

Mitchell, J. Historical Geography, London, 1954.

Peake, H., and Fleure, H. The Corridrs of time, 9 vols London, 1927 — 1936.

Sauer, C., ,,Foreword to Historical Geography; Ann; Assn. Amer. Geog, 31 — 1941) pp I — 20.

————————, Agricultural Origins and Dispersals, Bowman Mem. Lects, ser; 2, Amer. Geog. Soc. N.Y. 1952.

Semple, E. M, The Geography of the Mediterranean Region. N.Y. 1931.

Smith, C. T. Historical Geography, Frontiers in Geographical Teaching, ed., R. chorley and Haggett, London; 1965, pp. 118 — 143.

Smith, G. A. The Historical Geography of the Holy Land N. Y, 1894.

Wehda, A. F. The Agriculture of Egypt during the Arab Period., London, 1952, (Unpublished M. A. Thesis).

————————, An Outline of the Economic Geography of Egypt during the Middle Ages,,Bull. soc. Geog. de l'Egypte, T. xxx III, 1960.

————————, Rice Culture in Egypt"A study in Historical Geography" Bull. soc. Geog. de l'Egypte, 1967 (under publication).

Whittlesey, D. "Sequent Occupance", Ann,. Assn. Amer. Geog, 19 (1929) pp. 162—5.

Wooldridge, S. and East, W. the Spirit and Purpose of Geography, London, 1951, pp. 80 — 102.

Wright, J. The History of Geography; A point of view, Ann. Assn. Amer. Geog. 15, (1925) pp. 192 — 201.

بين الفنون والبيئة فى كل من العراق ومصر

فى عصورها القديمة

للدكتور محمد أبو المحاسن عصفور

لا جدال فى أن العالم المتحضر يدين بالكثير من أسس حضاراته إلى ما توصل اليه الانسان من مظاهر حضارية فى كل من العراق ومصر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الجماعات البشرية التى سكنت هذين القطرين وجدت فى مياه أنهارهما ما يمكنها من الاعتماد عليها فى صميم حياتها ويكفل لها الاستقرار ورغد العيش فتهيأت لها سبل النهوض والرقى ، كما أن وقوع هذين القطرين فى مركز متوسط من العالم القديم وسهولة الاتصال بهما جعلا من اليسير انتقال مظاهر الحضارة منهما واليهما عبر الأقطار المجاورة — ونظراً لبلوغهما درجة رفيعة من الرقى فقد اندفعت مؤثراتهما الحضارية إلى غيرهما من الأقطار ومع أن كلا من القطرين توصلا إلى مظاهر حضارية متشابهة وفى أزمنة متقاربة فإن حضارة كل منهما انفردت بخصائص معينة فرضتها ظروف بيئتها الخاصة .

والفنون وإن اختلف الباحثون فى تعريفها لا تخرج عن كونها «كل انتاج يرضى الذوق السليم ويشعر بالجمال» فهى إذا من أسس الحضارة ومن نتائجها فى نفس الوقت وتخضع لمؤثرات البيئة — لأن انتاج الانسان أيا كان نوعه يتوقف على تفاعله مع بيئته . ولذا تنوعت الفنون وتشعب مجالها فى كل قطر وفى كل عصر بحيث لا يتسنى لفرد أن يلم بها فى اقليم من الأقاليم وفى أى عصر من عصوره التاريخية . وعلى هذا فإن من المستحيل أن نتناولها جميعاً — فى العراق ومصر — بالبحث وسنكتفى فى هذا المجال بالحديث عن بعض فنونها الشكلية :

اولا : فى العراق

بيئة العراق من حيث الموقع هى فى طريق الهجرات البشرية وخاصةمن بيئتى الطرد الكبيرتين المجاورتين لها وأعنى بهما شبه جزيرة العرب وايران أما من حيث السطح فإنها تنقسم إلى قسمين : شمالى تغلب عليه الطبيعة الجبلية وجنوبى هو عبارة عن سهل منبسط تقطعه المجارى والمسطحات المائية .مما أدى إلى انفصال اجزائه فعاش سكانه فى جماعات بشرية متفرقة تجاهد كل منها فى المحافظة على كيانها أو فى فرض سيادتها على الجيران حسب الظروف فنشأت عن هذا الكفاح الدائم دويلات صغيرة أو حكومات مدن . ولم تتحد هذه الجماعات أو تتطور إلى دول كبيرة الا لفترات محدودة من تاريخها الطويل.

وكان لهذا أثره بالطبع فى حضارة وفنون العراق إذ كانت مواطن نموها مختلفة ولم تتطور على مسرح واحد بل تعددت مسارح تطورها . ولذا يميز الباحثون فى تاريخ العراق وحضاراته بين مراحل أو أصول ثلاثة رئيسية هى : السومرية والبابلية والأشورية نسبة إلى العواصم التى تركزت حولها والمناطق التى كانت محور النشاط فيها — وتعكس فنون العراق خلال هذه المراحل صورة واضحة عن البيئة وظروفها وما كان يسوده من حياة سياسية واجتماعية ووسيلتنا إلى التعرف إلى هذه الفنون تنحصر فى دراسة المخلفات الأثرية التى تدل عليها .

(أ) العمارة الدينية :

تعد المعابد أهم المبانى التى عثر على آثارها منذ أقدم العصور وهى فى طرزها تعبر بجلاء عما ساد العراق من ظروف أثناء وجودها : فالمعبد كمقر للاله هو أقدس مكان للجماعة لا تألوا جهداً فى تأمينه والدفاع عنه . وهو رمز العقيدة والاله بل وكيان الدولة أيضاً — فى أواسط العصر السابق للسلالات (فى فترة حضارة العبيد التى ترجع إلى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق. م) كانت جدرانه ذات نجوات من الخارج على أبعاد منتظمة (شكل رقم ١) ولم يكن ذلك — فيما أرى — لمجرد الزينة بل لأن هذا النوع من الجدران فى عصور لم تكن الأسلحة البعيدة المدى معروفة يفضل الجدارن المستقيمة الخالية من

الفجوات فى حالة الدفاع ، أى أن هذا الطراز المعمارى ذو أثر فعال فى الدفاع لأنه يتيح للمدافعين فرصة الاحتماء فى تلك الفجوات ومباغتة العدو المهاجم ولو أنه كان لمجرد الزينة فحسب لاتبعت فى ذلك وسائل أخرى كتزيين الجدران بتثبيت مخاريط من الفخار أو الأحجار الملونة فيها (شكل رقم ٢) كما اتبع فى فترة حضارة الوركاء (حوالى ٣٥٠٠ م) التى بدأت طرازا جديداً للمعابد حيث بنى المعبد على مصاطب مكونة من عدة طبقات متدرجة فى الحجم صغرا إلى أعلى (شكل رقم ٣) وهذا هو الأصل الذى تطور إلى الزاقورة أو البرج المدرج (الشكل رقم ٤) — وقد أجمع الباحثون على أن الارتفاع بتلك المعابد ووجود الهياكل فوق الأبراج «الزاقورات» مما يدل على أن أهل الحضارات التى شيدتها كانت تعتقد بأنها أماكن يهبط اليها الاله كى يستريح على الأرض ويشرف منها على شئون البشر ، ولكننى أرى بأن طراز هذه المعابد وتلك قد أوجدته ضرورة ملحة إذ يبدو أن الجدران ذات الفجوات التى على أبعاد منتظمة لم تعد لها نفس الكفاية السابقة كوسيلة دفاعية وربما كان انتشار استخدام أسلحة أبعد مدى من السابقة كالحراب الخفيفة أو السهام قد بدأ فظهرت قيمة هذه المعابد المرتفعة لما لها من ميزة دفاعية إذ تتيح للمدافعين مستوى ضرب أكثر فاعلية عما يتهيأ للمهاجمين وتتيح لهم النيل من هؤلاء على عدة مراحل حتى ولو أخذ عددهم فى التناقص ومما يؤيد ذلك أن المعابد الأرضية ظلت تبنى إلى جوار المعبد العلوى وكان كل منها محاط بسور خاص إلى جانب السور العام الذى كان يحيط بمجموعة المعابد .

وما أن بدأت العصور التاريخية الا وأخذت نظم الحكم والادارة فى التطور وتغيرت الأساليب الحربية وتكيفت الطرز المعمارية تبعاً لذلك — ففى العصر السومرى كانت المدينة دولة قائمة بذاتها والمعبد هو محور النشاط فيها باعتباره مقر الاله وهو حامى المدينة وسيدها الحقيقى الذى اختار حاكمها وكيلا عنه لتصريف شئونها ، وفى خارج أسواره تتركز دور البيع والشراء وغيرها من مظاهر حياة المدينة وحضارتها ، وهذه الأسوار أيضاً تفصل بين المعبد والمساكن التى تتجمع حوله ثم يحيط بالمدينة بأكملها سور عام ضخم له

بضعة بوابات كبيرة تودى إلى خارج المدينة حيث المزارع والمراعى — ولم يحدث أى تغيير فى تخطيط المعابد الأرضية خلال تلك الفترة الا قليلا (حيث أضيفت بعض الادارات الخاصة بالمعابد فى فنائها الخارجى) ، ويلى هذا الفناء سور داخلى يحيط ببناء آخر به بئر للطهور ، وعلى الشرفة المقام عليها قدس الأقداس مذبح للقرابين ، وقد استعمل الآجر الحدب (أى انه كان سميكاً فى الوسط أكثر منه فى الوسطين لأنه صنع باليد ولم يصب فى قوالب) حول النوافذ والأبواب كما استعمل نوع من الحجر الخشن فى بناء العقود .

ولم يعرف الكثير عن مبانى الأكديين (حوالى ٢٣٥٠ — ٢١٨٠ ق. م) وطرزها ولكن من المرجح أنها سارت على نفس الخطوط التى سارت عليها العمارة فى العهد السابق .

وفى العهد البابلى القديم (حوالى ٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق. م) ظهر تطور جديد فى طراز المعابد من أمثلته المعبد الذى وجدت آثاره فى تل أسمر وكان مشيداً لعبادة الملك الحاكم ، وهو مربع الشكل أضيفت إلى جدرانه الخارجية دعامات أو ركائز وفى مدخله برجان مزينان بالتجاويف . وهذا المدخل يؤدى إلى ممر ضيق فى يساره غرفة للتخزين وفى نهايته فناء مربع يؤدى إلى صومعة بها كوة لتمثال الاله أمامها مجرى من الفخار لتصريف سوائل النذور . وإلى يسار الصومعة غرفة للاجتماعات أو للصلاة — وإلى يسار هذا هذا المعبد قصر الحاكم الذى يليه غرباً معبد آخر بنفس نظام المعبد السابق غير أنه يتميز عنه بملحقات من المبانى أضيفت للكهنة ، ومن المرجح والحالة هذه أن قصر الملك كان يحتمى بهذين المعبدين وخاصة لأن الداخل إلى القصر عن طريق أحد المعبدين كان عليه أن يمر فى غرفتين طويلتين ضيقتين شددت عليهما الحراسة . وبين الغرفة الأخيرة والقصر ساحة مربعة تؤدى إلى الديوان الذى يتألف من قاعة للعرش تتوسط بين حجرة كبيرة للأعمال الادارية والاحتفالات (تحيط بها دوائر) وبين الغرفة الخاصة للملك .

وفى عهد الكاشيين (١٦٠٠ — ١١٠٠ ق. م) كان التطور ينحصر فى زيادة عدد الأفنية والحجرات سواء فى المعابد أو فى القصور الملكية وفى جعل

مدخل المعبد على محور واحد مع صومعة الاله التى أصبح الوصول اليها يتم عن طريق باب يؤدى إلى دهليز واسع أضيفت إلى زواياه أبراج قوية . كما أن الفجوات التى كانت تزين جدران المعبد من الخارج زينت بمنحوتات بارزة فى الآجر الذى بنيت به - وهذا الآجر الذى صنع فى قوالب ونقش بأجزاء هذه المنحوتات لم يكن معروفاً من قبل .

وحافظت العمارة على التقاليد المعروفة فى طرزها فى عهد الأشوريين إلا أن الألواح الحجرية استعملت لحماية الأجزاءالسفلى من جدران المعابد والقصور ويكتمل تجميل الرسوم المنقوشة على الجدران بتزجيجها . وفى العصر الأشورى المتأخر زودت المدينة بأسوار كل ضلع لها به مدخلان ، وهذه المداخل تحميها أبراج قوية (شكل رقم ٥) وعلى أبواب القصور وضعت تماثيل لثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية لحمايتها ومنع دخول الأشرار . (شكل رقم ٦).

أما فى العصر البابلى الحديث فقد عادت التقاليد القديمة من جديد إذ اختفت التماثيل التى كانت توضع للحماية عند مداخل القصور وحلت محلها نقوش لحيوانات وأزهار على آجر أزرق مزجج . وكان قصر الملك يقع فى إحدى نهايتى الشارع الرئيسى (وكان يعرف باسم شارع المواكب أو الأساجيلا) ، وفى النهاية الأخرى شيد المعبد الرئيسى وإلى جواره برج بابل أو زاقورة مردوخ .

وخلاصة القول أن العمارة فى العراق القديم رغم أنها لم تدرس بعناية وكل ما كتب عنها لا يتناولها الا بصفة عامة فان من الممكن أن نستنتج من الوصف الموجز السابق أنها تعكس فى مظاهرها المختلفة صورة عن الحياة الحضارية والسياسية التى اقتضتها ظروف البيئة فى الادوار التاريخية المختلفة ففى البداية كان المعبد مقر الاله حامى المدينة وحارسها وبالتالى كان حصنها وآخر مرحلة دفاعية فيها ، وإلى القرب منه يقع قصر وكيل الاله أو الحاكم ثم تطورت أساليب القتال وأصبحت الأسلحة أبعد مدى فأحيطت المعابد والقصور بالأسوار . وعندما تعقدت الأمور أكثر من ذلك ازدوجت هذه

وقد سار نحت كتل الأجسام هو الآخر وفق تقاليد معينة لا شك فى أنها أصلا كانت متأثرة بمظهر البيئة – التى يغلب عليها الانفصال فى وحدات صغيرة يعيش الناس فيها على الأماكن المرتفعة عن المجارى والمسطحات المائية حيث تبدو هذه الأماكن كمخاريط أو أساطين متناثرة . ولذا غلب على التماثيل الآدمية أن تكون أجزاء الجسم فى هيئة كتل مخروطية (شكل رقم ٨) أو اسطوانية ، ونظراً لأن معظم التماثيل كانت تصنع لغرض دينى حيث تحفظ فى المعبد فى حضرة تمثال الاله أو رمزه فان الفنان تغالى فى ابراز الاهتمام الشديد فى ملامح التمثال ولذا بالغ فى حجم العيون ، كما أنه فى أول الأمر جعل نسبة الوجه إلى الرأس أكبر مما ينبغى . ولم يوفق فى تمثيل الساقين لخشيته من عدم احتمالهما لثقل الجسم إذ أنه بدلا من أن يضيف دعامة يستند اليها التمثال جعل الساقين أضخم من المعتاد وخاصة عند العقبين (شكل رقم ٩) كما أنه أخطأ إذ فرغ ما بين الساقين وما تحت الذراعين فتعرضت هذه الأجزاء إلى التلف ، ولم يعنّ الفنان كذلك بزى التمثال ولا بابراز تقاطيع الجسم ولم يشذ عن ذلك الا فى أمثلة نادرة تحرر فيها أما تماثيل الحيوان فقد أبدع فيها أيما ابداع .

ثانيا : فى مصر

تقع مصر بين صحراوين كبيرتين شديدتى الجفاف والجدب فلم تغامر احدى الجماعات البشرية باجتياز احداهما للوصول إلى وادى النيل الخصيب إلا فى أحوال قليلة ، وما أن تصل هذه إلى الوادى حتى يستقر بها المقام وتندمج فى سكانه وتتأقلم إلى درجة تفقدها صلتها بماضيها وحضارتها ووطنها الأصلى لأن العودة لاجتياز الصحراء تكاد تكون ضرباً من المستحيل – فمصر والحالة هذه كانت أبعد نسبياً عن طريق الهجرات البشرية ، ولذا نعمت بالأمن والاستقرار فى معظم عصورها الفرعونية .

أما من حيث السطح فانه يمثل سهلا منبسطاً يجرى فيه النيل بانحدار لطيف نحو الشمال وتنتشر الأراضى الزراعية على ضفتيه وهذه تحف بها الصحراء الشرقية والغربية بما فيهما من مرتفعات وهضاب على كلا الجانبين

أى أن البيئة المصرية بأكلها تمثل خطوطاً مستقيمة متوازية تتعامد عليها توائم الهضاب والمرتفعات التى تمتد فى سلاسل متقطعة موازية لاتجاه الوادى (شكل رقم ١٠) .

ومصر فوق ذلك تتمتع بمناخ معتدل مستقر لا تتلبد سماؤها بالغيوم الا نادراً ولا تتعرض للعواصف أو الأعاصير الا فى حالات شاذة وتسودها طوال العام تقريباً الرياح التجارية الشمالية الشرقية .

وقد أتاحت كل هذه العوامل للجماعات البشرية التى استقرت على ضفتى النيل فرصة الاتصال بعضها بالبعض فى سهولة ويسر وخاصة عن طريق النيل حيث يسهل الابحار فيه شمالا بمساعدة تيار جريانه والابحار فيه جنوباً بالاستعانة بالشراع ونشأت بين هذه الجماعات مصالح مشتركة وانتهى الأمر باتحادها جميعاً فى مملكة واحدة . وكان هذا الاتحاد أسرع وأطول بقاء من اتحاد الجماعات فى أى قطر آخر .

وهكذا شاهد المصرى فى كل ما حوله مظاهر الاستقرار والهدوء والتماثل والخلود ، فالشمس دائمة الشروق والفيضان يحل فى موعده فيحيي الأرض بعد موتها وتتماثل وتتوازى الأراضى الزراعية بل والصحارى التى تحف بها بعيداً على جانبيه : وانعكس كل ذلك فى فنه فجاء متسقاً وهذه العوامل . فاتسم بطابع الهدوء والمحافظة على التقاليد ولذا لم يطرأ تغيير يستحق الذكر طوال العصور الفرعونية فى أصول وقواعد الفن المتبعة إذ نشاهد فيه تغلب الخطوط المستقيمة المتوازية والمتعامدة كما يتميز بالمحافظة على التماثل بين الأجزاء المتناظرة فيما أبدعه .

١ — العمارة الدينية :

لا يتسع المقام هنا للحديث عن كافة أنواع العمائر الدينية ولذا سنتجاوز عن الأهرام والمعابد الجنزية على اعتبار أن الأولى مقابر الملوك فحسب دون النظر إلى مغزاها وهدفها الدينى وأن الثانية مرتبطة بها وبعبادة آلهة الموتى ، ومع كل فهى تتفق والطابع العام للفنون المصرية من حيث استقامة خطوطها وتماثل

بعضها ضد البعض . بل ولا نعرف عن حصون أقيمت فى داخل البلاد لغرض الدفاع الا القليل بل من المشكوك فيه أيضاً أن هذه - إن وجدت - كانت حصوناً بالمعنى الصحيح وليست مجرد تحصينات حول قصور بعض الملوك مثل تلك التي عثر على آثارها فى أبيدوس وترجع إلى عهد السلالة الثانية ... أما على الحدود فلدينا من المعلومات ما يؤكد أن المصريين أقاموا بعض الحصون على الحدود الشرقية والغربية للدلتا كما أن آثار عدد من الحصون وجدت فى بلاد النوبة فى جنوب مصر وهذه كانت أشبه بمدن قائمة بذاتها : بها منازل ودوائر حكومية وأسواق ومعابد ، وهي تختلف فى تخطيطها بحسب موقعها والسطح الذي أقيمت عليه ، فالحصون التي كانت فى الوادي أوفى الأراضي السهلية كانت مستطيلة أو شبه مستطيلة بحيث يكون الضلعان الطوليان للحصن موازيين للنهر ويزود الضلع البعيد عن النهر (أي المواجه للصحراء بالكثير من الأبراج - وأهم عناصر الدفاع فى هذا النوع من القلاع ينحصر فى جعل سورها نحو الداخل واحاطتها بخندق جاف وفى خارج هذا الأخير سور خارجي أقل ارتفاعاً من السور الداخلي ، أما الحصون التي توجد على الهضاب أو على جزر فى النيل فانها كانت تتخذ شكلاً عائل تقريباً شكل البقعة التي تحددها خط الكنتور الواقعة فيه . وخلاصة الأمر أن تخطيط المعبد كان منفصلاً تماماً عن التخطيط الدفاعي أو العسكري .

(ب) الرسم والنقش والنحت :

لم يستعمل الفنان المصري قواعد المنظور الا فى أحوال نادرة جداً لأنه كان يخضع لتقاليد معينة فقد أظهر الأشياء والكائنات فى رسومه ونقوشه لا كما تراها عينه بل بحيث تبرز أهم صفاتها الواقعية أي أن عمله كان إخبارياً وليس تأثيرياً على غير المألوف عن هذه الفنون فى العراق ، فالفنان المصري كان يمثل الكائنات والأشياء فى أحجام تتناسب مع أهميتها ولم يكن حراً فى تمثيل الموضوع المراد كما يتراءى له بل كانت المساحة المطلوب رسمها أو نقشها تحدد له وكانت هذه المساحة تقسم إلى مربعات متساوية ويوزع الرسم أو النقش المراد على تلك المربعات - وكان هناك اتفاق عام فى مختلف

المدارس الفنية على النسبة بين أجزاء الأشكال المختلفة التى تمثل فى الرسوم وكان كل جزء ينفذ على حدة .

وقد حاول البعض أن يشبه الفن المصرى برسوم الأطفال ظناً منهم بأن الفنان المصرى كان يرسم الأشياء من ذاكرته وليس من الشيء نفسه ولكن الواقع يخطيء ذلك إذ ميز الفنان بين ملامح الأشخاص المختلفين وأوضح الفروق بين أفراد النوع الواحد من الكائنات المختلفة كما أبدع فى تصوير الطبيعة ومحاكاتها ، ومادعاً إلى هذا الخطأ أو اللبس عند البعض الا التزام المصرى باتباع قواعد تقاليد معينة تتفق والروح الإخبارية التى توخاها فى فنه من جهة ويبدو فيها إغراقه فى التأثر ببيئته من جهة أخرى . ولذا نجده عند رسم أو نقش منظر معين يرسم مفردات المنظر أى الأشياء والكائنات التى تضمنها كل على حدة بل ويرسم أجزاء هذه المفردات أيضاً كل على حدة ومن أكبر زاوية تمثلها وهو ما يعبر عنه بالاصلاح .

بالانجليزية Formation of Visual axis

وبالألمانية Gesichtsgestaltung

فاذا أراد رسم مائدة عليها أنواع من الأطعمة رسم المائدة وعليها أنواع الأطعمة بحيث تظهر كل أنواعها وكأنها فى طبقات وبحيث تظهر مفرداتها كاملة . وعند رسم كائن من الكائنات فانه يبرز جزء هذا الكائن الذى يوضح هيأته إذ يرسم السمكة مثلا وكأنها ثابتة على أحد جانبيها بل ويبين الزعانف العليا والسفلى مفترضاً أنها مثبتة على هذه الأخيرة ، ويرسم السلحفاة والجعل من سطحيهما العلويين والحيوانات التى تتضح معالمها من الجانب يرسمها من الجانب وهكذا — أما الانسان فقد رسمه بحيث يبدو الرأس والساقان من الجانب ، وكان يمثل القدمين من الداخل فيظهر الاصبع الأكبر لكل منهما ويرسم الكتفين والعينين والجذع والذراعين من الأمام — وفى المناظر كان الشخص الهام أو مفردات المنظر الهامة تشغل معظم السطح الذى مثل عليه المنظر أما بقية مفرداته فتحتل مكاناً ثانوياً — ويبدو أثر البيئة بوضوح فى

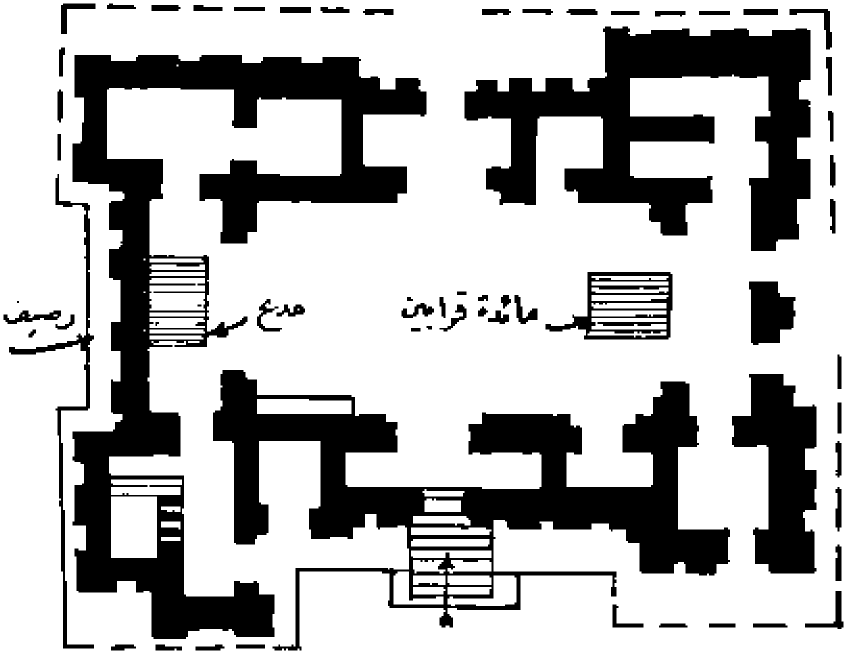

شكل (١)

معبد أريدو (عصر العبيد)

شكل رقم (٢)

أعمدة من الطمي زخرفت بمخاريط فخارية مثبتة بها (عصر الوركاء)

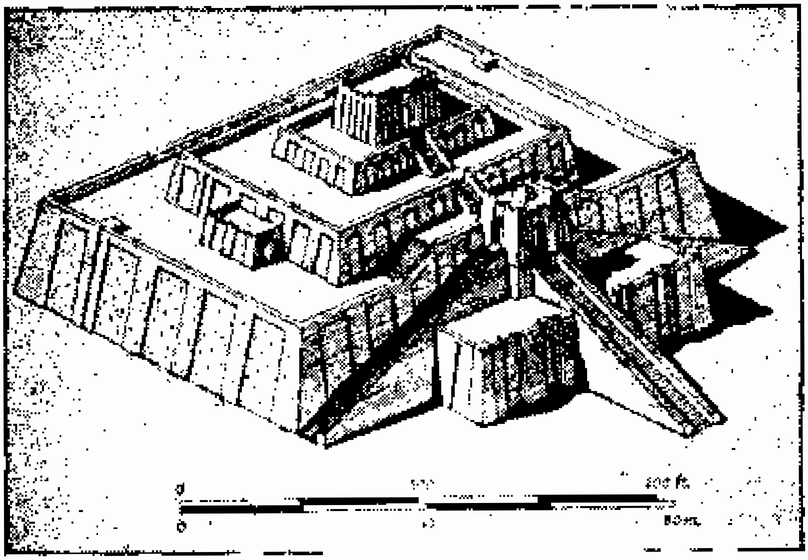

شكل (٢ — ب)

رسم تخيلي للزاقورة عند إنشائها

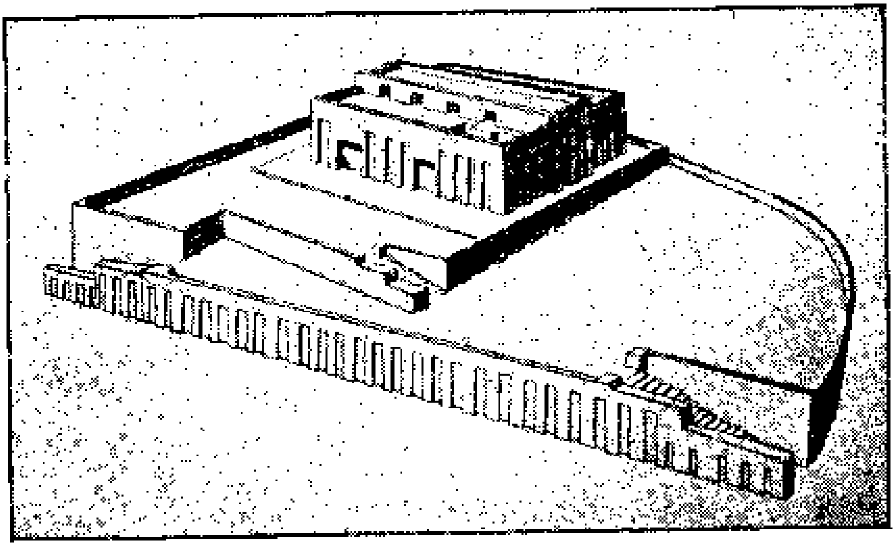

شكل (٣)

معبد شيد على مصاطب وجدت آثارة فى العبير (عصر الوركاء)

شكل (٤ ــ أ)

الزاقورة أو البرج المدرج (معبد أورو)

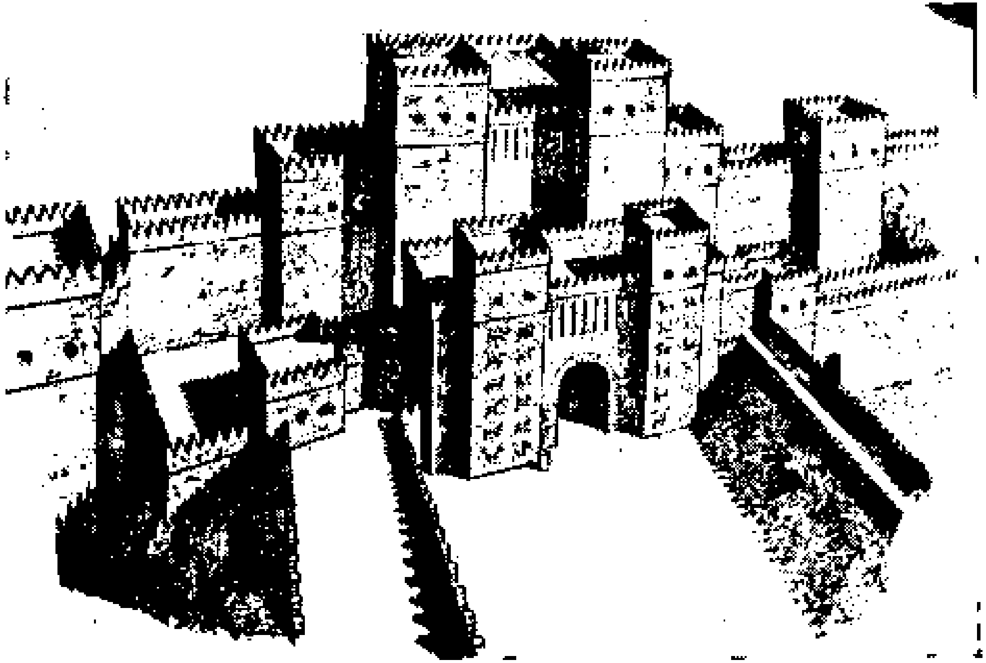

شكل (٥)

جزء من سور بابل وبوابة عشتار فى بابل (من عهد نبوخذ نصر ٢)

شكل (٦)

ثور مجنح برأس إنسان كان يحمى المدخل (من قصر سرجون الثانى فى خو رسباد)

شكل (٧ ـ أ)

إناء من الحجر بسطحه نقش بارز يمثل ثيران تواجه الرائي

شكل (٧ – ب)

إبريق من الحجر منحوت نحتا بارزا (من الوركاء)

شكل (٨ ــ أ)

مغنية معبد من ماري (العصر الأكدي الباكر)

شكل (٨ . ب)

تمثال ايبع الثاني (موظف من ماري عصر فجر الاسرات السومري)

شكل (٩)

تمثالا الإله آبو وزوجته (من تل اسمر - النصف الأول من الألف الثالث ق . م)

شكل (١٠ - أ)

منظر للنيل عند أسوان

شكل (١٠ - ب)

منظر للنيل وعلى جانبيه الأراضي الزراعية التي تحف بها الهضبة الصحراوية كما تبدو على الضفة البعيدة للنهر

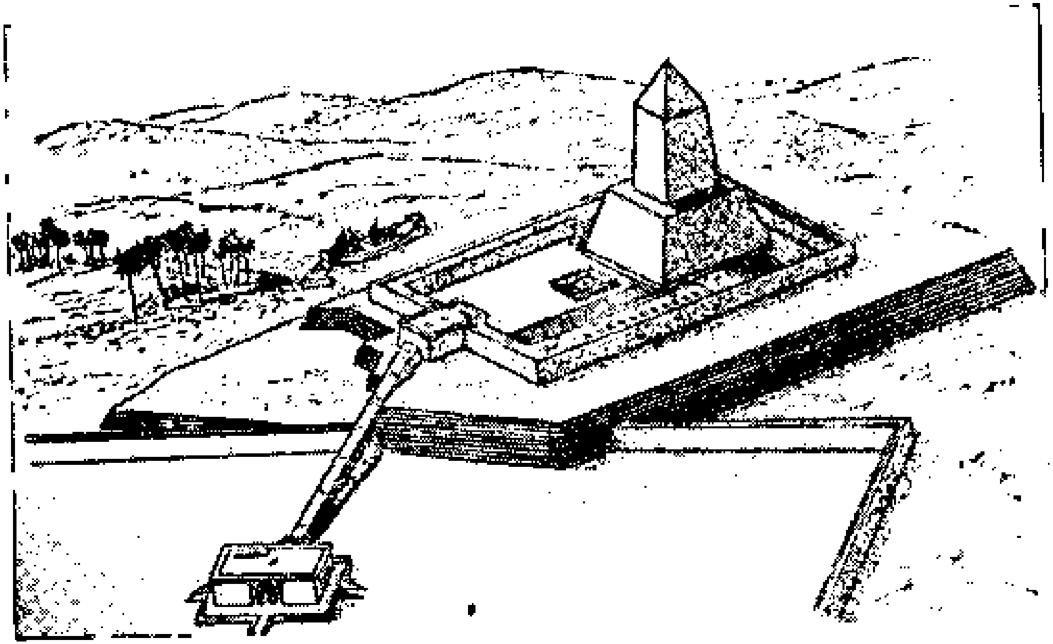

شكل رقم (١١)
معبد الشمس فى أبوصير

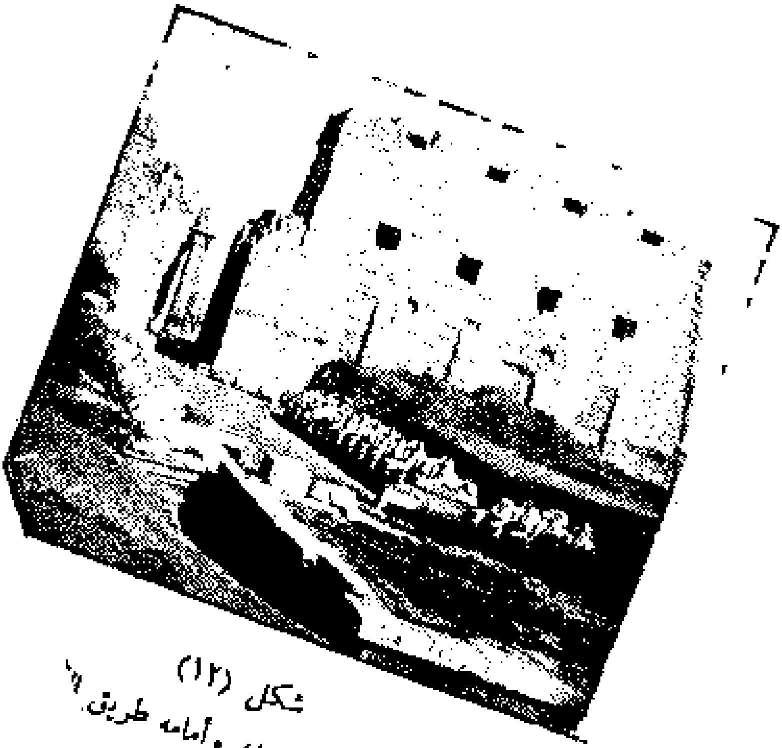

شكل (١٢)

الصرح الأول فى الكرنك وأمامه طريق ال

حول وضع مصر
فى الامبراطورية الرومانية

للدكتور مصطفى العبادى

استغرق تحويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى امبراطورية رومانية نحواً من قرنين ونصف قرن ، وكانت مصر آخر ماسقط فى أيدى الرومان من أقطار هذا البحر،عقب موقعة اكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر فى أول أغسطس سنة ٣٠ ق.م. ومن الغريب أن هذا العام أصبح حداً فاصلا فى تاريخ روما بين نهاية العصر الجمهورى وبداية العصر الامبراطورى ، الذى يرأس فيه الدولة "رئيس Princeps" ، لا "قنصل Consul" (وتعنى زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخى بين فتح مصر وبداية الامبراطورية لا يتعدى كونه مصادفة تاريخية ، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر فى أيدى الرومان من قبل ولا تقوم الامبراطورية ، فقد كانت بداية النظام الامبراطورى فى روما مرهونة بتفرد أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس انطونيوس . وقد اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس انطونيوس والملكة كليوباترا السابعة ، كما هو معروف فى التاريخ. وذلك لأن تأخر سقوط مصر البطلمية فى أيدى الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها ، بقدرما كان راجعاً لظروف روما الداخلية، وظروف النزاع الحربى بين السناتو والشعبيين ، وكل من يدرس تاريخ الأسرة البطلمية يعرف مقدار الضعف الذى وصل إليه ملوكها المتأخرون ، وأنهم منذ منتصف القرن الثانى ق. م. وهم يتقربون ويتزلفون إلى روما بشكل متزايد ، حتى أصبح الملك

البطلمى لايكاد يستقر على عرشه دون رضاء روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم فى الاسكندرية (١) .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر الهين ، لأن مصر مهمة دائماً دون نظر إلى قوتها أو ضعفها ، ولعل السبب فى ذلك هو أن اسمها وتراثها القديم من ناحية ، وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضفى عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يفت الفاتح الرومانى أن يستغل اسم مصر فى أسباب الدعاية السياسية ؛ فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضمه مصر لسلطان روما وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النيلية وأحد المعبودات المصرية . وقد كتب تحته عبارة Aegypto Capta (٢) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعنى فتح مصر ؟ كان معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية فى الاسكندرية ، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة ، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما فى كل عام . أى أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وانتاجهم الزراعى ، أصبح يذهب إلى روما دون مقابل . من أجل هذا المعنى الاقتصادى سميت مصر أعظم أملاك امبراطور روما (٣) ومن أجل هذا المعنى احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ، ليزف النبأ للرومان ويبشرهم بأنه قد سخر لبطونهم قمح مصر . وما كان ذلك بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع

(١) أنظر عرضا تاريخيا لأحداث هذه الفترة فى كتاب الدكتور ابراهيم نصحى « تاريخ مصر فى العصر البطلمى » (١٩٦٠) وخاصة ص ٢٢٠ — ٢٢٦

(٢) H. Mattingly, British Museum Catalogue of Coins of the Roman Empire I. no. 650.

(٣) Philo, In Flaccum. 19 : *Τὸ μέγιστον αὐτοῦ τῶν κτημάτων*

إطعام الرومان بحكمهم ، ومن يفشل فى ذلك لايبقى فى الحكم يوماً واحداً (١) ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح فى ايطاليا واعتمدت اعتماداً تاماً على استيراده من الولايات ، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلد منتج للقمح فى الأمبراطورية أمراً بالغ الأهمية أيضاً من الناحية السياسية، ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الرومانى تاكيتوس : على أن(ايطاليا) لم تصب الآن بالجدب ولكننا نفضل استغلال (شمال) افريقيا ومصر ، وأصبحت حياة الشعب الرومانى رهنا بالسفن وأحداثها (٢) .

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو ، واشتهار أهلها بجنوحهم إلى الثورة سواء شعب الاسكندرية أو أهالى مقاطعة طيبة فى أعلى الصعيد — كما حدث مراراً فى النصف الأخير من حكم البطالمة (٣) ، فقد اهتم الامبراطور اغسطس بوضع نظام دقيق لها ، يكفل استمرار خضوعها للسلطة المركزية فى روما . ولقد اهتم المؤرخون المحدثون كثيراً بأمر هذا النظام الذى وضعه أغسطس لحكم مصر ، بحيث أن الكثير من معالمه أصبحت واضحة . ولكن نقطة واحدة على جانب كبير من الأهمية اختلف حولها العلماء أشد الاختلاف ، وهى وضع مصر فى الامبراطورية،ومحور الخلاف هو هل أصبحت مصر بعد الفتح ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً أشبه ماتكون بالضيعة أو الملكية الشخصية للامبراطور وليس للدولة والشعب الرومانى ، ولكن الرأى الأكثر انتشاراً الآن هو موقف وسط ، وهو أن مصر كانت ولاية ولكن ذات وضع فريد فى الامبراطورية الرومانية . ونظراً لكثرة ماكتب حول هذا الموضوع فسوف لاأتعرض لمناقشة الآراء المختلفة فى هذه

---

(١) حول أهمية تموين روما بالغلال أنظر : D van Berchem, Les distributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous l'empire, (1939).

(٢) Tacitus, Annales, XII. 43.

(٣) أنظر عرضا لهذه الثورات للدكتور محمد مراد حسين وآخرون "كفاح ضد الغزاة" ص ٩٣ — ١٢٤

الدراسة القصيرة ، تجنباً لتكرار ما كتبه غيرى (١) . وسوف اقتصر على تحديد موقفى والتدليل عليه مباشرة بعد ذلك .

أما كون مصر ولاية رومانية ، فهذا عندى أمر لاشك فيه . أما عن وضعها «وضعها الفريد » فى الامبراطورية فأعتقد أن أكثر الكتاب يبالغون فى غرابة وضع مصر ، وأن الاستثناء فى حالتها أقل كثيراً مما يصورون . ولايضاح ذلك سأورد أولا بعض النصوص القديمة التى تصف وضع مصر الجديد كما عينه الأمبراطور أغسطس :

أولا : استرابون ، وهو الجغرافى المشهور الذى زار مصر عقب الفتح الرومانى مباشرة ، وكتب فى عهد الأمبراطور نفسه ، يقول :

«لقد أصبحت مصر الآن «ولاية» (ἐπαρχία) تدفع جزية ضخمة ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تباعاً . ويحتل (الوالى) الذى يرسل اليها مكان الملك .... وهناك ثلاث فرق من الجنود ، واحدة منها تقيم فى المدينة (الاسكندرية) والأخريان فى سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها فى المدينة (الاسكندرية) وثلاث على الحدود الأثيوبية — فى أسوان — كحامية لتلك البقاع ، وثلاث فى سائر القطر . وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة فى مناطق الخطر أيضاً » (٢) .

---

(١) اكتفى هنا بأن أحيل القارىء الى العرض الراق لجميع وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة فى كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٤-٥٧ ، ويوجد بالهوامش تلك المصادر والمراجع المختلفة . أنظر أيضاً Wilcken: Grundzuge p.28, n.2.

(٢) Strabo, 17.1.12 " 'Επαρχία δὲ νῦν ἐστι, φόρους μὲν τελοῦσα ἀξιολόγους, ὑπὸ σωφρόνων δὲ ἀνδρῶν διοικουμένη τῶν πεμπομένων ἐπαρχων ἀεί. ὁ μὲν οὖν πεμφθεὶς τὴν τοῦ βασιλέως ἔχει τάξιν ... ἔστι δὲ καὶ στρατιωτικοῦ τρία τάγματα, ὧν τὸ ἓν κατὰ τὴν πόλιν ἵδρυται, τἆλλα δ'ἐν τῇ χώρᾳ· Χωρὶς δὲ τούτων ἐννέα μέν εἰσι σπεῖραι 'Ρωμαίων,

ثانياً : تاكيتوس ، أعظم مؤرخ رومانى ، امتدت حياته بين عامى ٥٥ — ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج فى سلك الادارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبحكم حياته الادارية كان مطلعاً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير والإيجاز إلى درجة ملغزة فى بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر فى الامبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

«حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس المؤله ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان، شغلوا مكان الملوك . فقد رؤى أن من الأصلح أن يبقى فى يدى الامبراطور أمر ولاية provincia يصعب الوصول اليها ، وغنية بانتاج القمح ، يتوزعها التطرف الدينى والأهواء والميل إلى التغيير لم تعرف نظام التشريع (الشعبى) ، ولم تألف الحكام (المنتخبين)(١)

ثالثاً : ديون كاسيوس ، عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى وبداية القرن الثالث ، وتدرج فى سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ ميلادية ، وكتب تاريخاً لروما استمده من المصادر المعاصرة القديمة . وقد وصف ما فرضه أغسطس على مصر فى هذه الفقرة .

τρεῖς μὲν ἐν τῇ πόλει, τρεῖς δ' ἐπὶ τῶν ὅρων τῆς Αἰθιοπίας ἐν Συήνῃ, φρουρὰ τοῖς τόποις, τρεῖς δὲ κατὰ τὴν ἄλλην χώραν. εἰσὶ δὲ καὶ ἱππαρχίαι τρεῖς ὁμοίως διατεταγμέναι κατὰ τοὺς ἐπικαιρίους τόπους."

(١) Tacitus Hist. I. 11 : Aegyptum copiasque, quibus coerceretur, iam inde a divo Augusto equites Romani obtinent loco regum : ita visum expedire, provinciam aditu difficilem, annonae fecundam, superstitione ac lascivia discordem et mobilem, insciam legum, ignaram magistratuum, domi retinere.

"ومنذ ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جاللوس كورنيليوس . ونظراً لكثرة عدد السكان سواء فى المدن أو فى الريف ، ولسرعة وحدة طباعهم ، وكذلك لوفرة غلاتها وثرائها ، منع أعضاء مجلس السناتو من أن يدخلوا مصر أو الاقامة بها لأى سبب كان ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه بذلك"(١) .

هذه من غير شك أهم الكتابات القديمة وأوفاها فى وصف وضع مصر بعد الفتح الرومانى ، وغيرها وهو كثير(٢) ، تكرار لما أورده هؤلاء الكتاب الثلاثة ، أو يتناول جزءيات المشكلة ، وسوف نذكر ما يهمنا منها فيما بعد .

وقد يتبادر لذهن القارىء للنصوص السابقة أن كون مصر « ولاية رومانية » أمر لا يقبل الجدل . ولكن أصحاب الرأى المعارض(٣) أنكروا هذه الحقيقة ورفضوا الاستشهاد بكتابات الكتاب ، وحاولوا أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم فى أن « الوثائق » المعاصرة لا تذكر اسم مصر مقروناً بكلمة « ولاية » (provincia أو ἐπαρχία) وكان سندهم فى دعواهم أن اغسطس نفسه حين كتب فى سجل أعماله المعروف باسم أثر أنقرة عن فتح مصر قال :

---

(١) Dio Cassius, 51.17 "ἐκ δὲ τούτου τήν τε Αἴγυπτον ὑποτελῆ ἐποίησε καὶ τῷ Γάλλῳ τῷ Κορνηλίῳ ἐπέτρεψε. Πρός τε γὰρ τὸ πολύανδρον καὶ τῶν πόλεων καὶ τῆς χώρας, καὶ πρὸς τὸ ῥᾴδιον τό τε κοῦφον τῶν τρόπων, τήν τε σιτοπομπίαν καὶ τὰ χρήματα, οὐδενὶ βουλευτῇ οὐκ ὅπως ἐγχειρίσαι αὐτὴν ἐτόλμησεν, ἀλλ' οὐδὲ ἐνεπιδημεῖν αὐτῇ ἐξουσίαν ἔδωκεν, ἂν μή τινι αὐτὸς ὀνομαστὶ συγχωρήσῃ." Also cf Tacitus, Annales, II. 59

(٢) أنظر الدكتور عبد اللطيف أحمد على ، المرجع ذاته .

(٣) T. Mommsen, Hist. of Rome, The Provinces, part II, trans. P. Dickson, p.233 ff ; A. Stein, Unter—suchungen zur Geschichte und Verwaltung Aegyptens unter Romischer Herrschaft, pp. 92, 95 ; J. G. Milne, Egypt Under Roman Rule, p. 120.

«لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الرومانى»(١).

(Aegqptum imperio populi Romani adieci)

وإنه لم يستخدم فى وصفها كلمة «ولاية» provincia هذه من غير شك مدعمة بقول تاكيتوس الغامض domi retinere (الوارد فى النص السالف الذكر) اقوى حجج هذا الفريق من الباحثين ، وللرد عليهم سأحاول أن أثبت أن مصر من وجهة نظر القانون الرومانى كانت ولاية رومانية . ولتبيان ذلك نقول أنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت فى عام ٢٧ ق.م. تسوية لتنظيم الاشراف على الامبراطورية بينه وبين مجلس السناتو وبناء على هذه التسوية قسمت ولايات الامبراطورية بين أغسطس والسناتو (٢) ونلاحظ أن الامبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصى الولايات التى تمثل جبهات الحرب الرئيسية للامبراطورية والتى بها جيوش محاربة،وهى الغالة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) واسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر ، وهى ولاية جديدة ضمها أغسطس للامبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية)،وعلى هذا النحو ركز فى يديه السلطة العسكرية العليا لكل الجيوش الرومانية تقريباً . وهذا هو جوهر الموقف كله ، فقد حرص أغسطس على أن يسلب مجلس السناتو سلطة القيادة العسكرية،والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن أعضاءهذا المجلس هم الذين استغلوا سلطانهم العسكرى وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال سلا وبومبى وقيصر وماركوس انطونيوس ، وخاصة الأخير الذى شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتها قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فمصر على هذا الأساس قد اعتبرت فى نظر المشرع الرومانى ولاية رومانية،عوملت فى تسوية عام ٢٧ ق.م. معاملة الولايات الكبرى الأخرى(٣)

---

(١) Res Gestae Divi Augusti, 27.1.

(٢) أنظر حول تسوية عام ٢٧ ق.م. R. Syme, The Roman Revolution (1952) pp. 313 — 330 ; Cambridge Ancient History, X. p. 128.

(٣) يعارض هذا الاتجاه دون دليل مقنع . A. Stein, Op. cit

ومابنبغى استغلال عدم استخدام كلمة provincia فى أثر أنقرة للتدليل على أن مصر لم تكن ولاية، فكل من يقرأ أثر أنقرة ويدرس أساليب تعبيره يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستخدم فى وصفه لضم «بانونيا» و«اليريا» للامبراطورية ، تعبيراً شبيها بعبارته عن ضم مصر ، أي دون ذكر كلمة provincia ، ولم يشك أحد أن «بانونيا» و«اليريا» كانتا ولايتين رومانيتين (١) .

ولم يشك أحد من القدماء أيضاً — فيما يبدو — أن مصر كانت ولاية رومانية ، والا لما غاب عن كل من استرابون وتاكيتوس ملاحظة ذلك ، كما سبق أن بينا ، فكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (ἐπαρχία) provincia النصين اللذين قلنا بترجمتهما . ويمكننا أن نضيف إلى هذه النصوص التاريخية ومثيلاتها ، نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثانى ، ولكنه يصف بعض مسئوليات والى مصر على الأسس التى عينها أغسطس . فهذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia :

" De officio praefecti Augustalis. Praefectus Aegypti non prius deponit praefecturam et imperium, quod ad similitudinem proconsulis lege sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eius, licet in provinciam venerit : et ita mandatis eis continetur. " (٢)

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانونى — كانت ولاية رومانية ، وانها حسب تسوية عام ٢٧ ق.م. كانت احدى الولايات

(١) Res Gestae, 30.1, "Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exercitus nunquam adit, devictas per Ti Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulique fines Illyrici ad ripam ripam flumen Danui."

(٢) Upianus apud Digest. I. 17.1 ، وانظر أيضاً فى المعنى ذاته Tacitus, Ann. XII.60 وقد استخدمت كلمة ولاية (ἐπαρχία) أيضاً مجموعة القوانين الرومانية فى مصر من القرن الثانى الميلادى المعروفة باسم P. Gnomon, 102

التى تتبع الامبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقاً على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذى يراه هو ويبقيهم فى مناصبهم حسب ارادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصياً ، ومسئولون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر مايشاء من النظم والقوانين فى تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة منها . ولم يقتصر أغسطس فى الواقع على ممارسة هذا السلطان فى ولاياته فحسب ، بل نجده أحياناً يتدخل تدخلا مباشرا فى شئون الولايات التى تتبع السناتو ، كما حدث فى قورينة (برقة) وقبرص (١) . ولذلك لا ينبغى أن ينظر لسلطان السيادة الذى مارسه أغسطس فى شئون مصر أعلى نه استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس فى تسوية عام ٢٧ ق.م. حاول أن يضعف من شأن مجلس السناتو ، وفى الواقع كان ذلك جزءاً من سياسة مقصودة تهدف إلى اضعاف طبقة ومجلس السناتو . وتنفيذاً لهذه السياسة العامة اتجه اغسطس نحو العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة المعروفة باسم طبقة الفرسان equites وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسياً ، فوجدناه يعين حكاماً من بين أفراد هذه الطبقة لولاياته الجديدة ، وفى الولايات القديمة ، حيث التقليد المتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجلس السناتو من القناصل والبريتوريين السابقين ، نجده لا يميل إلى تعين ولاة من فئة بروقنصل (أى من القناصل السابقين) — وهى الفئة الأرقى والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية ، ويعين حتى فى الولايات الكبرى مثل الغالة واسبانيا وسوريا نوابا عنه من فئة الرو بريتور legati pro praetore الأقل أهمية ومن الأسر الأقل شأناً (٢).

وفى حالة مصر ، طبق نظامه المتبع فى الولايات الجديدة التى أضافها

(١) Cambridge Ancient History, X. pp. 212, 214

(٢) Syme, Roman Revolution, p. 326.; Camb. Anc. Hist. p. 215

هو إلى الامبراطورية ، فعين واليها praefectus من طبقة الفرسان (١) . ولكن لما كان لايجوز لأفراد طبقة الفرسان — حسب التقاليد الدستورية الرومانية — أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق الرومانية legiones والتى كان أمر قيادتها قاصراً على أفراد طبقة السناتو (يحق للفرسان قيادة وحدات الامدادات العسكرية auxilia) فقد اتخذ أغسطس اجراء استثنائياً فى حالة مصر فقط، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامريوم imperium (٢) التى تخوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية (legiones) وحتى هذا السلطان الاستثنائى كان يتعين أن تقره الجمعية التشريعية فى روما (٣) والسبب فى اتخاذ هذا الاجراء غير العادى فى حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس فى ولاء طبقة السناتو له : لقد تآمروا من قبل بقيصر وقتلوه ، كما امتحن اغسطس نفسه بتجربة قاسية على يدى انطونيوس وحليفته كليوباترا ، حتى كادت من جرائها تتصدع الامبراطورية بأسرها .

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول اليها بسبب ظروف الملاحة قديماً وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان اغسطس يخشى أن يتمكن أحد أعضاء طبقة السناتو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه — بحكم حقهم التقليدى فى قيادة الجيوش — ويستقل بمصر (٤). فيحرم روما من مصدر هام للقمح ، مما قد يكون له عواقب خطيرة .

---

(١) كما يتضح من نص المؤرخ تاكيتوس السالف ذكره Hist. I. 11.

(٢) كما هو ثابت فى النص سالف الذكر : Digest. I. 17.1 "imperium quod ad similitudinem proconsulis lege sub Augusto ei datum est."

(٣) A. H. M Jones, Legacy of Egypt p. 288.

(٤) لعل من المناسب أن نذكر هنا أن الملك بطلميوس الزمار كان قد أعيد الى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الرومانى من رجال بومبى ، وكان قائدها أحد رجاله المسمى جابينيوس ، وقد بقيت هذه الفرقة فى الاسكندرية ولعل هذا هو السبب فى أن بومبى حاول الفرار الى مصر بالذات بعد هزيمة فارسالوس . وقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر فى حرب الاسكندرية (Bell. Civ. 110) ولابد أن أنطونيوس قد ترك فى مصر جنوداً آخرين ، قد لايترددون فى الثورة ضد أغسطس اذا ما وجدوا لهم قائداً مناسباً ، كما أن المصريين وأهل الاسكندرية لم يكونوا راضين عن الحكم الرومانى الجديد .

من أجل هذا كان الاجراء الاستثنائي الوحيد الذي طبقه أغسطس في مصر يتعلق باقصاء هذه الطبقة عنها : فنح والي مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبريوم لقيادة الجيوش كما منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة في روما من دخول مصر إلا باذن خاص من الأمبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكيتوس المعروفة التي يقول فيها : «إن من بين أسرار توطيد حكم اغسطس أنه أمن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها الا باذنه وذلك حتى لايصيب أحد ايطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة (١)»

وهكذا يتضح من هذا العرض الموجز أن مصر كانت ولاية رومانية تشبه من حيث وضعها القانوني سائر الولايات التي كانت تتبع شخص الامبراطور وأن الاستثناء الوحيد في وضعها كان يتعلق بابعاد طبقة السناتو والاشخاص الخطرين عنها . وما عدا ذلك من حيث سلطة الامبراطور عليها وشخص الوالي وسلطاته المتعددة (٢) ومعاملة ما كان يرد منها من جزية أو قمح ، فقد كان متمشياً مع هو مألوف في ظل النظم الدستورية الرومانية في العصر الامبراطوري .

---

(١) لاحظ أنه يستخدم أيضا كلمة "Provincia" Tacitus, Annales, II. 59.
حول هذا الاجراء أنظر أيضا : Dio Cassius, 51. 17

(٢) Tacitus, Annales, XII 60.

EMERALD MINING IN EGYPT

A Long-Abandoned Industry

By

A. F. WEHEBA, M.A.,Ph.D., (Lon.)
Department of Geography

Foreword :

Archeological research has proved beyond doubt that the Ancient Egyptians were not acquainted with many precious stones such as emeralds, diamonds, ruby and sapphires [1]. Beryl of which emerald is the jewel form, does not occur until Ptolemaic times [2]. However, the mineralogical terms of the Greeks and Arabs for emerald were lacking in precision. The Greek "Smaragdus" and the Arabic "Zumurrud" (at least in the early centuries of Arab administration) were all embracing including all minerals of the emerald species i.e, emerald matrix, beryl and peridot. This, perhaps, explains the tales of Herodotus and some Arab historians of emerald statues, obelisks and other curiosities [3].

In this article an attempt is being made to show a long struggle of Man against one of the most inhospitable and desolate environment, in the hope of gaining one of the gifts of Nature, emerald and plenty of it. The search took him a long way from the Nile Valley where, at last, he found amidst the geological museum of the Red Sea Hills metamorphic mica-schists rich in beryls. The ruins of his mining settlements and workings are still evident over a wide area in the Sikait-Zabara district (Fig. 1.) Because of inaccessibility and distance (7days

---

1. Granville, S. R. (Ed.) The Legacy of Egypt, Oxford. 1947, p. 15. Only were precious stones such as turquoise, lapis, lazuli familiar — see J. Wilson. The Culture o Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 128.

2. Ball, J. The Geography and Geology of S. Eastern Egypt, Cairo, 1912, p.3.

3. Thomas, E.S. "The mineral Industry of Egypt" Precious stones: Emeralds Cairo Sc. J. vol. III, No 28 1904 p. 267.

from the Nile Valley) the preparation of the gems had to be carried out on the spot, thus avoiding considerable expense and trouble in transporting bulky material. This in fact necessitated the establishment, where suitable, of seemingly long-lasting mining settements (or encampments) served with wells and water reservoirs, watch towers worship places (temples and mosques) in additon to requisite stores and mecanichal aids. Emerald mining, like that of gold and other precious stones (in the E. Desert and Sinai) was mostly the monopoly of the goverment exploited, at least in the Greco-Roman period, through the use of what seems to be a kind of forced labour. Intensive as this exploitation was, Egypt remained for 1,800 years or so the only source of World's emeralds. As a corollary, these stones must have been of good quality and not mere beryis as modern mining engineers allege. "It is hard to believe, states Murray, "that these so very extensive workings were excavated to obtain stones of poor quality"[1].

I

THE EVIRONMENT

To appreciate the conditions under which mining operations were conducted and miners lived, it may be useful to discribe the physical environment which has underwent only slight climatic fluctuation since the opening of the workings in the 4th century B.C.[2].

The renounced Sikait-Zabara emerald-producing district is situated in the hilly sector of the south Eastern Desert between latitudes 24° '37—24° '47 N extending approximately from north to south for 15 kilometres. It may be of interest to note that Ptolemy places the Smaraggud Mt. (Gebel Zabara) a little higher than its true position. The journey to the mines took 7 or 8 days in which a distance of about 200 Kilometres had to be covered.

---

1. Murray, G.W., „Trogodytica. The Red Sea Littoral in Ptolemaic Times" Geog. J. Vol. 133, part I March, 1967 pp. 24 — 33.

2. Huzayyin, S. "Changes in Climate, Vegetation and Human Adjustment in the Saharo-Arabian Belt," Man's Role in Changing the Face of the Earth. Ed. W. Thomas and Others, Chicago, 1955, p. 567 et sey.

Butzer, k. "Environment and Human Ecology in Egypt". Bull. Soc. geog. D'Eypte. T. XXXII. 1954 pp. 63 — 74.

Speaking of the Eastern Desert in general. the most striking feature is its dissected nature. Dry wadis with their ramifications cut the desert into hill-masses and minor plateaux especially on the west and north, making it all the more inaccessible as we penetrate deeper into the Red Sea Hills. In their upper parts wadis resemble torrent beds, but gradually develop into long flat winding watercourses with cliffs of rocks on their sides, sometimes 20 feet in height and beds of sand and pebbles in which all the lithological constituents of the surroundings are represented. In the highlands, the predominants types of scenery are extensive sandy plains and gaunt, bare, rugged mountains, though barness becomes slightly relieved in the Elba Mountain which occupies the far south-eastern corner.

Land forms are mostly a reflection of solid geology. Thus stone plateaux side by side with granite bosses, spiky granite peaks over 1500ms. above sea-level, and broken masses of gneiss. Crushing of the older rocks igneous and metamorphic is almost everywhere evidenced. Good building stones abound, and a variety of minerals (gold, copper etc.) occur though in modest quantities [1].

The climate of the region is predominantly a desert type, though it becomes slighthy moist eastward of the watershed which extends not far from the Red Sea coast-line. The change from the cold cloudy weather (in Jan and Feb.) to the typical hot weather of the desert, is brought about very suddenly by a change of wind diretion. Cool north-west winds are felt in the north part, while hot damp winds from the south-east prevail in the south. The hot-dry, sand-laden "Khamasin" winds usually blow for four or five days together in March and April. They cause a sharp rise in temperature (over a 45°/C. in the shade) and fill air with sand dust. Rain falls in most years, but its quantity is very variable, in some years there is barely enough to keep the wells replenished, and much of the scanty vegetation dries up; in others, heavy storms produce very rapid downrushes in the wadis, filling them for short periods with raging torrents. With the exception of Gebel Elba which is fairly wooded, the other mountains make a dreary waste of naked rocks [2]. Both animal and plant life, however, is

1. Ball, J. (1912) op. cit. p. 23.

2. On Gebel Elba see "Gebel Elba" by I. R. Fahmy. Fac. of Medicine, Cairo Pub. No. 7. 1938.

mainly restricted to wadis, namely drainage lines. For reasons not yet fully understood members of the local fauna, notably, ostriches and zebras have recently disappeared, leaving behind vestiges of their past existence [1].

Water supply is everywhere scanty and is obtained from very widely scattered springs, rock pools (in the mountains) and wells sunk in the alluvial deposits of wadi-floors. Being entirely dependent on the rainfall, their yield is after barely sufficient for Man and Animal. The Eastern Desert possesses no artesian water-supplies similar to those of the oases of the Western Desert [2]. In consequence it is only at very few places that any cultivation can be practised. This condition applies to the past as well. Of the sources of water, rock basins in the mountains yield the purest water and form the principal supply of pastoralists while springs and wells are mostly used by travellers and traders for their easier accessiblity [3]. It is to be noted that the coastal plain is waterless except for salty wells near the sea.

A closer view of the Sikait-Zabara district (Fig. 1) will bring home the actual scene and the kinds of minerals, the ancient mining expeditions knew so well. Approaching the district from the south-east we shall come across Wadi Nugrus and thence up its tributary, Wadi Sikait, which drains Gebel Sikait from the west, the eastern flanks being drained by wadi Um Gamil. Gebel Sikait itself 771 ms above sea-level is a rugged ridge of schists and serpentine in the upper part situated in the midst of hilly country 14 kms south-east ofGebel Zabara and 24 Kms from the Red Sea as the crow flies. Tthe district between Gebel Sikait and the sea consists of an expanse of low hills through which small wadis wind in and out. Towards the west, the hills are higher and beyond them is an arid plain. To the north and south mountains rise in the distance. Ancient miners found the Wadi Sikait asuitable

---

1. According to S. Huzayyin (The Place of Egypt in Prehistory, 1941) the contemporary conditions of aridity did not set in until after 2500 B.C.. G. Murray (1951) on the other hand, concludes that the present climatic conditons set in after 500 B.C.

2. Ball, J. Contribution to the Geography of Egypt Cairo, 1952, p. 11

3. Mac Alister, D.,,The Emerald Mines of N. Etbai", Geog. J Vol. XVI. No. 5, Nov. 1900, p. 548.

It has been found that the water of certain wells and springs is either purgative (due to the absorption of magnesium salt) or so salty as to be only drinkable by camels.

place to climb the mountain from. It was not a difficult ascent especially after the construction of a road now broken[1]. The abundance of ruins near-by and the many old emerald mines met with at the foot of the mountain testify to the intensity of past exploitation. In addition to beryl, the mountain possesses a variety of minerals. Tourmaline, actinolite, various micas, chlorite, talc and crystals of calcite are among the commonest minerals available[2]. Figure (2) represents a geological section of Gebel sikait made by D. Mac. Alister (1900) and it is apparent from the accompaning remarks (referred to by inserted numbers) how rich in minerals this Gebel has been[3]. Proceeding across the hilly

---

1. Roads were essentially built in the Eastern Desert to facilitate the movement of the Eastern trade. And wherever a road traversed the desert, some mineral more or less valuable was sure to turn up near the passes.

2. Mac Alister, op., cit. p. 543 -- 45.
See also Ball, J (1912) op. cit., p. 169 et seq.
Floyer, P. The Mines of the N. Etbai. Q. J. R. Asiat. Soc. Vol. XXIV, Oct. 1892, pp. 811 — 833.

3. Inserted numbers and what they indicate — see Fig. 1.
   1. Coarse talc-schist with graphite.
   2. Hornblende rock.
   3. Quartz.
   4. Fissile mica schist and trough hornblende schist.
   5. (Mined) Mica schist and impure talc schist, beryl.
   6. Quartz-prophyry (brownish — red crystals)
   7. Fissile yellow quartzose mica schist.
   8. Talc schist with graphite.
   9. Quartzose mica schist.
   10. Fissile mica schist chrysolite and talc schist in pokets.
   11. (Mined) Quartzose mica schist, beryl.
   12. Talc schist with ferruginous calcite nodules.
   13. Micaceous hornblende schist.
   14. Quartzose mica schist.
   15. Coarse mica schist.
   16. Schorl and tourmaline, actinolite.
   17. Schorlaceous schist, fibrous.
   18. Quartz reef.
   19. Garnet rok (hornblende and quartz).
   20. Quartzose hornblende schist.
   21. Quartzose actinote schist.
   22. Fissile hornblende schist.
   23. (Mined) Quartdose mica schist, beryl.
   24. Talc schist with ferruginous calcite nodules.
   25. Greissen, rich in quartz.

country to the north west we come to Gebel Zabara, a mountain mass rising to 1,361 ms above sea - level and at the same time forms a southward extension of the Hangalia range. The mountain is drained on the north and east sides by feeders of the Wadi Gadir (especially wadi Zabara), while its western flanks, are partly drained by the wadi El-Noum. Gebel Zabara is chiefly made up of schists of various types with beryl veins extending in the north-east part[1]. The ruins in the wadi Zabara near the old emerald mines, show that beryl was found at some 500 ms above sea-level.

II

EMERALD EXPLOITATION

Egypt's mineral wealth was to the Ancient World proverbial. This wealth essentially concentrated in the mountains rising east of Coptos and Appollonos and was exploited by the Ancient Egyptians if not by their predecessors. However, emeralds were among the gems that Egypt knew of late, probably not earlier than the time of the Greek domination (332 — 30 B. C.) Under the Ptolemies Egypt was in principle a royal domain and so regal rights were excercised all over the existing

---

= 26. Greissen.
27. Coarse impure talc schist.
28. Quartzose mica schist.
29. (Mined) Mica schist, beryl.
30. Talc schist with ferruginous impurities.
31. Argillaceous mica schist.
32. Fine - grained salty mica schist.
33. Fissile hornblende schist.
24. Fine-grained salty mica schist.
35. Quartzose mica schist.
36. Fine - grained micaceous hornblende schist, poor in hornblende.
37. Jasper.
38. Granite.
39. Amphibolite rock, poor in honblende.
40. Agrillaceous slate with dendrites.
41. Impure talc schist.
42. Schistose amphibolite rock poor in hornblende.
43. Light spotted apple-green serpentine, chrysolite, nephite, and metamorphosed siliceous limestone.
44. Subtranslucent green serpentine, olivine, and nests of talc schist which contain soluble salts, stockworks of actinolite.

1. Ball, J. (1912) op., cit. P. 169.

mineral wealth [1]. In the same way mines were in Roman times controlled by the treasurey and either exploited directly or worked by private contracts [2].

Our information on emerald mining in the Eastern Desert is derived from two main sources : 1. historical records and inscriptions 2. investigations carried out in recent years by certain explorers. Arabic doucuments furnish us with good information while Greek and Roman sources give no clue to many questions It is the recent investigations that have enabled us to make a general characterization of this activity in antiquity.

The Greco-Roman Period :

The earliest direct reference to emerald exploitation in Egypt is made by Strabo (C. 63 B.C. — A.D. 24) who informs us that "on the road crossing the Eastern Desert between the Nile (Coptos) and the Red Sea there are the mines of peridots (obviously emeralds) and other precious stones "Here Arabians (the local inhabitants) excavate deep tunnels from which they extract emeralds" [3] In all probability his "Troglodytes" or cave-dwellers worked in the mines. [4] The road from Coptos to Berenice past the emerald mountains is mentioned with lists of halting stations and water reservoirs and their distances from each other both by Pliny (A. D. 24 - 79) and the writer of the Antonine Itenerary (A.D. 285—305). Appollonos (Arab Idfu) became at one time an important starting-station on the road to the mines. From it (Fig.3) the road ran past Bir Abad to a place called now Kanais, some 40 Kms from the Nile. Further on, it reached a place named Midrik. The next station was Samut, a place scattered with ruins, After Samut the road ran past Gebel Dweig where it joined that of Coptos . Further on, after passing over the watershed the road continued past Gebel Abu Had to the Wadi Gemal and thence up to the wadi Nugrus and Wadi Sikait to the mines.

---

1. Preaux., C. L'Economie Royale des Lagides, Bruxelles, 1939, pp.253—67.
2. Milne, J. A History of Egypt-Under Roman Rule, London, 1924, p.16.
3. Kamel, W. Strabo in Egypt, Cairo, 1953, p. 112. (Arabic text).
4. Murray, G. (1967) op., cit., p.p 24 — 33.

the other jewels for the peculiar virtues ascribed to it, the many purposes it may be put to and lastly for its light weight compared with other precious stones [1].

The Arab Period :

The same factors that were behind the exploitation of Egyptian emerald in antiquity i.e. the productivity of the mines and the wide and ever increasing demand for the stone continued in operation in Medieval Egypt. One is even inclined to state that emerald exploitation was more active and intense in the Middle Ages than in antiquity.

Qift then Qous replaced Idfu (old Appollonos) as the terminus of the road starting from "El-Khareba" (mining district) [2]. Leaving "El-Kareba" the road crossed the watershed heading southwards to wadi Barramia thence it continued north-westwards partly following the wadi Hammamat before it reached Qous.

To quote Masoudi (10 the century A.D.) "Emerald is to be found within the admininstrative district of Qift, in southern upper Egypt. Thence the road to the mines begins. The place in which the mines are located is called El-khareba (the ruined) a mountainous desert. The Bedja (taken for the indigenous Abbada tribes) protect this place and receive royalities from whoever comes to dig the stone" [3]. Idrisi and Abu El-Feda refer to the mines and the roads leading to them but their description contains palpable errors. It is Makrizi (1364 — 1442) who furnishes us with a fairly informative account on emerald mines and their exploitation [4].

According to this historiographer, it took from seven to eight days to reach the mines from Qous [5]. As to the mines they were located in the center of a chain of mountains and to the north of the highest

---

1. Masoudi, Murouj Al-Thahab, Vol. I. Cairo 1938, p. 329. (Arabic text)
2. Makrizi, Al-Khetat, Cairo, 1905 vol. I. p. 376
3. Masoudi op., cit., p. 338
4. Makrizi op., cit., pp. 313 — 318 and P. 376.
5. Ibid, p. 376

peak named "Karkashenda". An Arab manuscript entitled "Precious stones "written in 1182 A.D. by Abou El-Abbas El-Teisachi describes the talcose matrix in which the stones are found[1]. Makrizi also speaks of two kinds of talc matrix, camphor talc and silver talc (as well as jeroui stone?). Emeralds, continues Makrizi, "are found in dark deep caverns where miners work with lamps and use guiding cords lest they lose their way in the labyrinth of passages. whence they dig the stones with pickaxes[2]. With the utmost care emerald was tken handled. "The newly extracted emerald is thrown into warm oil, wrapped in cotton and finally packed in linen"[3]. The reports of Masoudi and Makrizi reveal that the southern portion of the Eastern Desert (from which gold, copper and emeralds were extracted) was in the Arab period a prosperous land inhabited by warlike tribes of mixed origin. "The tribe of Rabi-a, states Masoudi, "mixed with the Bedjah (the natives) and as a result grew in strength and wealth[4]. Though under the protection of these nomads (whose chiefs received royalities) the mines were policed by soldiers and officers sent by the Sultan.However, it was through the agency of a certain contaretor that the mines were worked. Furthermore, we are informed that a bureau with overseers and scribes looked after the mines and their labour force[5]. Miners wages and other expenses were being paid by the Sultan through this office. This in fact confims our view that in the Arab period paid labour replaced the age-old forced labour of former times. The number of workers was never fixed. If the government became really anxious to increase emerald production many workers were recruited, and if for some reason or other it lost interest, the number deceased appreciably. A duty that overseers had to perform daily before the end of the working hours was a careful and scrupulous search privately applied to every worker lest he hid a precious stone. Yet despite this precaution some workers succeeded in getting away with gems[6]. As regards

---

1. For comment see. A-M. De Rogiere Description de l'Egypte Vol. XXI. Paris D.M. ccc. xxvi, pp. 116 — 121

B. Quatremère, E. E. Memoires Geographiques et Historiques sur l'Egypte. Tome second, Paris, 1811, p. 174.

2. Makrizi op., cit., p. 313.

3. Ibid.

4. Masoudi, op., cit., p. 338.

5. Makrizi op., cit., p. 376.

6. Ibid., op., cit., p. 376

Arab mining sttlemets they represent a continuation of previous ones. Expectedly they were bumble villages built up of rubble stones and stood close to the mines but slightly above the bed of wadis.

Abou-El-Abbas El-Teisachi (1182 A.D.) names six mines worked in his days, but the places referred to by these names, cannot be indentified [1]. Further though emerald was essentially extracted from subterranean pits, small amounts of inferior quality) were found embedded in wadis floors. However, four kinds of emeralds came to be known as early as the tenth century [2].

1. El-Mur المر — very beautiful, costly and flawless, as brilliants and bright as white-beet.

2. El-Bahari (Maritime) البحري — myrtle coloured, prized by the kings of Sind India, Zinj and China.

3. El-Maghrebi (Occidental) المغربي - so named because it is much sought after by the kings of France, Lombardy, Andalusia, Gallicia. Gascony and Russia.

4. El-Assum الأصم—the commonest and most inferor, pale green and not brilliant.

Masoudi and Dimashki (10th and 14th century respectively) also distinguish the following four grades of emeralds [3]:

1. El-Thubabi الذبابي -(likened in colour to that of the cantharides fly) is of true brilliant green colour and the most costly and precious of all. One carat of it may cost as much as 4 dinars.

2. El-Rihani الريحاني - (myrtle leaf hued) is a second grade stone but preferred by orientals and negroes.

3. El-Salki السلقي — White-beet coloured.

4. El-Saboni الصابوني— has the appearance of Egyptian soap; being dull in colour is of little value.

---

1. M. De Rozière, op., cit, p. 120 et seq.

2. Masoudi, op., cit., 338 and p. 339.

3. Ibid.

Dimashki, Nukhbat El-Dahre, Leipzig, 1923, p. 76. (Arabic text).

Regarding the size of Egyptian emeralds El-Teisachi mentions that the biggest stones are from twelve to fifteen millimetres in diameter, the average being seven to eight millimetres[1]. In terms of weight Masoudi gives five mithkals (three-quarter of an ounce) as the weight of the heaviest emerald found. But Makrizi cites a stone weighing one rotl (about one lb) and another found in 1286 A.D. weighing 165 mithkals (about 25 ounces)[2]. The unanimity of Arab writers in their admiration of Egyptian emeralds and the world-wide reputation these gems had, go far to refute the assertions of modern engineers and jewellers who deny that the Egyptian mines ever have produced good stones. Furthermore, the early Arab jewellers who apperciated the value of high-quality gems considered Egypt the sole producer of the most precious emerald stones[3]. We are even inclined to suggest that in this period great efforts were spent to increase emerald production in order to meet an ever increasing demand at home and abroad. The prodigious amounts of emeralds bequeathed by members of the reigning dynasty[4], and the unanimous admiration shown by foreign kings to certain Egyptian emerald stones, strengthen this view.

Of superstitions connected with the stone, Masoudi relates that its colour is said to improve early in the month and under the full moon, that the stones vary in abundance according to the season, weather, and origin of the blowing wind, and that the stones destroy the eyes of serpents that rashly gaz upon them[5].

---

1. Thomas, S. op., cit., p. 268

2. Makrizi-kitab Al-solouk Vol. 2, 1st part Cairo, 1941, p. 12. (Arabic text) See also Taghri Bardi—Al-Noujoum Al-Zahira Vol. 8, Cairo 1939, p. 215. (Arabic text).

3. In this connection the well-known Arab writer El-Ga-hiz (9th century A.D.) states clearly in one of his essays that the best emarald stones in his days are imported from Egypt. See his "Al-Tabassur Bittijarah", Cairo 1935, p. 27 (Arabic text).

4. One of the danghter of Mo-izz, states Makrizi, "left at her death an ardebb (about five bushels) of emeralds" see Makrizi Al-Khetat. Vol. II, p. 263. Also of signicance is the fact that the receipts from emerald mines were at one time assigned to the emirs, mamluks, and army. — Lane-poole - A History of Egypt-in the Middle Ages, London, 1961, p. 304.

5. Masoudi, op. cit., p. 339.

Emerald was carried from the mines to Cairo, thence it made its way to the far corners of the ocumene. It was coveted and higly-prized by kings for the many virtues ascribed to it. To mention a few, it was held to be a perservative against epilepsy, it cured dysentery and snake bites, it assited women in childbirth, it drove away evil spirit, and because of its colour was believed to be good for eyesight.

After 18 centuries of active exploitation the mines showed signs of exhaustion and had to be abandoned. Makrizi approximately fixes the year 765 A.H. (c. 1365 A. D.) as marking the end of emerald mining in Egypt[1]. But it is likely that production of inferior stones continued, though on a very small scale, untile Pezaro conquered Peru (1520), a new country rich in emerald[2]. Thus, a mineral exploitation that increased Egypt's wealth and fixed Man's labour for so long at an inhospitable and desolate place, came to an end[3].

---

1. Makrizi, Al Khetat. Vol. I. p., 376.

2. Ismalun, M., op. cit., p. 188.

3. During the 19th century, and the early years of this century certain attempts were made towards re-opening the mines but they failed.

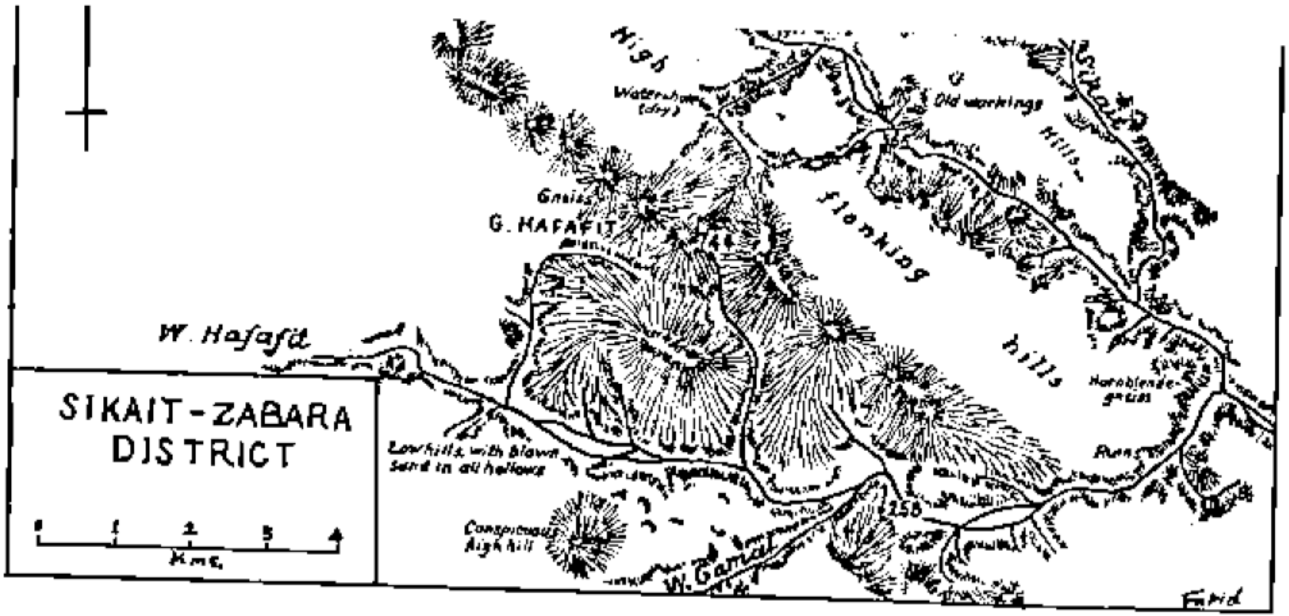
SIKAIT-ZABARA
DISTRICT
0 1 2 3 4
Kms.
W. Hafafit
High
Watershed (dry)
Old workings
Hills
flanking
hills
Gneiss
G. HAFAFIT
Hornblende-gneiss
Ruins
Low hills with blown sand in all hollows
Conspicuous high hill
W. Gamal
Sikait

Fig. 1

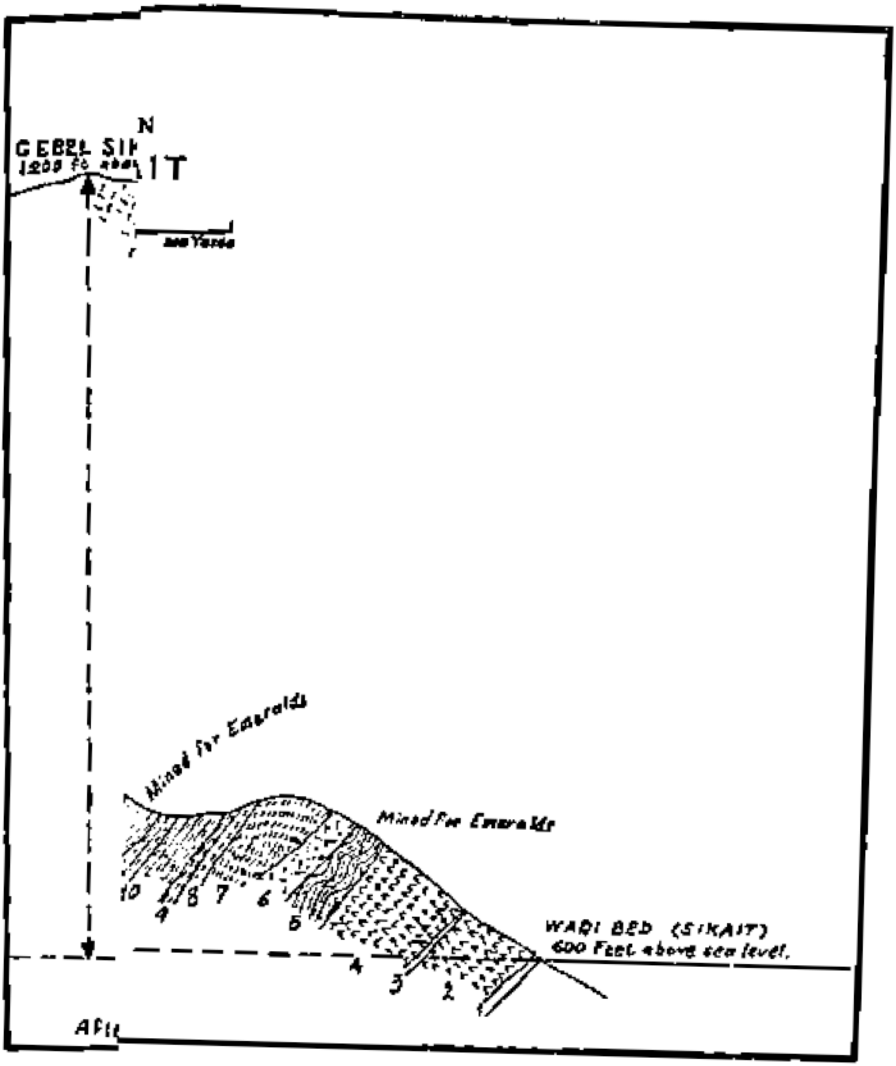
N
Yards
Mined for Emeralds
Mined for Emeralds
10
9
8
7
6
5
4
3
2
WADI BED (SIKAIT)
600 Feet above sea level.

The Arab section of the survey follows the pattern of the main portion as closely as feasible. As *entrée en matière* we have the impressions made by the Cordovan court upon John of Gorze, envoy of Otto I; there follows a survey of historical and literary developments from the Moslem conquest of Spain to the abolition of the Cordovan caliphate. A tthis point comes a discussion of the *Dove's Neck Ring* of Ibn Ḥazm-one of the few pages of this section which recall the perceptive critical passages (such as those on the *Rhythmus of Modena* and on *Ruodlieb*) which, earlier in this volume, enliven the drier factual manner of the bulk of the exposition. With the courts of *the reyes de las taifas* — the nearest equivalent to the feudal signoral courts — the author is able to return to the identical method of regional survey which he uses in the earlier sections. This portion ends with an account of the two strophic forms of Spanish Arabic poetry, the *muwashshaḥ* and *zajal*, followed, very abruptly, by a page on Sicily. It is a very great boon to have, after this, a bird's-eye view of the arguments for and against Arab influence upon mediaeval courtly literature. This includes a history of the controversy, beginning as far back as the sixteenth century, with Barbieri's supposition that rhyme is of of Arabic provenance. Professor Bezzola divides the question into the study of genres, themes, and motifs on one hand, and of verse forms on the other, and ends with a carefully balanced judgement of his own.

It is often said that a reader is impressed by a work of synthesis until he comes to the topic he knows something about — when his eyes open to the deficiencies. If I say that this happened in my own reading of this volume, I must immediately qualify this criticism by emphasizing that the Arab portion of the work is marginal to the whole scheme. This may be the least sound portion of an impressive work, but it is not the weakest link in the chain, since it is only a pendentive to it.

It is stimulating to have a view of a fragment of the literary history of Arabic as seen by a comparativist with a general interpretation of cultural developments in mind; but, perhaps inevitably, there are distortions of vision which irritate. It is not clear if the purpose of this survey is pure comparison, or whether it is intended to throw light on the question of influences; in either case, one calls in doubt the delimitations and proportionate treatments of the topics discussed. Arab

Europe was not culturally a separate entity in the Arab world; as much as any other portion, it shared the heritage of Islamic civilization, and such new developments as affected Arab culture in general in the centuries reviewed. Professor Bezzola, by dealing only with the specific contribution of Spain, without filling in the background into which it fitted, gives it a false emphasis.

This does injustice to the Arab literature of Spain itself; thus though he accords it the priority for fully developed stanzaic verse, he does not (as Pérès and others have done) recognize the particular emphasis given in Spain to specific themes such as the description of gardens, and the use of flower symbolism. He does not sufficiently bring out the way in which Arab Spain made for itself out of the culture of the eastern Caliphate the stimulus of an admired and emulated model —this though he does broach the subject (pp. 169 f.) as well as mentioning some of the comings and goings of texts, traditions, and scholars between Spain and the east (pp. 159, 163, 167, 170—71). This is regrettable, because the Spanish situation would throw light upon Bezzola's own view that classical culture played a similar rôle in mediaeval European secular developments. Presumably in an attempt to justify the ending of the survey with the eleventh century, we are told that 'La grande période de la littérature, de la philosophie et des sciences arabes en Espagne ira du xe au xie siècle.' Yet Bezzola himself reminds us that Ibn Quzmān, in whom he is particularly interested, lived to 1160, and the statement ignores three giants : Averroes (1126 — 98), Ibn 'Arabī and Mūsa ibn Maymun (Maimonides), to whom no one, surely, will deny the status of an Arabic philosopher. Professor Bezzola, like so many western observers, fails to understand the peculiar way in which Islamic civilization was at one and the same time so heterogeneous in its elements, and yet so uniquely itself; thus one cannot consider Ibn ul-Qūṭiyyah's history as representing a 'non-Arab' point of view (p.171) simply by reason of the historian's being the son of a descendant of Witiza. The respected position which a poet was accorded at Arab courts is emphasized (p. 175), but although Professor Bezzola, in this same context, recognizes the existence of poetic taste among the middle classes, he reveals no awareness of a prime difference between

Arab and European culture at that time — the importance of cities in the first of the two. Ibn 'Abdi Rabbihi published (p. 166) 'tout un receuil composé de vers érotiques toujours suivis de poésies religieuses', Al-Zubayrī is known (p. 168 n 2) for religious and moral poems as well as poems of *fin' amors* : but the Arabic secular tradition was altogether very much more closely knit with religious considerations than such passing remarks show — as closely as it was also with linguistic studies, which receive scant treatment. Ibn Ḥazm not only, like Andreas Capellanus, ends his treatise with a *retracciour*, but also begins it with one, using — as Chrestien de Troyes does in his *Lancelot*, words which lay some responsibility for the work upon the person who requested it. If the *Dove's Neck Ring* can be looked upon as a study in 'comparative love', is it entirely fortuitous that its author, a totally 'committed' Moslem theologian and a keenly observant humanist, should have written, in his *Kitāb ul milal wan-niḥal*, one of the world's first works on comparative religion ?

The details of literary and political history are not always exact, and are sometimes not stated in the clearest fashion. A reader not familiar with Arabic history will be puzzled by the incomplete reference on p. 156 to the 'premier Umaiyade [sc. first Umayyad ruler of Spain] Abd el-Rahman Ier (776 — 788)', especially as the next page refers to him as the nephew of the 'dernier calif umaiyade [i.e. of the East], Marwan II (1750)', while p. 165 speaks of Abd ur-Raḥman III as the first Umayyad [i.e. of the West] to adopt the title of caliph. Well may Professor Bezzola warn us at the outset (p. 153 n 1) that the transliteration of names follows no uniform method : we have *rechez* for *rajaz* (p. 159), *Asdi Ibn Hani* for Ibn Hāni' al Azdi (p. 168), *Amoish* for Al-Mu'izz (p. 168), and, throughout, the impossible form *Ibn 'Abd al-Rabbihi* for Ibn 'Abdi Rabbihi. The title of the *Sakuntala* is spelt in two different ways within the space of four lines (p. 190 n. 3). Misprints which would normally be unimportant can in a work of such a nature be a trap to the uninitiate: among names, titles and expressions misspelt are Ibn Yaḥyā (p. 169), *Sirāj ul-mulūk* (p. 167 n. 1), Ibn Bājja (p. 179), Ja'far (p. 182) and *ribāṭ* (p. 192). On p. 172, it is said of Ibn Ḥazm's grandfather that he was 'converti au christianisme': this surely should be

'converti *du* christianisme' ? There are double references to the same works and persons under different forms of the names, as well as in translated forms : thus Abū 'Alī ul-Kālī (167, 170), *Al 'iqd ul farīd* (pp. 164, 166) and *Siraj ul-mulūk* (pp. 167 n. 1, 179) are each twice intoduced as new to the reader; p. 163n1 contains no sign that two of the works referred to in it are translations of the same book.

This type of error is not confined to matters of special knowledge, but threaten the common-sense of the exposition. We are given a general supposition that Ar-Ramādī 'devait être un poète d'amour raffiné' for Ibn Hazm to have singled him out as the perfect lover (p. 169); two pages later we are given a much more specific reason (his poems to a woman whom he had only glimpsed once in his life). On the same page we are told twice over that Hishām II's mother was a Basque; Amari's work on Sicily and Bloch's on feudalism are each referred to in full twice (pp. 182 n.1 and 185n.2; pp. 192n.1 and 198n.1). In an important footnote (p. 185 n.6) listing motifs, item no. 34 has dropped out. Artaga's tract criticizing the theory of Arab influence is dated (p. 188 n. 6) "Venise, 1791"; the copy which the present reviewer owns was published in Rome in the same year : were there two impressions of it ? Sometimes the footnotes somewhat alter the argument in the text : thus the original Latin text of Alvaro's *Indiculus luminosus* (p. 161 n.1) makes it less indubitable than Dozy's translation (in the body of the text, p. 161) that it is Moslem (and not classical pagan) works which were distracting the attention of this ninth-century bishop's flock.

Professor Bezzola's work, in brief, though it is magistral in its broad lines, remains in parts something of a patchwork of which the tacking threads have not yet been removed.

For the readers of this book the survey of the debate on Arab influence upon European literature will be the most interesting part part of this section. Its value would have been greater if it had been more systematic : the very fact that it is so detailed makes it look more

er hand, the valid arguments

it among arguments scarcely

had caught up on the work

A few examples of lacunae and weaknesses of different types may be cited. After Thomas Warton (p. 184) it would have been welcome to see a reference to Joseph Berington's *Literary History of the Middle Ages* (1814), especially since this work set out to do, in its leisurely and unprofessional manner, very much what Professor Bezzola has succeeded in giving us today. Complete with an appendix 'On the Arabian or Saracenic Learning', it is the work of a Bezzola of the Napoleonic period. There is no reference to the recent theory that Gerbert, who justly figures prominently in the main portion of this volume (e.g. pp. 52, 53, 58n.4, 74 n.5) studied Arabic thought and philosophy at Rippoll : this, if true, brings forward the effect of Arab learning on Europe by over a century (cf. p. 192 n. 3). The indebtedness of the *Divina Commedia* to Islamic eschatology is a notion that should not have been readily dismissed in 1960, some years after the *Liber scalae* had been published. Arab influence on the fine arts and music may safely (*pace* Bezzola p. 183) be classed together with influence on the sciences, medicine, and philosophy, as 'un fait prouvé'. No attempt is made to adduce the evidence of indisputable influence upon European writers, such as is seen, later than the period covered, in Ramon Lull's use of *Kalīlah wa Dimnah*. In the discussion of parallel motifs in courtly literature, no comparison is made with oriental analogues (probably due to a much earlier wave of transmission) in popular romances such as *Herzog Ernst*.

Over stanzaic schemes there is some confusion. A distinction should be made between the overall scheme of the *muwashshah*, in in which crossed rhyme occurs, and the usually monorime schemes of the *kharjah* of the *muwashshah*, which has a rough equivalent, in Middle English prosody, in the short-lined *wheel* at the end of a section of verse. There is certainly some reason to suppose that the *kharjah* is borrowed from lost Romance songs; but there is a 'proto-muwashshah' attributed to an eastern Arabic provenance and to the ninth century. (For recent contributions to this controversy, no fewer than three articles in one number (vol. xxi, fasc. 2) of *Al-Andalus* for 1956 may be adduced.)

Professor Bezzola's survey, which comes to no dogmatic conclusion regarding the transmission of verse-forms and the cult of *fin' amors*, should persuade any reader that the parallels between Arabic and European literature are, on these two points, too striking for a scholar of the European tradition to dismiss Arabic literature as 'exotic' to his theme. Even with no influence proven, the religious and cultural similarities (Bezzola, p. 199) are illuminating; but when a king of Seville, and patron of poetry, is shown to be descended both from a Yemenite tribe and from the Wisigothic rulers (p. 164), signs of inter-penetration must surely be carefully considered. A student of western love-literature who is at all interested in the interplay between faith and the emotions, the tender nostalgic sorrow with which a believer who is also a 'humanist' folds away the second-best raiment of his being, will inevitably take in at one glance the closing stanzas of Chaucer's *Troilus*, the last book of Andreas's *De arte honeste amandi* and the final sections of *The Dove's Neck Ring*, a book of which Professor Bezzola (p. 173) writes :

> Le moule ovidien du 'Livre de la Colombe' est encore reconnaissable, mais le genre didactique à base sceptique s'est transformé, par l'inspiration d'un vrai poète et philosophe platonicien, en une charmante suite de scènes non seulement bien observées et décrites, mais profondément vécues. A côté du *Tawq al-hamama* d'Ibn Hazm, l'*Ars amandi* d'Ovide, malgré son raffinement formel tout pénétré de la sensualité la plus cynique, et le *De arte honeste amandi* d'André le Chapelain, dans la sécheresse de son exposition et de sa casuistique, font assez piètre figure.

MAHMOUD MANZALAOUI

SPAIN BETWEEN EAST AND WEST

By

ANTONIO IGLESIAS LAGUNA

Spain as an Eastern Country :

Among all the European nations having ever built a bridge between Eastern and Western civilization, Spain is perhaps the country that better preserved the Oriental heritage. Much better than Greece, Rome or Byzantium. Greece absorbed much of the Oriental cultures of her age, specially in her origins, but she remained Greek, I mean European, throughout the centuries. It is for this very reason that we, Europeans, talk about Greek culture and thought as the living source of our spititual life. Rome, too, was imbibed of Oriental spirit but for the Romans the Orient consisted only of far-off provinces that had to be protected and raised to Roman standards of civilization. Greece formed the European mind. (Byzantium should be considered as a kind of Christian bulwark able to resist the Asiatic onrush till 1453, in which year Constantinople was conquered by the Turks.)

Lastly, the great powers of modern Europe — England and France — came to the Orient with a view to subduing it. Colonization, Imperialism were means for a political task which besides the political enslavement included the diffusion of European ideas and habits but not the opposite, though the total impermeability was impssible. Those countries were more interested in (cheap) raw materials than in cultural values. The antagonism brought about the jealousy between both of them. In Egypt, for instance, England and France clashed in Napoleonic times. The invasion of Syria proved to be of no avail and Napoleon had to return to France in August 1799,but this war only reflected the struggle for supremacy in the Middle East between both nations. Their colonial mentality is well illustrated, as Dr. Ahmad Anwar, Egyptian Ambassador in Madrid remembered in a lecture at Zaragoza, by the fact that the French Prime Minister, M. Jules Ferry, denied in the year 1885 before the French Assembly that the Human Rights Declaration may have anything to do with Negroes.

thern Spain. For the same reasons when France conquered Mauritania we tooke the necessary steps for protecting the Canary Islands. Britain, for instance, has more than once tried to convert these two Spanish provinces into a British colony.)

We are living today in a changing world, in a world where colonialism and imperialism are regarded as curses we cannot put up with. In this connection the Spaniards feel like all the Afroasian countries because we are still suffering under colonialism. We are sure of the final disappearance of colonialism, but in any case nobody can overlook the historical and geographical fact that Spain and Africa are complementary parts of a whole. Summing up, it is convenient to remind oneself that Spain, as regards her policies towards the Oriental world, has been conquered before conquering herself the tiniest bit of land; that Spain has lived under Oriental influence 2.500 years and only exerted her own influence dring the last five centuries; that even in those bygone days when my country was a sea power in the Mediterranean she always fought a defensive war, never trying to rule over peoples, though this might have been possible in several occasions. It is therefore correct to speak of Spanish poitical inhibition (in the Mediterranean) as well as of a continuous trend towards friendship and cultural intercouse with Arab countries.

Spain learned very much from the Muslims, adopted their culture and established blood ties with them. We are proud of our Arab past. We believe that this common origin secures the continuity of our friendly relations with the Arab world. This community of ideals and interests gives its special flavour to our spiritual presence in the Oriental world though one must not forget that Spain is an European country and a Roman Catholic one. Our preference for the Arabic civilization has nothing to do with Imperial preferences or Imperial rights to be defended with warships, parachutists and airborne troops. It is the result of a common destiny. Kinships due to political domination, to a colonialist past are doomed to disappear, to show their real face. (Those who have to suffer under them will only be glad to see them in jeopardy, to free themselves from such „relatives". The Holy Quran says in this connection : „And when the trumpet is blown there will be no kinship among them that day, nor will they ask of one another".

Spain as a Western Country :

Nobody should think I am (trying to make amends for eventual errors in the past or) (suggerting to show (before your eyes) the image of one Spain) that could be an intergral part of the Mussulman world. Were this the case, one would have to explain how it is possible that my country be a Roman Catholic one, that no Muslim minoritics live there like in Bulgaria or Poland, not to speak of ou overwhelming Muslim population like in Albania. Of course not. Spain remains a part of Europe. Spain began her carrier as a modern nation with the discovery of America, in 1492, i. e. the same year of the Granada surrender. Nations must undergo a physical growth in order to achieve historical maturity. Important are only the elements composing national body. On the other hand Spain has absorbed Oriental elements during 25 centuries and they cannot be thought off, ignored, excluled without maiming the very framework of our soul. Nobody should, however, think these Oriental elements are the principal ones. To believe this is the usual error of some Arab historians, who mistake themselves and their readers by taking no account of our history as a whole, limiting their research to Muslim Spain. Why not to Greek, Carthaginian, Roman, Byzantine or Visigothic Spain ? I don't wish to refute such an illustrious historian as Amir Ali but I cannot help to smile when I read these words printed in his famous „History of the Sarracens" : "The Moors were banished; for a while Christian Spain shone, like the moon, with a borrowed light;then came the eclipse,and in that darkness Spain has grovelled ever since". The truth is just the opposite. After having achieved her national maturity in 1492, Spain rose during a couple of centuries to preeminence in Europe and throughout the world, attained her Golden Century. Her definitive political fallin 1898 has to be explained as the result of a hopeless struggle with rising European powers like Germany, France and Great Britain. Our downfall is logical due to the enormous task we took on our shoulders. The reasons for our decay should not be looked for in the existence or absence of Muslim communities in our country after 1492. Had Spain remained Muslim (until today) during those bright centuries) the European nations would not lave spared her, just as they did not spare the Ottoman Empire, Persia, India or the Arab world.

I must reassert it. Spain is an European country though in a peculiar way having little in common with the Europeanism of Germany, Italy or France. Europe means for us something else. We are Europeans *as well*, *mainly* Europeans but not *exclusively* Europeans. (Just as the Russians are European and Asiatic at the same time.)

My country, due to her geographical situation lives inside a magic triangle : Europe, America and Africa. Not to understand this is the best way for misunderstanding Spain. The Frenchmen say „Africa begins at the Pyrenees''. Well, Africa may begin at the Pyrenees. We are proud of it, we don't forget there are racial links between the Iberian and the Berber tribes since prehistoric times. In spite of it Spain differs from Africa just as Africa differs from Spain. I consider necessary to lay stress upon this reality, (as Muslim historians went sometimes so far as to identify Mussulman Spain with Africa and the Orient. They wrote by the by pages of delicious candour about the Christain invaders of Al-Andalus.) The Spanish arabist Isidro de las Cagigas has proved that 'only a few thousand Muslims have been necessary for conquering Visigothic Spain. Including the Almoravide and Almohade troops who came thereafter, the Arab and African soldiers occupying the Pendinsula during the famous eight centuries never supposed the bulk of our population, only a small part of it. To put it in other words, the Spanish Muslims have been no foreigners but mainly Spaniards converted to Islam. For this reason the reconquest was actually a civil war between christian and Musulman Spaniards.

Islamic toleration permitted the existence of big Christian and Hebrew communities in Al-Andalus. Marriages between Christians Muslims, military allainces between Christian and Muslim princes with a view to overrunning Muslim or Christian enemies have not been seldom but, as a matter of fact, the general law. The case of Muslim Spain bears a striking likeness to that of Muslim India, though there is a capital difference : Muslim power was destroyed in the subcontinent by European nations, not by the natives themselves as it happened in Spain. (Therefore the outcome has been different : Spain remains today a compact, homogenous people; India is composed of peoples speaking many languages, belonging to many races, believing in many religions.)

Spain can be proud of her Arab heritage without forgetting her Christian tradition. The Muslim presence in the Peninsula enriched our spirit, changed it partially but it did not substancially modify a national genius which had had occasion for developping along original lines many centuries before the advent of Islamic civilisation. Let us not forget that Roman Spain supplied the Roman Empire with philosophers, economists, writers, poets and emperors. Thus, my country had the obligation of maintining a culture, a spirit that had moulded our mind since the arrival of Greece and Rome to our coasts. Christianity came with the Romans and it intended to stay. The Reconquest was started in 718, seven years after the Visigothic defeat, and the rolling back could not be prevented by the Mussulmans. It seems exaggerated to speak of eight centuries of Muslim Spain. Forty per cent of the Iberian soil had been reconquered as early as 1065, at the death of Ferdinand I. The southernmost point of the Peninsula, Tarifa, fell in Christian hands in 1292. As a matter of fact Muslim Spain had been reduced to an enclave two centuries before the fall of Granada.

Please, bear also in mind that Christian Spain was not isolated from Europe. The Eurpean countries, Italy and France mainly, granted Christian Spain the cultural and spiritual support she barely needed for resisting the pressure of Islamic civilization that, as everybody knows, was paramount and better than our own during the first centuries of this confrontation. Roman tradition, Christian religion and European backing in this crucial period modelated Spain and made my country European for ever in spite of the Oriental marks and the spiritual ties with the American continent. Had Spain been forgotten like Albania, she would be tody a different land. History decided thus and to ignore its lessons seems the best way for misunderstanding a nation. (To overlook the permanent reality of Christian Spain amounts to forget the existence of Pharaonic or Ptolomeic Egypt. The vigorous personality of Egypt, if compared with that of other Muslim countries, has its roots in the historical grandeur before Islam. Nomadic peoples who never produced a great civilization possess a single cultural layer. This might be the case of the Eskimos not that of Egypt and Spain.

Arab and European Civilization :

Let us see Spain with European eyes. A German, a Briton, a Frenchman, a Scandinavian will tell you that Spain, considered as an European country, is a very queer one. They notice racial, spiri-

an European country, is a very queer one. They notice racial, spiritual, cultural differences we are always awere of. These traits are the sequel of our Oriental past, specially of our Arab tradition. In our literature, our folklore there are many traces of this Eastern trend. Spanish chivalry and hospitality have Islamic roots. The Spanish language, on account of our Roman ancestors, remains a Latin language up to the present day; has, however, adopted many thousands of Arabic and Persian words. The Spanish poetry uses strophes akin to the Arabic ones. Our early medieval poetry, as Damaso Alonso says, has not Provencal but Muslim origins. Our oldest poems contain Arabic and Spanish words gracefully intermingled. In present Spain there are many towns and villages the holydays of which — the feasts of Moors and Christians — call up those happy days in which bigotry did not hinder a common life. There is still a Spanish village, Benamahoma (Cadiz), i. e. the town of Mohammed children, where the warlike show always ends with a Muslim vicory.

Thousands of Spanish geographical names have an Arabic origin. This happens because Al-Andalus was not simply a reservoir of Islamic civilisation but one of its chief centres. Muslim culture developped there nurtured by the Spaniards themselves, who fostered it with the same passion they put in the advancement of Roman culture. „Whatever can be done by sheer force of genius of the impulse of some ardent passion, whether in the physical or in the spiritual world, that a Spaniard has done", writes the British historian Havelock Ellis. The same author remembers that the old Iberians formed part of a great Mediterranean race which reached from Spain to Africa, where they may still be seen in their present form, by the ancient called Lybians, by the modern Kabyles and Berbers. A kinship that maintains itself due to the Carthaginian presence in Spain that explained even in Roman days, the curious affinity between Africa and Spain in the resemblance in literary spirit between the Latin African writers and Spanish writers.).

Muslim Cordova could boast of a cultural christian tradritnt several centuries old going back to Hosius, Seneca and Lucan. It flourished in Cordova the highest civilization of its time, its university was the chief centre of European learning, and Albucasis, Abenzoaii Al Hazem (and Averroes) were the chief scientific luminaries. Any way I must repeat it, they were Spaniards who developped a Muslim culture just as centuries before other Spaniards had developed in

the same place the Roman and Christian civilization. Spain was always an active, dyamic agent of Muslim learning. When the Spanish Muslims were complled to leave the Peninsula they tried to maintain alive their cultural tradition on African soil; but having been deprived of their roots they did not succeed in the long run and brought forth a mimetic civilization, a constant repetition of the glories of Al-Andalus.

The interest for Muslim culture will on the other hand be kept alive by Christian Spaniards who travel through Africa and Asia and sometimes accept Islam. For instance, Leon de Granada, whose real name was Hassan ben Mohammed, born at Granada in 1491, author of a (giant) "Description of Africa" (1526); Luis de Marmol Carvajal, who lived 22 years in Africa, principally in Tunisia, author of a "General Description of Africa" (1573); Ali Bey el Abbasi, already referred to; Hach Mohammed el Bagdadi (José Maria de Murga), and Sheikh Ismail (Joaquin Gatell).

I have pointed out the survival of Christian Spain inside Muslim Spain. This survival accelerated the Reconquest. The Christian kingdoms of North Spain kept a watchful eye on these fellow- believers and tried to establish their rule over them. The Reconquest must therefore be considered as a roll-back, as a turn of the tide, as a civil war between both communities and not as a Spanish invasion of the Spanish fatherlad). Codera has proved that many Latin languages and dialects were spoken in Al-Andalus, where Arabic was simply the official language. Latin was at the same time employed for literary and canonical purposes; the Christians of the VIII-XI centuries could not of course create a civilisation rivalising with that of Cordova. They lived on scanty books and had no libraries like that of al-Hakem II. Therefore the great writers of this period are Muslims like Algazal, Ibn Abd el-Rabini, Aben Hani, Azzobaidi, Habid, Radia. It is the great age of zéjel and muwwassaha. But the Christian tradition instead of dying away lives underground, in Cordova itself, thanks to the scholarship of men like Speraindeo, Saint Eulogius, Paulo Alvaro and Abbot Sanson. Notwithstanding the Muslum civlization grows and the Christian decays. In the days of Abd-ar-Rahman III there are in Cordova only a few Christian intellectuals, who later on migrate to Northern Spain, attracted by the intellectual revival of Cluny in the XII century. Parallel to it, Mussulman learning fades away in Al-Andalus from the XIII century onwards. Abul Beka, Alwacaxi and Aben Cuzman are the last representatives of a folk fighting now not for literary

supremacy but for physical survival. The Spanish language is born, the great medieval authors write their masterpieces, the Spaniards acquire slowly the sense of nationality and they do their best in order to bring the whole country under their rule.

Summing up

Spain has enjoyed the Oriental influence during many centuries but, I must reassert it, she never forgot her European roots. Present Spain is the result of this encounter and peaceful meeting of East and West. The Western world prevailed at the end but the Oriental traits are there and nobody can deny them. It is for this reason that Spain means a compromise between both cultures. She is the only European nation who can boast of an Oriental heritage without being indeed an Oriental country. In the days of Spanish hegemony in the world our historical destiny held us aloof from the Muslim world and sent us across the seas to create our own civilization in the Western Hemisphere. Notwithstanding the Mussulman world was never forgotten and the Spanish speaking countries overseas have also got something from the essences of the Spanish soul. The mudéjar architecture, that of Muslim architects working in Christian Spain, could be the best exponent of this. Mudéjar, a style which you can find in America in the cathedral of Santo Domingo, in the house of Diego Colon, in Santo Domingo de Tunja, in San Francisco de Cartagena. Finally, let us remember ther are big Syrian, Turkish and Libanese colonies in South America bringing together the Arab and Spanish ideals. The similarity between both of them has paved the way for cultural movements considered impossible one hnudred years ago, for instance the revival of Arab poetry. Is it not surprising that some of the greatest Arab poets of this century were born in the Western Hemisphere ? Poets like Fawzi Maahuf and Al-Karaui born in Brazil, like Youran Khalil Youbran and Naima born in the USA, like Ilias Qonsul born in Argentine, Ilias Qonsul is a bilingual poet writing both in Arabic and Spanish.

Spain, a nation between East and West, a country that although it belongs to the West is proud of her Oriental ancestry. The only European land that has treasured the best essences of the Arab soul and can therefore say that its friendly relations with the Muslim world are deep-rooted and everlasting. Spain a country with European mind and Arab soul.

Antonio Iglesias Laguna

NATURE IN THE EARLY POEMS OF MATTHEW ARNOLD

By

OMNIA RIAD GINDY

The "dissolving agencies of the eighteenth century and the fiery storm of the French Revolution" [1] had destroyed, for Arnold, the basis of Europe's spiritual life. To him the grand business of "modern" poetry was to supply anew such a basis, to give a *moral* interpretation, from an independent point of view, of man and the world, and, therefore, it was that for him, as for Epictetus, the "concern how to live" became the best and master thing. [2] This concern lies behind, and accounts for, his seemingly inconsistent dealings with Nature. His attitude remained the same throughout, and it is best reflected in the relevant poems he himself put in the *Selections* of 1877, namely, *Quiet Work*, *Parting*, *Self-Dependence*, *Morality*, *A Summer Night* and *Lines Written in Kensington Gardens*. These reveal a dualistic frame of mind in which two modes of perception co-exist without coming into conflict with each other. In the first place, he chose to see and represent nature as exempt from the bewildering and benumbing influences to which poor uprooted man was subjected; hence, as a healing power for

"The complaining millions of men
(who) Darken in labour and pain".

(from *The Youth of Nature*)

In this Arnold was not altogether treading a solitary path. Wordsworth writing in 1800 saw with concern "the increasing accumulation of men in cities". [3] By the 1840's the modern industrial city, the

1. M. Arnold's *Poetical Works*, ed. C. B. Tinker & H. F. Lowry, London. O.U.P. 1950. Pp. 498-99, from Arnold's note on Senancour.

2. See Arnold's Preface to his edition of *Poems of Wordsworth* (Macmillan, London, 1947) Pp. xvi-vii.

3. *English Critical Essays : XIX Century*, World's Classics, P. 6.

creation and symbol of the liberal, machine-ridden society, was in full existence. In the new environment the loss of the sense of community, and the pain of doubting attending on the breakdown of traditional ways of thought combined to transform the romantic love of nature into the nostalgia for a lost world of peace and companionship, of quiet minds. As Mr. Houghton puts it, "The image had its basis in memory, for every Victorian in the city had either grown up in the country or in a town small enough for ready contact with the rural environment".[1] The nature poetry of the Victorians and their landscape painting in a sense were meant to counterbalance their loss of fellowship with nature. To Ruskin, architecture was, "as far as may be ... to tell us about Nature, to possess us with memories of her quietness". [2] This attitude was not mere escapism; or if it was, at least, it is escapism based on experience. The country-side was seen as a true spiritual retreat which could rescue men from the infection of urban life — its utilitrianism, its selfishness, its wear and tear on body and soul Arnold's view of the therapeutic power of nature was delicate, instinctive and never blatantly didactic. In *Lines Written in Kensington Gardens*, a poem reminiscent of Wordsworth's *Reverie of Poor Susan and* Marvell's *The Garden*, amidst "men's impious uproar" and the "city's jar", Arnold perceives that "here is peace for ever new", that the universal values he sometimes deems dead still abide in the "Calm soul of all things", and repose and consolation ensue. He had not as yet been seriously caught up in the toils of the Machine of the Inspectorate, but the intellectual and spiritual atmosphere he matured in, the experience of living at Fox Howe, his wrecked passion for Marguerite had made him find in the grand still forms of the snowy mountains and in the stars of the firmanent, a perpetual source of consolation and an ideal of tranquillity to which "this poor exaggerated sur-excited humanity" [3] could aspire. In the violence of parting with Marguerite, Arnold desires to be lifted up and made one with a great wild energy :

---

1. W. E. Houghton : *The Victorian Frame of Mind* 1830--1870. Yale University Press, 1957. Page 80.

2. *Selections from the Writings of John Ruskin* (n. d.) London, George Routledge & Sons. New York, E.P. Dutton & Co. Page 175.

3. Letter to Clough, 23 October 1850, in M. Arnold's *Letters to A. H. Clough*, ed. & introduced by H. F. Lowry, London, O.U.P., 1932. Page 116.

"Ye storm-winds of Autumn !
Who rush by, ...
. . . .
Ah ! with you let me go"
(from *Parting*)

but it is only to go where the deep stillness of the mountains and the icy torrents of Obermann are to soothe him and cure him of his confusion.[1] However, it is in *Quiet Work*, the very title of which epitomises what Arnold held nature to mean to man, that he expresses his views explicitly :

"One lesson, Nature, let me learn of thee,
One lesson which in every wind is blown,
One lesson of two duties kept at one
Though the loud world proclaim their enmity —
Of toil unsever'd from tranquillity !
. . . .
Yes, while on earth a thousand discords ring,
Man's fitful uproar mingling with his toil,
Still do thy sleepless minsters move on ..."

The poem stood as the motto to the 1853 Volume of Arnold's poems and in the final arrangement of the collected poems it was the first one in the book. Therefore, "it is clear that (he) regarded it as of primary importance with respect to his poetry and to his philosophy of life". [2]

In that age of "discords" Arnold saw that only in active employment could men hope to retain their equilibrium. In 1848 he tells Clough, "If you mean to do nothing why not emigrate? Shake yourself... For God's sake don't mope, for from that no good can come". [3] Four

---

1. Cf. Letter to Clough Sept. 1849 (op. cit. P. 110). "I carry my aching head to the mountains and to my cousin the Bhunlis Alp."

2. Tinker, C. B., & Lowry, H. F., *The Poetry of Matthew Arnold . A Commentary*, London, O.U.P., 1940. Page 22.

3. Letter to Clough, (*Letters* Page 84) June/July 1848.

months later, he writes, "I desire you should have some occupation— I think it is desirable for everyone, very much so"for the poor subjective, depth-hunter, Clough.[1] He himself found in the grinding work of the inspectorate a partial relief from the mental and spiritual discomforts he used to experience : "I am sometimes in bad spirits, but generally in better than I used to be".[2] Writing to a friend, he quotes, "Rien ne sauve dans cette vie-ci que l'occupation et le travail."[3] This same quotation with others stressing the need of work occurs several times in his Note-Books. But Arnold was no mere propagandist for the Victorian gospel of work. True, he had experienced in his own mental history the partial wisdom of Carlyle's injunction to close one's Byron and to open one's Goethe and that he had in 1851 to take on the arduous task of inspecting Dissenter's schools spread over a very wide area; but the field in which he chose his living was that of education, where he could be in touch with both the workings of the outside world and of the human mind. He had not betrayed his old desire to see his way to the "firm intelligible law of things and thus to get a basis for a less confused action and a more complete perfection than we have at present"[4]. This is the Apostle of Culture speaking, the one who condemned all mechanical action and mere doing that was divorced from a pursuit of inward perfection. The young poet of 1848 was no less a firm believer in Culture and no more indulgent of blind intense activity, directed to no formative end. What he admired in Nature was precisely its "Quiet Work" : it was quiet because the "firm intelligible law of things" seemed to find its fulfilment therein :

> "Still do thy sleepless ministers move on,
> Their glorious tasks in silence perfecting,
> Still working, blaming still our vain turmoil".
>
> (from *Quiet Work*)

---

1. Letter to Clough (*Letters* Page 88) 12 August, 1848.

2. Op. Cit. P. 122, 7 March, 1852.

3. M. Arnold's *Letters*, collected and arranged by G. W. E. Russell, London, Macmillan, 1901. Page 260.

4. M. Arnold's *Culture and Anarchy*, London, John Murray, 1949. Page 122.

To Arnold, then, the appearances of nature "could provide a consoling power for man and could stand as a mute criticism of human activity".[1] but in no way did he ever exalt nature at the expense of man. The nature-versus-man situation which Arnold created in his poems was always a temporary hypothesis postulated in order to redirect man to the primary law of his being. There is no essential contradiction between *To an Independent Preacher* and *Morality*, on the one hand, and *Self-Dependence* and *A Summer Night*, on the other. The three last mentioned poems always formed a group whenever they were republished, the order of *Morality* and *Self-Dependence* sometimes being reversed. The poems figure both in the Collected Edition of the poems and in the Selections. They follow from the poet's reflections on man's fate in face of "Progress" and "Revolutions", and in *Self-Dependence*,

> "Weary of myself, and sick of asking
> What I am, and what I ought to be",

he returns to address the stars, the "labourers" of *Quiet work*,

> "Ye who from my childhood up have calm'd me,
> Calm me, ah, compose me to the end !."

In contemplating the vastness of the heavens Arnold hopes to find release from that sense of constriction implied in the last lines of *Revolutions* :

> "One day, thou say'st, there will at last appear
> The word, the order, which God meant should be.
> — Ah ! we shall know *that* well when it comes near;
> The band will quit man's heart, he will breathe free."

To the poet's desire for self-expansion comes the "air-born" answer

> "Wouldst thou *be* as these are ? Live as they.
> Unaffrighted by the silence round them,
> Undistracted by the sights they see,...

---

1. W. A. Jamison, *Arnold and the Romantics,* Rosenkilde & Bagger, Copenhagen, 1958. Page 2.

.. ..
.. .. self-poised they live, nor pine with noting
All the fever of some differing soul.
.. ..
In their own tasks all their powers pouring,
These attain the mighty life you see"!

The poet, instead of being merged into the Universe, is sent back to actuality, and the "word, the order which God meant should be" is

"Resolve to be thyself; and know that he,
Who finds himself, loses his misery".
(from *Self-Dependence*)

Nature is there to suggest moral values to man, but the laws which govern her are separate and distinct from those which govern human life. Religious impulses being a "mystery", man has to rely upon self-control or conduct in the ordering of his life; however, once he perseveres in that "strife divine" in his "struggling, task' d morality", a-moral nature relinquishes her assumed superiority and, in a sense, even directs man to the Creator :

"... that severe, that earnest air,
I saw, I felt it once — but where ?
.. ..
"Twas when the heavenly house I trod,
And lay upon the breast of God".
(from *Morality*)

To "rest" in nature is to deny one's humanity, to bertray one's higher and spiritual self ;

"Know, man hath all which Nature hath, but more,
And in that *more* lie all his hopes of good".

Yet, even when

"Man must begin ... where Nature ends;
when Nature and man can never be fast friends",
(from *In Harmony with Nature*)

Arnold does not hesitate to praise Nature for its strength and coolness — that would not confuse the issue for him. To confute the Independent Preacher, who should have known better than to cry up nature as a complete guide for human conduct and whose Nonconformity seems to have exasperated him, Arnold brings in the nature of contemporary sicence, "red in tooth and claw". The desire to find in nature the same spiritual qualities as those of the human soul is "unworthy of a man full-grown". Man and nature subscribe to different orders of being :

"To its own impulse every creature stirs;
Live by thy light, and earth will live by hers !".
(from *Religious Isolation*)

In *A Summer Night* his recurring worry over the fate of man having cast him from the heights he attained in *Morality*, Arnold finds himself faced with a prospect of two alternatives in neither of which could man attain self-fulfilment. He is loath to be "by passion quite possess'd" or "quite benumb'd by the world's sway". In his restlessness and misery, the clear, pure heavens, who remain "A world above man's head", perform their function and "let him see

"How boundless might his soul's horizons be".

that between the fates of "Madman or slave"

"How fair a lot to fill
Is left to each man still ! "

The close following of this conclusion by *The Buried Life* cannot but be significant.

In *The Youth of Nature* and *The Youth of Man*, occasioned by the poet's visit to Rydal and Grasmere and by the recent publication of *The Prelude*, Arnold becomes preoccupied with the Berkeleyan as to whether nature lives in itself or in the eye of the beholder. Nature asserts her objective life and triumphantly sings of her immortal

"Loveliness, magic, and grace".
(from *The Youth oj Nature*)

In *The Youth of Man*

"Murmur of living,
Stir of existence,
Soul of the world"

are invoked as a revitalising force to the "dying spirit of youth". However, in both poems there is the underlying feeling that it is because of man's weakness that nature has her hour of triumph :

"Yourselves and your fellows ye known not; and me,
The mateless, the one, will ye know ?"
(from *The Youth of Nature*)

It is the faded ignoble lives of the disillusioned aged couple, led "within the walls/of an ever narrowing world"[1] that bring out by contrast the eternal freshness and youth of nature. The last lines of *The Youth oj Man* — lines of dubious poetic value — make the point clear :

"Sink, 0 Youth, in thy soul !
Yearn to the greatness of Nature;
Rally the good in the depths of thyself !"

One of the reasons why the solitary Empedocles plunges into the crater of Mount Etna is his desperate wish to acquire vitality and self-expansion by uniting himself with the elements, but in Act II of *Empedocles on Etna* Arnold has ceased to identify himself with his protagonist. It is in the Stoic address to Pausanias in Act I Scene I that Arnold sums up his considered, dualistic attitude to nature. A Spinozistic, neutral nature fulfils its own laws regardless of man [2]; nevertheless, this fact need not deter man from picturing in it any moral or spiritual values which may conduce to his happiness. On the one hand,

"Nature, with equal mind.
Sees all her sons at play,

1. From *The Youth of Man.*

2. Cf. *Essays* (London, O.U.P. 1936) by Matthew Arnold : "Marcus Aurelius", Page 239, where Arnold objects to the idea that "the whole course of the universe has a providential reference to man's welfare".

Sees man control the wind,
The wind sweep man away;

Allows the proudly-riding and the foundering bark",

on the other

"Is it so small a thing
To have enjoy'd the sun ?"[1]

It is on the light of this double-sided attitude that one is to take Nature's words :

"Loveliness, magic, and grace,
They are here ! they are set in the world,
They abide; and the finest of souls.
Hath not been thrill'd by them all,
Nor the dullest been dead to them quite".

(from *The Youth of Nature*)

To conclude from these lines that Arnold clings to the belief that moral values are objective in nature "because he needs an extrapersonal ethical reliance"[2] is misleading. In keeping with his view, natural scenes or landscapes in Arnold's poetry generally appear exactly as they would to an extremely observant neutral looker-on.

Arnold was not at heart a true Wordsworthian poet of nature. For him any line of thought or set of beliefs ceased to be valid once its vital relationship to the problem of living could no longer be perceived. He realised, for instance, that rationalism and scientific investigation had created an unfathomable gulf between the romanatic and early Wordsworthian concepts of nature and the analytic, utilitarian climate of mid-nineteenth century thought. Hence he felt quite jusitified in dismissing Wordsworth's philosophy as an illusion, "a tissue of elevated but

1. *Empedocles on Etna*, Act I Scenell, lines 257-261; lines 397-8.

2. H. N. Fairchild, *Religious Trends in English Poetry*. 1830—1880. New York, Columbia University Press. 1957. Page 489.

abstract verbiage, alien to the very nature of poetry"[1]. Arnold was generous in his praise of Wordsworth after the latter's death, but in *Stanzas in Memory of the Author of 'Obermann'*, written in 1849, he does not fight shy of pointing out that "in this our troubled day" the secluded Wordsworth attained to see his way only by averting his eyes from "half of human fate". To the believer in humanism, to one who held that "the spectacle of a writer striving evidently to get breast to breast with reality is always full of instruction and invigoration"[2], this was a grave shortcoming.

1. From Arnold's Preface to *Poems of Wordsworth*, Page xix.

2. *Letters to ... Clough*, Page 86, 20 July, 1848.